المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية (مدى)

علاقة الإعلام الجديد بحرية الرأي والتعبير في فلسطين

الفيسبوك نموذجا

إعداد: محمود الفطافطة

إشراف وتقديم: د. وليد الشرفا

2011

المحتويات

المقدمة 7

المبحث الأول:

قراءة في المفاهيم 11

أولاً: الانترنت 11

ثانياً:الحيز العام 14

ثالثاً: التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال 16

رابعاً: الإعلام الجديد 17

خامساً: الشبكات الاجتماعية 20

المبحث الثاني:

مراجعة الأدبيات 33

المبحث الثالث:

مدخل نظري 55

المبحث الرابع:

المنهجية وأدوات التحليل 77

المبحث الخامس:

الإعلام الجديد وحرية التعبير 89

أولا: الحرية والتعبير:جذور ومسارات 90

ثانياً: حرية الرأي والتعبير في الإعلام الفلسطيني 92

ثالثاً: الإعلام الجديد: خصوصية المظاهر وأدوات الممارسة 95

رابعاً: الإعلام الجديد والديمقراطية 98

المبحث السادس:

الانترنت في فلسطين 107

أولاً: الانترنت على الصعيد العالمي 108

ثانياً: الانترنت في العالم العربي 110

ثالثاً: الانترنت في فلسطين 111

المبحث السابع:

الرقابة والإعلام الجديد 121

أولاً: الرقابة الإعلامية 121

ثانياً: الرقابة والإعلام الجديد 123

ثالثاً: الرقابة والإعلام الجديد: أنماط وتقارير 127

رابعاً: الرقابة والإعلام الجديد في فلسطين 133

المبحث الثامن:

الإعلام الجديد والثورات العربية 143

المبحث التاسع:

الفيسبوك في فلسطين 153

أولاً: الظاهرة والمعطيات 153

ثانياً: الصراع في العالم الافتراضي 156

ثالثاً: المقابلات الشخصية 158

رابعاً: المرأة الفلسطينية والفيسبوك 164

خامساً: الحراك الشبابي الفلسطيني 166

المبحث العاشر:

تحليل عينة من مجموعات الفيسبوك الفلسطينية والاستمارة 173

المبحث الحادي عشر:

الإعلام الجديد... رؤية استشرافية 181

أولاً: مستقبل الانترنت 182

ثانياً: مستقبل الإعلام الجديد 186

ثالثاً: الإعلام الجديد: مخاطر كامنة وتساؤلات مفتوحة 189

النتائج والتوصيات 199

المراجع 205

الإعلام الجديد: الصورة والتاريخ

تقديم : د. وليد الشرفا

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية في مفهوم الإعلام الجديد، بصفته انعكاسا لحراك اجتماعي يختزل مناطق الطرد في المجتمعات العربية : القمع ، الكبت ، الجنس ، وبالتالي تعويض ذلك على الفضاء الافتراضي والمجال العام، حيث الحرية والمتعة وحرية التعبير دون ثمن من خلال عمليات التقنع والتلصص.

تفترض هذه القراءة أن التحول التقني في العالم العربي وتطور التقنية : فضائيات ، مواقع الكترونية ومن ثم مواقع اجتماعية وحتى الهواتف النقالة، تفترض القراءة أن هذا التحول هو تحول طارئ وليس حداثيا، بمعنى أن هذه التقنية تفيد واقعا خدماتيا،عندما تكون المؤسسات التاريخية قوية : دولة ، أحزاب ، بنية تحتية . نقطة الانتقاد التي تقدمها هذه الورقة أن هذه المجالات قد تحولت إلى بديل للمؤسسات التاريخية ، وحولت الرأي العام إلى مؤسسة تاريخية وهدا تحول خطير، يحول القضايا المصيرية إلى حالة خدماتية في الصراع على الرأي العام.

الكامن الذي يحاول هذا البحث الإجابة عليه وتفكيكه هو علاقة الظواهر والتحولات في المجتمع الفلسطيني في قضايا حرية التعبير والرأي بالبنى التقليدية الفلسطينية : عائلات ، أحزاب ، مناطق نفوذ ، دين وثقافة دينية ، ومدى ارتباط هذه التحولات بجدوى وطريقة التعامل مع تقنيات الإعلام الجديد وتحولاته .

سيرصد البحث نماذج من التعاطي ألمعلوماتي وإعادة صناعة الواقع الفلسطيني وليس نقله - حسب الادعاء - من حالات فلسطينية، بشكل يطرح الإشكالية بين حقول تعبيرية جديدة وبين ثقافة في مفهوم التعبير والحرية، وإن كان ذلك علامة تقدم نحو مشروع الديمقراطية أم لا.

لذلك فان هدف البحث ليس تقديم معلومات ساكنة على طريقة استطلاع الرأي في مرحلته الأولية لأن المعلومات والنتائج في هذا الحقل تتوارد باستمرار. المساهمة الأهم التي يتوخى البحث إقامتها هي تقديم شهادة علمية على مرحلة تاريخية معقدة وحافلة بالمفاجآت، وذلك بمعايشة عناصر الحدث والتحول في الميدان وتقديم شهادتهم ضمن السياق المعرفي الذي يتحرك فيه الإعلام الجديد ، ومستوى المفارقة بين الحدث الإعلامي والتاريخي الذي تجسد بمشاركة شباب « الفيسبوك « في التحركات الشعبية الفلسطينية المطالبة بإنهاء الانقسام

ممثلة بحركة 15آذار .

لذلك؛ فان قيمة هذا البحث في محاولة رصد عمق التحول الصوري وعلاقته بالتحول على الأرض، ومدى التغير الفعلي نحو الديمقراطية وحرية التعبير، وهل بالفعل تم خلق طبقة تاريخية متماسكة أم أن الأمر يتعلق بطبقية الكترونية وحسب؟.

لذلك؛ فان البحث لا يدعي التزامه الصارم بمعايير البحث الاكاديمي لعلاقتها بعنصر الزمن، وتقديم الشهادة الحية المرتبطة بالتنظير المعرفي ، فانحاز البحث إلى عنصر الشهادة المتفاعلة أكثر من تقديم افتراضات بحاجة أن تكتمل ، وذلك لطبيعة التحولات الهائلة في الحقل الإعلامي الجديد من حيث الشكل والمضمون واللغة . والتحول الاجتماعي السياسي المتسارع فلسطينيا، لذلك فان قيمة هذا البحث تكمن في تفجيره لقضايا معقدة تصلح جميعا لتكون نواة لأبحاث جديدة .

المقدمة

يسعى هذا البحث إلى تفكيك العلاقة بين الإعلام الجديد ومفرداته المرتبطة بالمجال العام والمجال الافتراضي وحتى الرأي العام وعلاقة ذلك بالبنية الاجتماعية وبالتحول الاجتماعي وكيف يمكن أن يؤثر ويشكل أحدهما الآخر؟ .

الدائرة الأوسع التي دخل إليها البحث كانت هي المفاهيم وعلاقتها بالأرضية التاريخية التي أفرزت ما يُطلق عليه « الإعلام الجديد » وكيف حدثت المفاجأة بالتقنية التي وفرت للجماهير فرصة التفاعل المباشر والتوحد في الزمن وكيف يمكن لهذا التحول الهائل في التكنولوجيا أن يستجيب لتحولات وتفاصيل تاريخية محلية؟.

الدائرة الأضيق كانت هي محاولة لرصد العلاقة بين هذا التطور الكوني الهائل وكيف ترك آثاره ونسخته على الواقع الفلسطيني بما له من خصوصيات وما يعيشه من تحولات أحيانا هادئة وأخرى سريعة ومفاجئة؟.

في تفاصيل الدائرة الأضيق عمد البحث إلى رصد واقع حرية الرأي والتعبير في فلسطين ومدى التبادل والاستفادة التي من الممكن أن يوفرها المجال الاتصالي الجديد للحركات الاجتماعية الفلسطينية في تنظيم ذاتها والتعبير عن أحلامها في قضايا كبرى أهمها الاحتلال وليس آخرها الانقسام.

للرصد المنهجي لهذه العلاقة تقصد البحث قراءة متأنية لعينة من المجموعات الفلسطينية على صفحة الفيسبوك وكيف عكست مفرداتها ومضامينها وحتى أشكالها الحالة الفلسطينية في مواضيع مهمة وساخنة مثل الانقسام والمطالبة بحرية التعبير والشفافية؟ .

إضافة إلى ذلك عمد البحث إلى استطلاع بسيط عشوائي يكشف الهاجس العام الفلسطيني تجاه علاقة حرية التعبير بشبكات التواصل الاجتماعي. ولتحسس تلك العلاقة عن قُرب أجرى الباحث مقابلات مع نشطاء ومجموعات موجودة في شبكات التواصل وموجودة أيضا على الأرض فيما عُرف بمجموعة « الخامس عشر من آذار» التي كانت التجسد والتمثل الواقعي الأبرز لحركة اجتماعية فلسطينية تعبر عن المجال العام وحاولت نقله إلى المجال الافتراضي وكيف كان التعامل الرسمي مع هذه المجموعات على الأرض؟ .

أخيراً؛ تعامل البحث مع مضامين صفحات مهمة في المجال الافتراضي الفلسطيني وكيف عكست هذه المضامين الهواجس الفلسطينية التي يعبر عنها داخل المجال العام وكيف يمكن تعريف حرية التعبير وحرية الرأي داخل هذا الفضاء الذي يعج بخليط من المعلومات والآراء والأيديولوجيات والأخبار والتعليقات؟.

جاء تحليل هذه المضامين في محاولة للوصول إلى استقراء واستشراف علميين حول إمكانية الاستفادة من التقنية الجديدة في تعزيز المجال العام والهوية الجمعية الفلسطينية.

خلاصة الجهد البحثي سعت إلى تفكيك المناطق غير الواضحة بين التحول الاجتماعي والتواصل الاجتماعي وحرية الرأي وثقافة الديمقراطية وما هي ممكنات مساهمة التكنولوجيا الحديثة في تعزيز الشفافية والتكافؤ في الوصول إلى المعلومة. وقد جاءت النتائج على شكل إشكالية جديدة تقول: أن المشهد ليس بريئاً وأن تفكيك مناطق الظلال لا يعني إضاءتها، وأن التحول في المجال الرمزي لا يعني ضمان التحول في الواقع التاريخي.

المبحث الأول

قراءة في المفاهيم

المفاهيم في العلوم الإنسانية إما أن تكون مجردة أو إجرائية أو النوعين معاً. يعالج المفهوم على المستوى التجريدي في إطاره النظري وحسب التعريفات السابقة له إن وجدت، أما المستوى الإجرائي فإن الباحث هو الذي يُقدَم تعريفاً من تعريفات الدراسات السابقة والذي يكون أقرب إلى موضوع بحثه. ويساعد المفهوم الإجرائي الباحث على التقرب من الواقع بمتغيرات عملية قابلة للبحث والتقصي الميداني، من خلال أبعاد قابلة للتطبيق تسهل عمليتي التحليل والتفسير.

وبما أن الدراسة ستنحى جانباً تطبيقياً مجسداً باستخدام منهج «تحليل المضمون النقدي» فإن المفاهيم المدونة أدناه ستُستنبط من المستوى الإجرائي، بهدف تعميق الفائدة، وتوضيح الصورة الكلية للموضوع المدروس، وصولاً للخروج بمقاربة « دقيقة» أو مقبولة لمخرجات البحث.

سيستعرض الباحث جملة من أهم وأبرز المفاهيم الواردة في الدراسة، لإعطاء القارئ لمحة موجزة عن ماهية ومدلول هذه المفاهيم، تسعفه بشكل أولي للاستدلال على مضامين المتن الكلي للبحث. وبما أن الدراسة تتناول « حقل الإعلام الجديد « فإن البوصلة ستتوجه ، بدايةً، إلى تعريف « **الانترنت**» باعتبار أن هذه الشبكة العنكبوتية هي « البيت المادي» الذي تنطلق منه تقنيات الوسائط الاجتماعية المؤسِسة لقواعد ومكونات هذا الإعلام.

أولاً: الانترنت (The *Internet*)

يشعر المراجع للأدبيات المتعلقة بالانترنت بحيرةٍ كبيرة عند محاولته الخروج بتعريفٍ موحد وشامل لهذه الوسيلة الاتصالية الالكترونية الحديثة، فهناك وفرة من التعريفات التي يقدمها الخبراء والعاملون في مجال الاتصالات والمعلومات يكاد يكون من الصعب حصرها[1].

وتعود أسباب هذه الوفرة إلى اختلاف التخصصات والاهتمامات واستخدامات كل واحد منها لها. ومع ذلك فهناك اتفاق بينها حول مفهوم الانترنت وطبيعته بشكلٍ عام. فهو برأيهم « دائرة معارف عملاقة تمكن المشتركين فيها من الحصول على معلومات حول أي موضوع من الموضوعات، سواء أكان ذلك على شكل نص مكتوب أم مرسوم أم على شكل خرائط، أو كان ذلك أيضاً عن طريق التراسل بواسطة البريد الالكتروني، وصولاً إلى تقنيات الوسائط الاجتماعية كالفيسبوك والمدونات وتوتير ويوتيوب وغيرها[2].

استناداً إلى هذا الفهم لطبيعة الانترنت ومفهومه فإن الدراسة ستعتمد التعريف التالي للانترنت، وهو: « **الشبكة الالكترونية المكونة من مجموعة من الشبكات التي تربط الناس والمعلومات من خلال أجهزة الكمبيوتر**

والأجهزة الرقمية بحيث تسمح بالاتصال بين شخص وآخر، وتسمح باسترجاع هذه المعلومات»[3].

ورغم أن الانترنت يعتبر الشكل الأكثر حداثة وتطوراً من أشكال الاتصال الالكتروني الوسيطي إلا أنه لم يحظ بالعناية التي يستحقها من قبل رواد علم الاجتماع الأوائل؛ إذ لم يتم التعامل معه كنظام (*System*) من أنظمة المجتمع، قائم بحد ذاته، ذو دور فاعل في المجتمع وفي حركة تغييره ؛ وإنما تحدثوا عنه ضمن تحليلهم للدور الذي تقوم به التكنولوجيا بشكلٍ عام في المجتمع، وذلك باعتبار أن الوسائط التي يستخدمها هذا النوع من الاتصال ليست سوى شكلٍ من أشكال التكنولوجيا[4] .

هناك علاقة وثيقة بين الثورة المعلوماتية الكبرى والتي تتمثل في البث الفضائي عن طريق الأقمار الاصطناعية وشبكة الانترنت وبين العولمة . ذلك أن هذه الثورة المعلوماتية عمقت من التجليات السياسية والاقتصادية والثقافية والاتصالية للعولمة، لأن العالم أصبح متصلاً Connected ببعضه على مستوى الدول والحكومات والشعوب والأفراد. ونشأ ما يُطلق عليه «نموذج المجتمع الشبكي» Network Society حيث تفيض فيه التدفقات المتنوعة وتتفاعل الأفكار والآراء، وتتبلور سياسات الحكومات،وتنمو في الوقت نفسه حركات الاحتجاج الالكترونية. وقد برزت في إطار هذا المجتمع الشبكي مواقع التدوين والفيسبوك وتويتر ويوتيوب والمنديات وغيرها من الوسائط الحديثة. وقد تبلور مؤخراً علم اجتماعي جديد هو « **علم اجتماع الفضاء المعلوماتي**» Cyber Sociology وهو العلم الناشئ الذي تخصص في الدراسة السيوسولوجية للانترنت من كل النواحي، ولذلك هو يدرس فئات المستخدمين للشبكة، وأنماط شخصياتهم، والمواقع التي يزورونها، وموضوعات اهتماماتهم، إلى غير ذلك من موضوعات.

كما أن هناك علماً اجتماعياً جديداً هو « سوسيولوجيا الانترنت» يدرس الشبكة العنكبوتية من وجهة النظر الاجتماعية، وذلك بالتركيز على خصائص الشبكة، ونوعية الذين يستخدمونها ، والموضوعات التي يطرقونها. فهناك مجتمعاً كاملاً هو « المجتمع الافتراضي» الذي يتشكل من « جماعات النقاش»، التي تتكون أحياناً بصورةٍ مؤقتة لمناقشة موضوع ما ثم تنفض. ويشارك في المناقشة أشخاص من مختلف بلاد العالم، على أساس أن من أخلاقيات الانترنت البازغة أنه لا يكفي أن تكون مستهلكاً للمواد المنشورة على الشبكة أياً كان موضوعها، ولكن عليك أن تكون أيضاً منتجاً، وذلك بدعوتك إلى إن تعلق على ما تقرأه. كذلك؛ وقد تشكل علم إنثروبولوجي جديد هو « انثروبولوجيا الانترنت» يحاول تطبيق المناهج الانثروبولوجية على هذه الشبكة . وأصبح هناك علماء اجتماعيون متخصصون في دراسة الانترنت[5].

هذه التطورات في عالم الشبكة العنكبوتية ساهمت في إحداث ثورة في مجال الديمقراطية التشاركية لأنها(أي الانترنت) خلقت فضاءات عامة جديدة سمحت للأصوات المتعددة أن تعبر عن نفسها. ومعنى ذلك أن هذه الفضاءات العامة الجديدة أصبحت مجالات حيوية لنشر الأفكار النقدية والتقدمية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون مجالاً للتحكم من قبل الدولة، وإن كان ذلك صعباً أو مستحيلاً من الناحية الفنية . ولا بد الاشارة إلى أن الانترنت كفضاء معلوماتي يمكن أن يكون مجالاً لنشر الأفكار التقدمية أو على العكس لنشر الأفكار

المحافظة بل والرجعية.

هذا التطور يؤدي إلى بزوغ نوع جديد من أنواع الديمقراطية هي « ديمقراطية الفضاء المعلوماتي» Space Cyber حيث سيتم تعليم الناس كيف يستخدمون شبكة الانترنت، وكيف يحصلون على المعلومات ، وكيف يكونون آراءهم المستقلة، بدلاً من أن يكونوا ضحايا هيمنة الميديا بكل أنواعها كالجرائد والإذاعة والتلفزيون التي تسيطر عليها الحكومات. وهذه الديمقراطية الجديدة ستقوم على أساس تعدد الأصوات الفكرية وعدم هيمنة التفكير الأحادي على عقول الناس.

وإذا كانت شبكة الانترنت بفضائها المعلوماتي الواسع الآفاق تقدم فرصاً جديدة للمثقفين التقدميين لكي يمارسوا النقد الاجتماعي المسؤول، ويقدموا رؤاهم لمستقبل مجتمعاتهم، إلا أنه لا بد لهم ـ لكي يقوموا بشكلٍ فعال بهذه الوظيفة ـ إتقان كيفية التعامل الفعال مع هذه التكنولوجيات الجديدة.

وفي ضوء ذلك؛ علينا أن نؤكد أن شبكة الانترنت ليست مقصورة على المثقفين التقدميين فقط، لأنها مفتوحة لأصوات اليمين والوسط واليسار. ويمكن أن يستخدمها من يريدون تطوير مجتمعاتهم إلى الأفضل حتى تتعامل بكفاءة مع تحديات العولمة والمستقبل، وكذلك الرجعيون بل والإرهابيون الذين يستخدمونها لنشر فكرهم الإرهابي . والدليل على ذلك أن هناك مواقع لجماعات إرهابية على الشبكة تنشر برامج موضوعها « كيف تصنع قنبلة ؟ « أو كيف تستخدم السلاح؟ ، إلى جانب العدد الهائل من المواقع الإباحية أو المحرضة على التطرف والعنف داخل المجتمع الواحد .

إجمالاً للقول: إذا كانت الصراعات السياسية تتم تقليدياً في المجالس النيابية وفي المصانع والشوارع ، إلا أنها في المستقبل ـ وفي ضوء انجازات الثورة الاتصالية ـ ستمارس على شبكة الانترنت ذاتها ، كما نرى في حالة المدونات ومواقع التشبيك الاجتماعي « الفيسبوك»، المعارضة لاتجاهات النظم السياسية المختلفة،بما فيها العربية. فهذه الشبكات الالكترونية تُحرر في سياقات عربية شمولية وسلطوية وشبه ليبرالية، تضع قيودا متعددة على حرية التفكير وحرية التعبير. ومن هنا يلجأ المدنون و» الفيسبوكيون» إلى الفضاء المعلوماتي الافتراضي حيث لا قيود لكي يعبروا عن ذواتهم في مدوناتهم ومواقعهم الشخصية، أو عن معارضتهم لحكوماتهم، وتكثيف التأييد والاهتمام لمطالبهم وقضاياهم. إذن؛ الفكرة الجوهرية على شبكة الانترنت أنه يمكن أن نجد أفكارا ورؤى الغرض منها خدمة الجماهير وليس خدمة المصالح الضيقة للنخب السياسية الحاكمة، سواء كانوا من أهل السلطة أو من رجال الأعمال، وفي الوقت نفسه فانه لا ضمانة لذلك ، فالمشهد ليس بريئاً ، بل هو معقد أكثر مما يتوقع.

إلى ذلك؛ فإن التطور الهائل في وسائط الانترنت لم يكن ليحصل لولا التقنيات المبتكرة والمتسارعة في شبكة الانترنت والتي تُعرف بـ « أجيال الانترنت»[6] . فالجيل الأول من تطبيقات الانترنت كان يركز على بناء مواقع تعمل على تزويد المستخدم بالمعلومات والبيانات دون أن يكون له أية قدرة على التفاعل مع تلك المواقع أو التأثير في محتواها، أي أن دور المستخدم كان سلبياً تماماً باعتباره متلقي لتلك المعلومات أو الخدمات التي يعرضها الموقع.

أما الجيل الثاني؛ فبعد تطبيقات الجيل الأول من الانترنت بدأت تظهر تباعاً تطبيقات على صفحات الويب

تتيح للمستخدم المشاركة والتفاعل مع الموقع مثل مواقع الدردشة والمنتديات وغيرها. وانتهاءً بالتطبيقات الأكثر حداثة وثورية مثل موسوعة الويكيبيديا، وشبكات التدوين، ويوتيوب، وفيسبوك، وتوتير وغيرها.

هذه القفزة في تغيير طريقة التعامل مع صفحات الانترنت هي البداية الحقيقة لما يعرف بتطبيقات الجيل الثاني أو تطبيقات الويب 2 والتي تنطلق من تمكين المستخدمين ليس فقط من التفاعل مع المواد المطروحة على الموقع وإنما تطويرها أو تعديلها أو عرضها وإتاحة المجال لكافة المستخدمين من المشاركة في صياغتها. فالانترنت كمفهوم لا يتعلق بالحواسيب بقدر ما يتعلق بجمهورٍ من الناس يتحدثون ويتبادلون الآراء والمواقف والمعلومات من خلال هذه الحواسيب[7].

ومما ساعد على نشر ثقافة تقنيات وخدمات الجيل الثاني للانترنت هو إمكانية استخدامها عن طريق «الموبايل» خاصة في حالة دعم مزود الخدمة لتقنيات الجيل الثالث منه، حيث تتيح شركات الموبايل للمشتركين إمكانية التواصل مع تلك المواقع عن طريقه مما عزز من انتشارها وقوة تأثيرها[8].

خلاصة القول: يمكن التأكيد على أن الانترنت يقف على قمة الهرم بالنسبة لوسائل الاتصال الأخرى، إذ أن البعد الاتصالي للانترنت يتوفر على خصائص متقدمة واستثنائية في اختلافها وتميزها عن بقية وسائل الاتصال لعل من أبرزها: تخطي الحواجز الزمنية والمكانية، وفتح «الباب المعلوماتي والاتصالي» أمام الجميع، وهذه الخصائص ساهمت في ترسيخ مقولة :» أن العالم تحول إلى قرية الكترونية صغيرة» بعد أن كان (قرية عالمية) حسب ماكلوهان يستطيع قاطنها أن يقوم بأعمالٍ كثيرة، وهو ثابت مستقر في مكتبه، عبر استخدامات الانترنت المتعددة، تلك الخاصية الفريدة التي أعطت الانترنت بعداً إنسانياً تشاركياً عبر ما أصبح يُعرف «بالمجتمعات الافتراضية».

ثانياً: الحيز العام Public Sphere [9]

إن فهم الظواهر المستحدثة في عالم التكنولوجيا، ومنها نشوء « فضاء افتراضي» على شبكة الانترنت لا يمكن إلا في إطار تركيز الضوء على النقلة الكيفية في النموذج الحضاري من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات العالمي. ولا يمكن للمجتمع الصناعي- الذي هو نتاج الثورة الصناعية- أن يُؤسس وتخطط مؤسساته وترسخ قيمه، إلا في ضوء المشروع الحضاري للرأسمالية الأوروبية التي صعدت على أنقاض المجتمع الإقطاعي الأوروبي القديم . هذا المشروع الحضاري اصطلح على تسميته بالحداثة Modernity . والحداثة مشروع يقوم على عدة أسس هي الفردية والعقلانية والوضعية والاعتماد على العلم والتكنولوجيا وتبني نظرة خطية في التاريخ الإنساني مبناها أنه يتطور من مرحلة إلى أخرى.

والحداثة كمشروع له تجليات مختلفة. أولها الحداثة الفكرية التي أعلت من شأن العقل، وكان شعارها أن « العقل هو محك الحكم على الأشياء». بعبارةٍ أخرى أهدرت الحداثة الفكرية سلطان وسطوة النص الديني الذي كانت تحتكر تفسيره وتأويله صفوة رجال الدين، الذين كانوا ينطلقون من رؤى للعالم تتسم بالانغلاق وبالرجعية،

مما أدى إلى جمود المجتمعات الأوروبية وسيادة الاستبداد السياسي، لأن رجال الدين المحافظين والرجعيين، وضعوا أنفسهم في خدمة الحكام المستبدين الذين مارسوا القهر لشعوبهم.

وإلى جانب هذا الوجه الحضاري، هناك وجه آخر للحداثة وهو الحداثة السياسية التي توجهت لتأسيس مجتمعات ديمقراطية تقوم على أساس تداول السلطة والانتخابات الدورية النزيهة، وحرية التفكير وحرية التعبير وحرية التنظيم. وفي قلب الحداثة السياسية ولدت فكرة المجال العام Public Sphere . وهناك شبه إجماع بين العلماء الاجتماعيين على أن المفكر الذي وضع أسس نظرية المجال العام هو الفيلسوف الألماني « يورغين هابرماس» في كتابه المعروف « التحول البنيوي للمجال العام» الذي صدر عام 1962، وكان في الواقع أطروحته للحصول على درجة الأستاذية في علم الاجتماع. وما زال هذا الكتاب هو المرجع الأساسي في الموضوع حتى الآن بالرغم من أن « هابرماس» طور أفكاره فيما بعد وخصوصاً في نظريته الاتصالية. ولعل السؤال الذي ينبغي طرحه، هنا ما هو « **المجال العام**». هناك تعريفات عديدة له . فهابرماس عرفه بأنه» ظاهرة اجتماعية أولية شأنها شأن الفعل، والفاعل، والجمعية، والجماعة» وبأنها ظاهرة تستعصي على المفاهيم التقليدية للنظام الاجتماعي التقليدي». ويصف هابرماس المجال العام بشبكة للتواصل وتبادل المعلومات ووجهات النظر، والآراء التي تعبر عن مواقف سلبية أو ايجابية ، وضمن هذه الصيرورة، يجري تنظيم هذا الدفق من التواصل وتركيبه بحيث ينضوي في رزم من الآراء العامة المتعلقة بموضوعات محددة . وتجري إعادة إنتاج المجال العام من خلال فعل تواصلي يكفي للقيام به مجرد إتقان لغة طبيعية[10]

أما بالنسبة إلى موسوعة ويكبيديا فهي تعرف « الحيز العام» على أنه « منطقة في الحياة الاجتماعية حيث يتجمع الناس معا ويناقشون بحرية المشكلات المجتمعية بعد أن يحددوها، ومن خلال مناقشاتهم يؤثرون على الفعل السياسي. وهو فضاء خطابي (من مفهوم الخطاب) يجتمع فيه الأفراد والجماعات ليناقشوا الأمور ذات الأهمية بالنسبة لهم، وللوصول - إذا كان ذلك ممكناً - إلى حكم عام . ويرى بعض الباحثين أن المجال العام أشبه ما يكون بمسرح يُنصب في المجتمعات الحديثة، يتم فيه تفعيل المشاركة السياسية من خلال الكلام. وهو في قول آخر « مجال من مجالات الحياة الاجتماعية يتشكل فيه الرأي العام». الفضاء العام» مواقع الاتصال داخل المجتمع حيث يتمكن أفراد من جمهور محدد نقاش أمور ذات اهتمام مشترك أمام حضور متخيل» [11] .

أما الحيز العام الافتراضي فهو مصطلح يُطلق على عملية المزج بين التكنولوجيا والتفاعل الاجتماعي لخلق محتوى أو قيمة من قبل المستخدمين». هذا الحيز تُدار فيه مجمل أشكال التواصل التفاعلية التي يمكن لأي فرد على شبكة الانترنت أن يشارك فيها، وأن يكون مرسلاً ومستقبلاً في آنٍ واحد. ويُقصد به من الجانب الإعلامي « الكلمات الالكترونية والأصوات والصور التي تتم مشاركتها وتوظيفها من خلال الشبكة العنكبوتية، كما ويمكن للمحتوى أن يكون ثقافيا أو اجتماعيا أو حتى تمويليا[12] . وهناك تعريف آخر يتمثل في أنه :» الفضاء الذي يتخلق عندما يدخل المرء إلى الانترنت أو الحاسب، ويتحلل من واقعه المادي ويذوب في الواقع الجديد الذي تتيحه الشبكة أو الحاسب ، ويصبح جزءا منه فيكون اللاعب الذي بداخل لعبة الحاسب مثلاً «[13].

وتحت تأثير الثورة الاتصالية الكبرى وفي قلبها شبكة الانترنت بزغ هذا الفضاء الاجتماعي الافتراضي الجديد ليمارس فيه الكتاب والجمهور حريتهم في معارضة النظم السياسية التي ينتمون إليها . هذا الفضاء هو ما تعبر عنه الوسائط أو الشبكات الاجتماعية على الانترنت، وأهمها: المدونات، الفيسبوك، يوتيوب، توتير، باعتبارها إحدى صور الممارسات الفكرية المستحدثة ، والتي خلقت فضاءاً افتراضيا يتسم بالحرية المطلقة ويخلو من القيود والحدود التي تضعها النظم السياسية والحكومات. ومن خصائصها أنها افتراضية، ولا تحدث بين ذوات اجتماعية معرفة وموثوقة المصدر والوجود، ولا تخضع بالضرورة إلى أدوات السلطة التقليدية، ومنفلتة من رقابة المجتمع، ومن الروابط العضوية للعشيرة والطائفة.

وبهذا؛ فإن المجال أو الحيز العام يتميز نتيجة لتأثير الثورة الاتصالية بأنه أصبح مجالاً للمعلومات والمنافسة والمعارضة والصراع السياسي . هذه الوظائف المتعددة التي خلقتها التقنيات الجديدة والوسائط الحديثة في الحاسوب والانترنت من شأنها أن تعيد صياغة هذا المجال سيما بعد أن اتسعت آفاقه إلى غير ما حد.

ثالثاً: التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال (NTIC)

إن ربط مفهوم تكنولوجيات الإعلام والاتصال بمصطلح « الجديدة»، تبعاً لطبيعة هذا العمل، جعل العالم أمام موضوع اتصالي معلوماتي أكثر أهمية وحداثة. هذا المفهوم أخذ يفرض نفسه بقوة في مستهل القرن الواحد والعشرين، الذي يزخر بمتغيرات تمثل ثورة معلوماتية وإعلامية جديدة في عصر جديد مُعولم الأبعاد وقوامه أدوات وتقنيات اتصاليه جديدة يتميز بها.

ولذلك فليس من الغريب أن تجد من المتخصصين في علوم الإعلام من يفرق بين « تكنولوجيات الإعلام والاتصال»، التي تشمل الوسائل ما قبل الالكترونية: صحف، مجلات،...، وبين «التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال» التي تخص الوسائل الالكترونية (راديو، تلفزيون، انترنت...) ، مع الإشارة هنا، إلى أن «التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال» بمعناها المعاصر يفترض في مكوناتها الدعامة الالكترونية . كما أن معناها الواسع يشير إلى مجموع الأدوات المتعلقة بعمليات، التخزين، المعالجة، تبادل المعلومات الرقمية مهما كان شكلها: من وسائل الإعلام الرقمية والهاتف الثابت والمحول إلى الانترنت مروراً بالبطاقات الالكترونية وأنظمة المحاضرات السمعية البصرية عن بعد[14].

وفق هذه الصورة فإن «التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال» تجمع بين ثلاثة مجالات تقنية: الاتصالات عن بعد ـ السمعي البصري ـ الإعلام الآلي، بحيث تنتج عن تقاطعها: المعلوماتية عن بعد وعن إدماجها: وسائل الاتصال المتعددة؛ ويستدعي استعمالها مكونات الكترونية وطاقة كهربائية.

ونظراً لسرعة تطور المخترعات في هذا المجال على مستويي التقنيات والمحتويات وتداخل وسائلها، فإنه يصعب حصر مسمياتها وإفرادها بصفة نهائية إلا أن هناك من عدها وحصرها « مؤقتاً « في(أقمار الاتصال الصناعية، الحاسبات الشخصية، أجهزة التلفزيون، الفيديو تكس ، التليتكست، الكابلات المحورية، الألياف الضوئية أو

البصرية، أقراص الفيديو بأنواعها، البريد الالكتروني، شبكات الانترنت، عقد المؤتمرات عن بعد [15]) .

إلى ذلك؛ فإنه يُعبر عن «التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال» بمصطلحات أخرى[16]، مثل:

- التكنولوجيات الجديدة للإعلام» (NTI) عند من يجعل الإعلام يتضمن الاتصال.
- التكنولوجيات الجديدة للاتصال»(NTC) عند من يرى بخلاف ذلك أن الاتصال يتضمن الإعلام.
- تكنولوجيات الإعلام والاتصال» (TICs) عند من يرى أن هذه التكنولوجيات ليست جديدة.

ويذكر البعض أن لفظة « الجديدة» أصبحت تغلب على تكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة لأنها أيسر لفظاً وأفضل» رنة» وأسهل للإعلان النفسي والتسويقي، إلى جانب تميزها بخاصتين، عادة ما تحدد هذه المفاهيم الجديدة: كثرة تداولها في النقاشات المعاصرة وضبابية تعريفها المعنوي، بالإضافة إلى كونها تطرح عدة تساؤلات تصعب الإجابة عليها بدقة: فيمَ تكمن الجدة، مصادر طاقتها، موادها، تركيباتها، وظائفها؟ منذ متى؟ والى متى؟[17].

وفي الإطار ذاته هناك مفاهيم أخرى تكميلية[18]، مثل تكنولوجيات الإعلام والاتصال والمعرفة « (TICC) التي تضيف مفهوم قواعد المعرفة وتسيير المعارف، و» تكنولوجيات الإعلام والاتصال في التعليم» (TUCE) . إضافة إلى ذلك، هناك مفاهيم إعلامية أخص، مثل مفهوم «الإعلام الجديد « (New Media) ، وقريباً منه نجد مفهومي « الإعلام الشبكي الحي» (Online Media) و « الإعلام السيبروني « (Media Cyber).

رابعاً: الإعلام الجديد[19] New Media

يستأثر الإعلام الجديد بالكثير من الاهتمام من قبل المشتغلين بالإعلام بصفة عامة وأساتذة الإعلام بشكلٍ خاص كمدخل لتساؤلات عديدة، هي : هل نعيش حالياً مرحلة الإعلام الجديد؟ أم أن غيرنا مر بهذه المرحلة مرات عديدة تطبيقاً لانتقالات مارشال ماكلوهان في فكرة «الحتمية التكنولوجية» [20]، أم أن الإعلام الجديد هو انعكاس لحالة الانقلاب في نظم الاتصال كلها بعد التقاء الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصال؟.

ويرى البعض أن فكرة البحث عن إعلام جديد ليست وليدة التغيير الذي نشهده حالياً في كافة مناحي الحياة، فعند انهيار المعسكر الاشتراكي تحدث الناس كثيراً عن النظام العالمي والإعلامي الجديد، وقد شهدت فترة الحرب الباردة الكثير من الشد والجذب حول المبادئ الإعلامية التي ينبغي أن تسود في العالم ومنها فكرة بناء نظام إعلامي جديد، لكن التقنية تجاوزت هذه الأسئلة دون عودة.

وكما يرتبط النظر في موضوع الإعلام الجديد بالانتقال التكنولوجي، مثلما حدث بعد ظهور المطبعة، التلغراف، الفونغراف، الراديو والتلفاز ثم الانترنت التي قسمها المختصون إلى وسائل وتكنولوجيا تقليدية وأخرى مستحدثة جديدة، فإنه أيضاً يرتبط بالنظام الإعلامي نفسه، وقد قسمه البعض أيضاً إلى نظام جديد ونظام قائم رفضته دول الجنوب التي علت أصواتها لإثبات الاستقلال السياسي بعد التخلص من سيطرة الاستعمار على ارض الواقع

بعد مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي. وقد كان القرن العشرين في حالة تباين واسع في النظام الاتصالي بين دول لديها أنظمة اتصال قوية عابرة للحدود ودول بالكاد تستطيع تدبير أمور اتصالاتها محلياً، في وقتٍ فيه البعض يؤمن بحرية الاتصال وحق الإنسان به، وفريق آخر يرفضه[21].

استناداً إلى هذا الطرح سنعرض، هنا، مجموعة من التعريفات الإجرائية لمفهوم الإعلام الجديد، مع نقاشها لتوضيح مفهومه وغاياته. وقبل البدء في ذلك؛ يجب الإقرار بأن الإعلام الجديد الذي تولد من التزاوج بين تكنولوجيات الاتصال والبث الجديدة والتقليدية مع الكمبيوتر وشبكاته، تعددت أسماؤه، ولم تتبلور خصائصه النهائية بعد. وتدل الأسماء المتعددة للتطبيقات الإعلامية المستحدثة، على أرضية جديدة لهذا النوع من الإعلام، نجملها في الآتي[22]:

1- «**الإعلام الرقمي**» (Digital Media) جاء هذا الوصف من بعض تطبيقاته التي تقوم على التكنولوجيا الرقمية، مثل التلفزيون الرقمي والراديو الرقمي وغيرهما، أو للإشارة إلى أي نظام أو وسيلة إعلامية تندمج مع الكمبيوتر.

2- «**الإعلام التفاعلي**» (Interactive Media) جاءت هذه التسمية لتوافر حالة العطاء والاستجابة بين المستخدمين لشبكة الانترنت والتلفزيون والراديو التفاعليين وصحافة الانترنت وغيرها من النظم الإعلامية التفاعلية الجديدة.

3- «**الإعلام الشبكي الحي**» على خطوط الاتصال (Online Media) جاءت هذه التسمية من خلال التركيز على تطبيقاته في الانترنت وغيرها من الشبكات.

4- «**الوسائط السيبرونية**» (Media Cyber) : جاءت تسمية الإعلام الجديد بهذا الوصف من تعبير الفضاء السيبروني (Space Cyber) الذي أطلقه كاتب روايات الخيال العلمي ويليام غبسون في روايته التي أصدرها عام 1984م باسم Neuromancer ، والتعبير مأخوذ من علم «**السيبرنطيقا**» Cybernetics المعروف عربيا بعلم « **التحكم الآلي**» ، ويعني تعبير «**السايبر ميديا** « العالم المصنوع من المعلومات الصرفة التي تأخذ ، ليس فيزيائيا . شكل المادة، ويصف التعبير وسائل التحكم الالكتروني التي حلت محل الأداء البشري، ولكنه يستخدم هنا لوصف فضاء المعلومات في شبكة الانترنت.

5- « **إعلام المعلومات**» (Info Media) للدلالة على التزاوج داخله بين الكمبيوتر والاتصال، وعلى ظهور نظام إعلامي جديد يستفيد من تطور تكنولوجيا المعلوماتية ويندمج فيها.

6- «**إعلام الوسائط التشعبية**» Hypermedia وصف بهذا الاسم لطبيعته المتشابكة وإمكانية خلقه لشبكة من المعلومات المتصلة مع بعضها بوصلات تشعبية أو وصلات قاطرة . نحن هنا معنيون بميزات خاصة بشبكة الانترنت التي أعطت ميزة التشعبية والوصلات Links لما ينشر أو يبث داخلها .

7- «**إعلام الوسائط المتعددة**» Multimedia لحالة الاندماج التي تحدث داخل الإعلام الجديد، أي بين النص والصورة والفيديو.

استناداً إلى ما سبق؛ نلاحظ ارتباط بعض هذه الأسماء بتطبيقات الكمبيوتر، فبعضها خرج من طبيعة الوسيط الاتصالي وأخرى من خبرات ثقافية يصعب إيجاد تعبير مقابل لها خارج البيئة التي ولدت فيها، كما أن بعض الأسماء يشير إلى تطبيق جزئي من تطبيقات الإعلام الجديد أو إحدى ميزاته، كما هو الحال بالنسبة للتسميات التي تنطلق من ميزات شبكة الانترنت، وبعضها يلم بأطرافٍ أخرى من الوسائل، مما يوسع من قاعدة التعريف ومن قاعدة الوسائل والتطبيقات والخصائص والتأثير للإعلام الجديد بشكلٍ عام.

هذا من حيث الأسماء التي تُطلق على « الإعلام الجديد». أما بخصوص التعريف، فنجد في كتاب « الإعلام الجديد» لعباس صادق جملة من التعريفات، نذكر ثلاثة منها[23]. (فقاموس التكنولوجيا الرفيعة) يعرفه بأنه « اندماج الكمبيوتر وشبكات الكمبيوتر والوسائط المتعددة «. أما (قاموس الكمبيوتر) Computing Dictionary ، فيعرفه عبر مدخلين، هما:

1- «جملة من تطبيقات الاتصال الرقمي وتطبيقات النشر الالكتروني على الأقراص بأنواعها المختلفة والتلفزيون الرقمي والانترنت. وهو يدل كذلك على استخدام الحواسيب الشخصية والنقالة، فضلا عن التطبيقات اللاسلكية للاتصالات والأجهزة المحمولة في هذا السياق .

2- الطرق الجديدة في الاتصال في البيئة الرقمية بما يسمح للمجموعات الأصغر من الناس بإمكانية الالتقاء والتجمع على الانترنت وتبادل المنافع والمعلومات، وهي بيئة تسمح للأفراد والمجموعات بإسماع أصواتهم وأصوات مجتمعاتهم إلى العالم اجمع».

أما كلية (شريدان التكنولوجية) Sheridan، فتقدم تعريفاً عملياً للإعلام الجديد بأنه:» كل أنواع الإعلام الرقمي الذي يُقدم في شكل رقمي وتفاعلي».

وفق هذه التعريفات، هناك من يقوم بتقسيم الإعلام الجديد إلى الأقسام الأربعة الآتية:

- الإعلام الجديد القائم على شبكة الانترنت Online وتطبيقاتها، وهو جديد كلياً بصفات، وميزات غير مسبوقة، وهو ينمو بسرعة وتتوالد عنه مجموعة من تطبيقات لا حصر لها.
- الإعلام الجديد القائم على الأجهزة المحمولة ، بما في ذلك أجهزة قراءة الكتب والصحف . وهو أيضاً ينمو بسرعة، وتنشأ منه أنواع جديدة من التطبيقات على الأدوات المحمولة المختلفة، ومنها أجهزة الهاتف والمساعدات الرقمية الشخصية وغيرها.
- نوع قائم على منصة الوسائل التقليدية مثل الراديو والتلفاز التي أُضيفت إليها ميزات جديدة مثل التفاعلية والرقمية والاستجابة للطلب.
- الإعلام الجديد القائم على منصة الكمبيوتر ، ويتم تداول هذا النوع بوسائل، إما شبكياً ، أو بوسائل الحفظ المختلفة، مثل الاسطوانات الضوئية، وما يشبهها، ويشمل العروض البصرية والعاب الفيديو والكتب الالكترونية وغيرها[24].

وفق جملة هذه التعريفات الأولية يمكن أن نخلص إلى شبه اتفاق بأن فكرة الجدة يمكن استقراؤها من أن

الإعلام الجديد يشير إلى حالة من التنوع في الأشكال والتكنولوجيا والخصائص التي حملتها الوسائل المستحدثة عن التقليدية خاصة فيما يتعلق بإعلاء حالات الفردية والتخصيص وهما تأتيان نتيجة لميزة رئيسة هي التفاعلية . فإذا ما كان الإعلام الجماهيري قد وسم إعلام القرن العشرين، فان الإعلام الشخصي أو إعلام المواطن هو إعلام القرن الحادي والعشرين.

خامساً: الوسائط أو الشبكات الاجتماعية (The Social Network)

تعتبر الشبكات أو الوسائط الاجتماعية الصورة الأبرز لتقنيات الإعلام الجديد، وهي مصطلح واسع يُقصد به تبادل المضامين عبر شبكة الانترنت من أجل الحوار وخلق التفاعل بين الناس.

وتتمثل أهم الشبكات الاجتماعية في المدونات والمنتديات بجانب مواقع عديدة مثل الويكي Wiki، والفيسبوك Facebook ، وتويتر Twitter والتطبيقات التي قدمتها الشركات الكبرى لدعم الفكر الاجتماعي في التفكير والمشاركة مع مستخدمي مواقعها مثل جوجل، وياهو التي اهتمت بالتحرير الجمعي والكتابة وتنفيذ العروض المشتركة ، وكذلك مواقع أجاكس Ajax في مجالات التطبيقات المكتبية التي تتم بشكل تعاوني. وأيضاً مواقع التفاعل الاجتماعي مثل ماي سبيس Myspace ومواقع خدمات وتخزين الصور وإعادة عرضها وإرسالها للغير مثل Flickr ونشر مقاطع الفيديو مثل يوتيوب YouTube ، وغيرها من الخدمات والتقنيات التي تجد اهتماما فرديا مع تبادل المشاركة والنشر بين المستخدمين[25].

هذه الشبكات أو الوسائط الاجتماعية تميزت ـ كلها أو معظمها ـ بمعالم جديدة في البناء والاستخدام، مثل[26]:

ـ الاشتراك المجاني في الاستفادة من الخدمة.

ـ سهولة المشاركة في هذه المواقع والاستفادة منها.

ـ سهولة تشكيل الجماعات الافتراضية وتحقيق المشاركة وتبادل الخدمة أو الرأي أو الفكر بين الأعضاء.

ـ سهولة بناء الروابط للموضوعات ذات الاهتمام المشترك بمواقع أخرى.

ـ استخدام وسائل النشر الفوري على الجماعات أو التشكيلات الاجتماعية من خلال خدمة R.S.S وAtom

.

إلى ذلك؛ فإن اختراع هذه الشبكات والانتصار لهذا الانجاز التقني الكبير ساهم في انعكاس قواعد حرية النشر والتعبير، وتدعيم الفكر الديمقراطي وحقوق الإنسان وغيرها من الأفكار والمفاهيم السياسية والاجتماعية التي انتشرت وتكونت حولها التشكيلات والجماعات التي استفادت من سهولة النشر ويسر المشاركة في المواقع الخاصة بذلك أو بناء مواقع جديدة دون صعوبات تقنية أو مادية في دعم هذه الأفكار والدعوة لها في إطار جمعي.

وفي السياق ذاته يرى البعض أن الشبكات الاجتماعية تربط العالم بعضه ببعض، وإن انتشارها سوف يؤدي في النهاية إلى بزوغ « عقل كوكبي» يعمل على تغيير العالم . وفي مقابل ذلك نجد من يخالف هذا الرأي في أن شدة الإقبال على الشبكات الاجتماعية فيه مضيعة وإهدار للوقت والانصراف عن العمل الجاد، وكثيراً ما يؤدي إلى «

إدمان» الكمبيوتر، خاصة أن الوقت يمر بسرعةٍ فائقة أثناء الاتصال وتبادل الأخبار التي كثيراً ما تكون سطحية وغير نافعة[27].

وبهذا؛ فإن استخدام الشبكات الاجتماعية بدا ينحو نحو الجدية وارتفاع مستوى الأفكار وإن كانت هناك بطبيعة الحال تجاوزات عديدة وخروج عن القيم وتحرر من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية ولكنها جزء من الحياة الواقعية وإن كان البعض لا يؤمن أو يسلم بها. بكلمات أخرى. البعض يرى في هذه الشبكات وطنه وإمبراطوريته - وإن كانت افتراضية - التي لن يحدها شيء، وأداته للتواصل والتعارف بل واكتشاف المعرفة وتوسيع العلاقات وتطوير المعلومات، واهم من ذلك كله خلق كيانيته واسترداد حريته التي همشت أو ضاعت بفعل نظام سياسي أو جهاز أمني.

وقبل التطرق إلى أهم الوسائط أو الشبكات الاجتماعية الافتراضية نود توضيح ما المقصود بـ « **الاتصال ذات التفاعل التبادلي**» الذي منح هذه الوسائط الميزة الاستثنائية والفريدة عما سواها من وسائل إعلامية تقليدية.

التفاعل التبادلي هو عبارة عن عمليات الاتصالات التي تتخذ خصائص الاتصالات بين الأشخاص، ففي الاتصالات الشخصية يشترك المرسل والمستقبل في أداء دور رجل الإعلام بالتناوب، ويستقبل كل شريك التغذية المرتدة أو الراجعة فورا وبصورة كاملة في شكل رسائل شفهية وغير شفهية . والواقع أن وسائل الاتصال الجماهيرية التقليدية ليست ذات تفاعل تبادلي، لان تدفق الاتصالات ذات الاتجاه الواحد لا يسمح لأعضاء جمهور المشاهدين بالتقديم، أو لرجال الإعلام الجماهيري باستقبال التغذية الراجعة كاملة وفوراً. كما ويعني التفاعل التبادلي أيضاً سيطرة متبادلة على تدفق محتويات وسائل الاتصالات. ففي الاتصالات بين الأشخاص مثلاً، يستطيع الشركاء أن يؤثروا على طبيعة المحادثة بتغيير الموضوع ، أو إظهار عدم الموافقة على ما يقوله الشريك [28].

فيما يلي سنتطرق إلى أهم الوسائط أو الشبكات الاجتماعية الالكترونية، ونبدأ بالفيسبوك.

الفيسبوك: Facebook

يعتبر موقع الفيسبوك أحد أكثر مواقع التشبيك الاجتماعية شعبية على الانترنت في العالم، وهو شبيه بموقع « ماي سبيس» الذي سبقه. أنشئ الموقع عام 2004 من قبل طالب في جامعة هارفارد اسمه «مارك زوكربيرج» وزملاء السكن في غرفته بالكلية من طلاب الكمبيوتر . في البداية اقتصر الموقع على الأفراد الذين لديهم حسابات بريد الكتروني في الجامعة ، ثم جرى فتحه للجمهور من عمر 13 سنة فأكثر، لكن، مع نهاية عام 2009، صرح الموقع عن وجود أكثر من 300 مليون مستخدم في العالم، وفي نهاية عام 2010 كان هنالك أكثر من 600 مليون مستخدم لهذا الموقع، علماً أن عدد المستخدمين في عام 2010 لوحده زاد حوالي 250 مليون مستخدم . ويقضي المستخدمون للفيسبوك ما مقداره 150 مليار ساعة شهريا، خاصة من قبل شريحة الشباب التي تمثل الفئة الأكثر استخداماً له[29].

وبسبب سهولة التواصل ونشر المعلومات، فقد جرى منع الموقع في بعض الأحيان من قبل العديد من الحكومات، سيما في الصين، إيران، سوريا، ليبيا. كما تم حظر استخدام الموقع في العديد من جهات العمل لثني الموظفين عن

إهدار أوقاتهم في استخدام تلك الخدمة . كذلك؛ مثلت الخصوصية واحدة من المشكلات التي يواجهها رواد الموقع، وكثيرًا ما تمت تسوية هذا الأمر بين طرفي النزاع. كما يواجه موقع الفيسبوك العديد من الدعاوى القضائية من عدد من رفاق زوكربيرج السابقين الذين يزعمون أن الفيسبوك اعتمد على سرقة الكود الرئيسي الخاص بهم وبعض الملكيات الفكرية الأخرى[30] .

وفي الوقت الذي يُعتبر فيه الفيسبوك أوسع الشبكات الاجتماعية انتشاراً وشعبية؛ إذ تقدر فترة استخدامه بأكثر من 700 مليار دقيقة في الشهر الواحد فإن هناك من يبدي تخوفات كثيرة وهواجس من تجاوز الحدود عن طريق المبالغة في الكشف عن أسرار الحياة الشخصية والعلاقات الحميمة مما يتعارض مع القيم المتوارثة في شتى المجتمعات على الرغم من كل ما يقال عن تغير المعايير الاجتماعية والأخلاقية بتغير الزمن .

فهناك كثير من الإغراءات للإدلاء بخفايا الحياة الشخصية إلى جانب ما قد ينشره البعض من ادعاءات غير صحيحة والرغبة في التظاهر وتعرية الذات أمام الآخرين تعبيراً عن الحرية الشخصية والتمرد على المجتمع . إلا أن هذه التخوفات تجد من يهون من شأنها ويرى أن هذه الشبكات الاجتماعية تمثل الرابطة التي سوف تجعل العالم مكانا أفضل لحياة سليمة بالنسبة إلى الجنس البشري ، وان الناس يميلون بطبيعتهم إلى الاحتكاك والمشاركة حتى مع الأغراب ، وأن الاطمئنان إلى عدم الكشف عن شخصيات وهويات المشاركين . وهو ما تتعهد الشركات بمراعاته . يُضفي كثيراً من الطمأنينة مما يساعد على مزيدٍ من الانفتاح الذي يساعد بدوره على الفهم وحل المشكلات ، وان هذه النظرة ليست مثالية يصعب تحقيقها؛ فقد اثبت فيسبوك منذ تأسيسه عام 2004 أنه عامل مؤثر في الحياة وتكوين رأي عام واسع المدى في كثير من الأمور، خاصة أن المشاركين فيه يستخدمون أكثر من سبعين لغة منتشرة في أرجاء تلك الأمة/الإمبراطورية الافتراضية.

وقد تختلف الآراء حول جدوى ذلك الاكتشاف، ولكن مكتشفه مارك زوكربيرج يرى أن الفيسبوك حركة اجتماعية Social Movement وليس مجرد أداة أو وسيلة للتواصل، وأنه سوف يزيح البريد الالكتروني من الطريق وأنه سوف يسيطر أو « يستعمر» ويحتل كل النشاط البشري على الشبكة الدولية؛ لذا فوصفه بأنه « دليل سكان العالم» وأنه موقع يتيح للأفراد العاديين أن يخلقوا من أنفسهم هويات عامة عن طريق الإدلاء بما يريدونه من معلومات حول أنفسهم وتكوينهم الذهني والعاطفي بل ونشر صورهم الشخصية وأن الهدف منه هو أن يصبح العالم « مكاناً أكثر انفتاحاً» [31] .

ورغم كل ما يُقال عن الفيسبوك من سلبيات ومخاطر إلا أنه يمثل منصة قوية للتنظيم الاجتماعي والسياسي، والحشد للأحداث أو الأحزاب، وتوزيع المعلومات، والتعبير عن حرية الرأي، باعتباره طريقة فعالة للنشر الفوري للمعلومات لعدد كبير من الأفراد الذين لديهم اهتمام بنفس الموضوع أو القضية.

المدونات Blogs

المدونات هي سجل الكتروني يقوم فيه الشخص بتسجيل آرائه وأفكاره ومشاعره وملاحظاته وانتقاداته وإبداعاته

ونقل أخبار مجتمعه والتواصل مع الآخرين عبر شبكة الانترنت، وهي الاسم المختصر لمصطلح « سجل الشبكة «، الذي هو عبارة عن يوميات مستخدم معين. إذ كلما أضاف المستخدم تحديثاً على مدونته، يظهر التحديث الأخير على أعلى الصفحة، ويمكن للمستخدم مشاهدة التحديثات المضافة قبل ذلك التاريخ في أسفل الصفحة ، ويمكن أن تكون المدونة حول التفاصيل اليومية في الحياة الشخصية للمستخدم، مثل توثيق حياة مولود جديد في الأسرة لتمكين أفراد الأسرة الآخرين من المتابعة، أو يمكن أن تتمحور حول منتج أو حدث ما، ويمكن للمدونة أن تشتمل على النص المكتوب والصور والفيديو ، كما يمكن للقارئ في بعض الأحيان التعليق حول الإدخالات والتحديثات في المدونة[32].

ظهرت المدونات في نهاية القرن الماضي، وكانت أداة لتسجيل حياة الفرد وأفكاره ونشرها في محيط العائلة والأصدقاء. وتطورت بعد ذلك لتكون أداة للإعلام والشرح والتعليق في الوقائع والأحداث السياسية والاجتماعية وتتوسع في النشر إلى الغير وتبادل الأفكار والتعليقات حولها. كانت الحرب على العراق في 2003 بداية لزيادة هذا التوسع والانتشار وامتلاك مساحات مواقع التدوين والمدونات، لنشر أخبار الحروب والمعارك ونشر الآراء المعارضة لفكرة الحرب وتأثيراتها بجانب الآراء والأفكار السياسية والاجتماعية الأخرى. بل أن العديد من القضايا في دول العالم بدأ الكشف عنها والتحقيق فيها بتأثير ما كان يُنشر في هذه المدونات. هذا الاهتمام بالمدونات أدى لأن يصل عددها إلى أكثر من 100 مليون مدونة أواخر العام 2009 ، في حين سُجل في منتصف العام الجاري 12 ألف مدونة جديدة يوميا؛ أي بمعدل مدونة لكل سبع ثوانٍ. هذا الارتفاع السريع أدى بدوره إلى أن مفهوم العزلة والاحتماء بحالة الصمت في مواجهة الآراء المؤيدة لما تقوله وسائل الإعلام التقليدية لم يعد واردا في رصد حركة الجمهور واتجاهات المدونات ووسائط الإعلام الجديدة الأخرى[33].

فالإعلام البديل، وبضمنه المدونات أدى إلى تحدي الصمت في إشارة إلى سقوط إحدى نظريات التأثير التي تم صياغتها وطرح فروضها في سبعينيات القرن الماضي تحت عنوان « تدعيم الصمت» أو ما يُطلق عليها الآخرون « دوامة الصمت « Spiral of Silence . ولعل تعميمات أو نظريات عديدة لتأثير وسائل الإعلام في طريقها إلى أن تفقد صلاحياتها جراء بزوغ وسائط الإعلام الجديد الذي « هيمن» أو أثر سلباً على العديد من وسائل الإعلام التقليدية خاصة الإذاعة.

و في صورة أخرى؛ فإنه رغم الأهمية التي اكتسبتها المدونات، إلا أنها تعتبر عنصراً مثيراً للجدل على الساحة الإخبارية على الانترنت، فمن جهة، توفر المدونات الكثير من المعلومات الحرة والمفتوحة، لكن من جهة أخرى، يمكن لأي شخص إنشاء أو تدوين ما يشاء ، وبالتالي، غالباً ما تعتبر المدونة مصدرا اقل مصداقية من قبل الصحافيين التقليديين ذوي التدريب والتعليم الرسمي. وبخصوص المحتوى لهذه المدونات يرى البعض أن اغلب ما ينشر فيها تعليقات سياسية سطحية، لا تعكس ثقافة نظرية أو سياسية لأصحابها، وفيها كثير من القذف والشتم، أما تنفيسا عن غيظ مكتوم، أو إحباط عميق. ولكن في المقابل هناك مدونات تتسم بفكرٍ عميق، وقدرة فذة على التحليل السياسي، ورؤية نقدية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، بما يعكس النضج الفكري والثقافة العميقة لأصحابها، إلى جانب وجود مدونات يعني أصحابها بنشر إبداعاتهم الأدبية فيها، أو مقاطع من سير

حياتهم، فيها مادة خصبة تجمع بين المتعة والفائدة.

وبالإضافة إلى ذلك يتوزع المدونون بين تيارات أيديولوجية شتى، ففيهم ماركسيون وإسلاميون وليبراليون وقوميون. وأخطر من ذلك فيهم « عدميون» لا يؤمنون بأي شيء، وإنما يعبرون عن احباطاتهم الشخصية أو السياسية بصورةٍ زاخرة باليأس والقنوط.

وفيما يتعلق بقدرة المدونات على الدور التغيري في المجال السياسي فهناك توجهين، الأول يرى أن التدوين لا يزيد عن كونه نشاطا تقوم به نخبة صغيرة من المثقفين والكتاب، يخاطبون به أقلية قليلة من الجماهير العربية ، وبالتالي فلن يؤدي إلى تغيير سياسي عميق. في حين جانب آخر يرى أن التدوين السياسي أصبح يلعب دوراً متزايدا في تشكيل الرأي العام ، خاصة في ظل الدور الايجابي الذي لعبه المدنون في بعض الدول العربية، وأهمها مصر في كشف حوادث التعذيب، أو نشر أخبار الاحتجاجات الجماهيرية المتنوعة، والذي أدى، بدوره، إلى نشر ثقافة الاحتجاج وزيادة معدلات الممارسة للناشطين سياسيا[34].

ومع كل ذلك فما زال التدوين السياسي يثير عديداً من الأسئلة، لعل أهمها: هل التدوين يمثل أداة ثورية جديدة للتعبئة السياسية العربية؟ وهل يستطيع أن يتحدى الحدود التي وضعتها الدولة العربية على حرية التعبير من خلال أجهزة الإعلام التي تسيطر عليها الحكومات ؟ وهل يمكن لها أن تكون فعلا صوت من لا صوت لهم؟ وهل يمكن للتدوين السياسي أن يُنشئ مجالاً عاماً جديداً يضاف إلى المجال العام التقليدي، الذي تدور فيه المناقشات والحوارات حول الأداء الحكومي من قبل الأحزاب السياسية والمثقفين ومؤسسات المجتمع المدني ؟ . من الصعوبة الإجابة على كل هذه الأسئلة نظراً لأننا في بداية مرحلة تلعب فيها التفاعلات الاجتماعية والسياسية في الانترنت دورها في تنشيط كل مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية.

مختصر الكلام: رغم كل ما يُقال عن المدونات، بسلبياتها أو ايجابياتها فإنها ساهمت، إلى جانب الوسائط الأخرى من الإعلام الجديد في كسر احتكار وسائل الإعلام التقليدية للأخبار ومجريات الأحداث التي تموج بها الدول المختلفة سواء كانت أنظمتها ديمقراطية أو استبدادية. هذه المدونات جعلت من المواطن إعلاميا ينشر ما يريده ويعبر عما يريد دون أن يمنعه رقيب أو يُخمد صوته صائدي الحريات ومضطهدي الرأي والتعبير.

3. توتير *Twitter*

توتير هو أحد مواقع الشبكات الاجتماعية على الانترنت، تم تطويره عام 2006 ، ويتيح للمستخدمين فتح حساب شخصي وكتابة الرسائل، على غرار «تحديث الحالة» في موقع فيسبوك ، ويتيح أيضا وضع روابط على شبكة الانترنت بطول 140 حرفاً على الأكثر . وهذه الرسائل القصيرة التي تسمى « توتير» تذهب على الفور إلى صفحة المستخدم والى المستخدمين الآخرين الذين لديهم اشتراك في حساب توتير مع ذلك المستخدم ، لكن، وبسبب طبيعة التحديث التي تتميز بالقصر والاختصار، فان مثل هذه المواقع تُعطى أسماء أخرى مثل « مواقع المدونة الصغرى».

وقد ساعدت خدمة استخدام « توتير» من خلال الرسائل القصيرة، وخدمات الهاتف الذكي على رفع عدد

مستخدمي «توتير» إلى 100 مليون مستخدم حول العالم في منتصف العام 2010. ومن أهم صفات هذا النوع من الإعلام هو قدرته على الوصول إلى عددٍ هائل من المستخدمين، وبالتالي الوصول إلى المعلومات، دون الحاجة إلى اللجوء إلى أدوات الإعلام التقليدي. وكان لاستخدام موقع «توتير» أهمية كبيرة في العديد من الأحداث السياسية، ففي فترة الانتخابات الرئاسية الأميركية عام 2008، اتضحت قوة تأثير توتير عبر استخدام هذه الوسيلة من قبل المرشح باراك اوباما والمرشحين الآخرين الذين كانت لديهم حسابات توتير، وكان بإمكان مؤيديهم رؤية التحديثات والشعور بالارتباط مع مرشحهم المفضل[35].

كما كانت التحديثات المرسلة عبر توتير أكثر تأثيرا خلال الانتخابات الرئاسية الإيرانية عام 2009، حين توالت التحديثات ليشهد العالم حجم الاحتجاجات الجماهيرية التي أعقبت الانتخابات، وتفوقت التحديثات في اختصارها وسرعتها على وسائل الإعلام التقليدية التي كانت تواجه العديد من الصعوبات في تغطية الأحداث بسبب العراقيل التي وضعتها الحكومة والجيش أمامها. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد ساعدت هذه الخدمات في مكافحة الجريمة، والتجسس، والمظاهرات، والتعليم، وحالات الطوارئ وغيرها. وباتت أيضا شكلاً من أشكال الترويج التجاري وتجليا من تجليات العلاقات العامة، فقد أطلقت الحكومة البريطانية إستراتيجية جديدة في نظام العلاقات العامة استخدمت عن طريقها خدمات الـ « توتير» بهدف التعريف بعمل الهيئات العامة واستخدامها كوسيلة للتغطية الإعلامية [36]

4. يوتيوب YouTube

موقع «اليوتيوب «هو أكبر موقع على شبكة الانترنت يسمح للمستخدمين برفع ومشاهدة ومشاركة مقاطع الفيديو بشكل مجاني كمستخدمين عاديين . فكرة موقع اليوتيوب نشأت عندما كان ثلاثة من الأصدقاء الأميركيين في حفلة لأحد الأصدقاء وهنالك التقطوا مقاطع فيديو وأرادوا أن ينشروها بين زملائهم وفكروا بطريقة مناسبة لكنهم لم يجدوا شيء ملائم خصوصاً أن « البريد الالكتروني» كان لا يقبل الملفات الكبيرة. من هنا بدأت تتبلور فكرة موقع لرفع أفلام الفيديو.

ويعتبر « يوتيوب « الموقع المسيطر على مجال تبادل ملفات الفيديو على الانترنت منذ إطلاقه عام 2005، وتتم حاليا إدارة الموقع من قبل شركة «غوغل» التي أعلنت في تشرين الأول من عام 2009 عن أن يوتيوب يوفر أكثر من مليار مشاهدة للفيديو يوميا في جميع أنحاء العالم.

ويتميز الموقع بخاصية تمكنه من العمل مع مواقع وسائط اجتماعية أخرى مثل فيسبوك أو المدونات من خلال « تضمين» ملفات فيديو يوتيوب داخلها ، وذلك لوجود خيار « تبادل ملفات فيديو « يتيح المجال لأصدقاء مستخدم فيسبوك مشاهدتها. كذلك يمكن إنشاء رابط لتضمين ملفات الفيديو، وفي حال وضع هذا الرابط في مدونة أو موقع آخر، يمكن مشاهدة هذا الفيديو منه أيضا. وقد لوحظ في الآونة الأخيرة قيام بعض المؤسسات الإعلامية الضخمة ومحطات التلفزة والفضائيات بإنشاء قناة خاصة بهم على الموقع.

5. المنتديات (Discussion Forums)

منتديات الانترنت هي عبارة عن مواقع تفاعلية للنقاش بحيث تمكن المشتركين من الدخول إليها عن طريق التسجيل في المواقع والمشاركة في النقاش بالقضايا التي يتخصص فيها ذلك المنتدى. ويعرف المنتدى العربي المنتديات بأنها « مكان يتجمع فيه الأعضاء لتبادل الخبرات». ومعناه في كلمة واحدة المنفعة المتبادلة، وليس معناه أبداً أنت تسأل ونحن نجيب. وتسمح هذه المنتديات بعرض الأفكار والآراء أو القضايا المطروحة للنقاش في الاتجاه الذي يراه المشاركون، وهي في ذلك تماثل المدونات باستثناء القيود التي يضعها مسؤولو الموقع من خلال نظام الضبط والتحكم المقام على البرنامج المستخدم في إدارة المنتدى.

ويختلف المنتدى الالكتروني عن المدونات في نظام تحكم المسؤول في الرسائل المرسلة بالاستبعاد متى كانت غير مرتبطة بموضوعات المنتدى، أو الحذف والتعديل في حالة عدم اتفاق محتوى الرسالة أو الأسلوب والألفاظ المستخدمة مع القواعد وتقاليد النشر التي يضعها المنتدى. بكلمات أخرى؛ تمثل المنتديات ساحة جيدة ومتميزة للنقاش حول قضية ما والتعبير عن الآراء والمواقف إزاءها، ولكن ما يُؤخذ على هذه الوسيطة الالكترونية تحكم القائمين بما يُنشر، وما لميولهم وتوجهاتهم أثراً في صبغ مساحة لا تجد من أكسجين حرية الرأي والتعبير ما يكفي لأصحابها من تحقيق أهدافهم. يشار إلى أن المنديات تختلف عن مواقع الدردشة من حيث أنها تُبقي على مداخلات المشاركين معروضة، وتتيح لكل مشترك مسجل فرصة التعبير عن رأيه في القضية المطروحة للنقاش[37].

6. الصور *photos*

تعتبر المواقع المذكورة أعلاه من أكبر مواقع الوسائط الاجتماعية المستخدمة على مستوى العالم، لكن ثمة كثير غيرها، فبعضها لديه اهتمامات معينة حسب البلد أو الهدف ، إلا أن معظمها يعمل انطلاقا من فكرة أساسية تقضي بإيجاد موقع على الانترنت يمكن لأي شخص من إنشاء حساب وتبادل الصور وملفات الفيديو وغيرها من الوسائط بسهولة ويسر مع عدد غير محدود من الأشخاص في جميع أنحاء العالم. ويوجد العديد من مواقع تبادل الصور على الانترنت منها مثلا المواقع التالية:

فليكر (www.**flickr**.com) المرتبط مع ياهو؛ وبيكاسا (www.com.***picasa***) المرتبط مع غوغل مجموعات؛ وفيمو(www.***vimeo.com***) وغيرها، التي سرعان ما اكتسبت شعبية لتبادل ملفات الفيديو كرديف لموقع يوتيوب.

٧. تقنيات الويكي (Wiki)

تقوم فلسفة الويكي على فكرة المشاركة الجماعية في تأليف النص ويسمح للمشتركين بأن يقوموا بإضافة

محتويات أو حذفها أو تعديلها حسب ما يرتئيه المستخدمون أنفسهم . ومن أشهر التطبيقات على هذا النوع من خدمات الويب 2.0 ، موقع الموسوعة التشاركية (***wikipedia***) ، حيث تأسست هذه الموسوعة متعددة اللغات في 2001 بواسطة اثنين من مطوري تطبيقات الانترنت هما جيمي والز ولاري سانجر.

وفي صورة إجمالية لما تقدم؛ تتبين « الصعوبة البالغة « في وضع تعريف شامل للإعلام الجديد، لعدة أسباب، تبدأ بأن هذا الإعلام هو في واقع الأمر يمثل مرحلة انتقالية من ناحية الوسائل والتطبيقات والخصائص التي لم تتبلور بشكل كامل وواضح، فهي ما زالت في حالة تطور واسع. وما يبدو اليوم جديدا يصبح قديما في اليوم التالي . وإذا ما أردنا وضع تعريف للإعلام الجديد بناء على الوسائل الجديدة فهي بالتأكيد ستكون قديمة بمجرد ظهور مبتكرات جديدة ، وهذا مدعاة لصعوبة وضع تعريف محدد من هذا المدخل تحديدا، بينما يختلف الحال إذا تم وضع تعريف بناءً على مجموعة الخصائص التي تميز الإعلام الجديد، فهناك شبه اتفاق على جملة خصائص يتصف بها هذا الإعلام، وأهمها: الرقمية، التفاعلية، التشعبية، التفردية، التخصيص، الجماهيرية، وتزاوج الوسائط والتكنولوجيات.

الهوامش

1. يقول تيم بيرنيرز مؤسس الانترنت :» إن وضع تعريف للانترنت يعد عملية تشبه الفرق بين الدماغ والعقل، فباكتشاف الانترنت تجد أسلاكاً وكمبيوترات، أما باستعراض الشبكة نفسها فستجد شتى المعلومات .للمزيد، انظر: سعود صالح، الإعلام القديم والإعلام الجديد، مكتبة الشروق، جدة، 2003، ص53.
2. عبد الملك الدناني، الوظيفة الإعلامية لشبكة الانترنت، دار الراتب الجامعية، بيروت، ط1،2001، ص8
3. Dimaggio. p.(2001) "Social Implications of the Internet". Annual Review of Sociology, Annual , p 307.
4. حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص21.
5. المصدر نفسه، ص108
6. صالح أبو أصبع ،الاتصال الجماهيري، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص98. وأيضاً، صالح أبو أصبع ، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، جامعة فيلادلفيا، عمان، 2010، ص400.
7. نادر وهبة، الانترنت في التعليم والتعلم، مؤسسة عبد المحسن القطان، رام الله، 2003، ص11.
8. خالد ربايعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، جريدة القدس ، القدس، عدد 14942، 2011/3/21، ص47.
9. هناك ترجمات عديدة لمفهوم Public Sphere الهابر ماسي منها المجال العام ، والفضاء العمومي، والفضاء الرمزي، والمجال الافتراضي . وسنقوم بالاستفاضة في الحديث عن « الحيز العام» في المدخل النظري.
10. الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب» بيالارا، «السياحة العشوائية عبر الانترنت، مصدر سابق، ص14.
11. السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص 128.
12. الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب» بيالارا، مصدر سابق، ص26.
13. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص94.
14. فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،مصدر سابق،ص30.
15. .عبد الباسط محمد، استخدامات تكنولوجيا الاتصال في الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني، المكتب الجامعي الحديث، اليمن، 2005، ص85.
16. فضيل دليو ، سابق،ص32.
17. المصدر نفسه، ص32.
18. عباس مصطفى صادق، « الإعلام الجديد»، في:arab mediastudies.net.26/12/2007
19. هناك عدة مسميات يطلقها البعض، قاصدين بها « الإعلام الجديد» ، فالبعض يصفه بـ « الإعلام البديل» ، وآخرون يصفونه بـ « الإعلام المعاصر أو الحديث» وطرف ثالث يذهب لنعته بـ « الإعلام الاجتماعي» وفريق رابع يطلق عليه « إعلام الفقراء» أو « أعلام المواطن» أو « الإعلام الشعبي» أو « الإعلام الجماهيري» أو « الإعلام الرقمي».
20. تعتبر نظرية الحتمية التكنولوجية (Technological Determinism Theory) من النظريات التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور وتفكير وسلوك الأفراد ، وعلى التطور التاريخي للمجتمعات. وقد ترتب على تبني مفهوم الحتمية التكنولوجية من قبل ماكلوهان وغيره أن صنفت مراحل الحضارة الإنسانية على وسائل التكنولوجيا الجديدة . وهو تصور يمكن تلخيصه في ثلاثة أبعاد متتالية هي: على العالم أن يكتشف، وعلى التكنولوجيا أن تطبق، وعلى الإنسان أن يتكيف . للمزيد ، انظر: فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال، مصدر سابق، ص44.
21. عباس مصطفى صادق، الإعلام الجديد: المفاهيم والوسائل والتطبيقات، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص15.
22. المصدر نفسه، ص30.
23. المصدر نفسه،ص31.
24. نفس المصدر، ص33.
25. محمد عبد الحميد، المدونات: الإعلام البديل، مصدر سابق، ص129.
26. المصدر ذاته، ص129.
27. أحمد أبو زيد، الشبكات الاجتماعية: رقابة ناعمة، مجلة العربي، مصدر سابق، ص32
28. .ملفين ديفلير،نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص463.
29. خالد ربايعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، مصدر سابق.
30. . /http://ar.wikipedia.org/wiki
31. لنى التكروري، دليل الوسائط الإعلامية المتعددة واستخداماتها في إعداد القصة الصحافية، مركز تطوير الإعلام. جامعة بيرزيت، 2010، ص14.
32. مدونة الشبكة، ما هي المدونات ؟ و ما هو التدوين ؟، http://shebaka.blogspot.com/2008/12/blog-post.html

استرجع الرابط بتاريخ 2011/4/4

33 . علاء الدين جمعة، انتشار المدونات الشخصية العربية تعزيز لثقافة الحوار:
http://www.dw-world.de/dw/article/0,,1681786,00.html ، استرجعه بتاريخ 2011/3/23

34 . السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص 123.

35 . لنى التكروري،مصدر سابق، ص12.

36 . الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب» بيالارا، مصدر سابق، ص26.

37 . محمد عبد الحميد، المدونات: الإعلام البديل، مصدر سابق، ص131.

المبحث الثاني

مراجعة الأدبيات

ثمّة دراسات كثيرة تطرقت إلى الإعلام الإلكتروني عموماً، أو الإعلام الجديد على وجه الخصوص، سواءً على الصعيد الدولي أو العربي. وبعد الاطلاع على عددٍ لا بأس به من هذه الأدبيات؛ تبيّن وجود نقصٍ ملحوظ فيما يختص بالتطرق إلى واقع الإعلام الجديد ووسائطه المتعددة في المشهد الفلسطيني، علاوةً على عدم وجود أيّة دراسة تتناول علاقة هذا الإعلام بموضوعة حرية الرأي والتعبير، ودورِه في تأصيل أو توسيع هذه الحرية، لمعرفة أثرها في تشكيل فضاءات الحوار أو التفاعل الاجتماعي، وصولاً إلى إحداث تغييراتٍ جذرية في أساليب الحياة، حتى لا تبقى هذه الوسائط مجرد أداة للاتصال والتعارف في الحيّز الافتراضي، وإنما لتتجسّد " كحركة" مؤثرة في العالم الواقعي.

وعلى الرغم من افتقار المكتبة الفلسطينية لوجود دراسة تتناول أو تعالج الموضوع قيد البحث، إلاّ أن هناك عدداً من الأدبيات، سيّما المؤلفات منها لامست علاقة الإعلام الجديد بحرية الرأي والتعبير في المجتمعات والأنظمة السياسية المختلفة، من خلال أجزاء من محاورها أو فصولها، دون تلمّس الواقع الفلسطيني بهذا الخصوص.

وسعياً لتعميق وتوسيع دائرة الفائدة حول الإعلام الجديد، وما يتصل به من منظومة الأداء والوسائل والوظيفة، سنستعرض في هذا الجزء من الدراسة حُزمة من الأدبيات التي تناولت الإعلام الجديد، مع التركيز على ما احتوته من معطيات حول علاقة هذا الإعلام بمسألة حرية الرأي والتعبير عموماً. وقبل الخوض في هذا الاستعراض نود الإشارة إلى أن أهمية مكانة الإعلام الجديد، ودوره في المجتمعات، راهناً ومستقبلاً، فضلاً عن تعميق الفائدة المعرفية للقارئ ارتأينا الاستطراد ، كماً ونوعاً، في تناول هذه الأدبيات.

أولاً: الكُتب

تؤكد آسا بريغز وبيتر بورك في كتابهما (**التاريخ الاجتماعي للوسائط من غوتنبرغ إلى الإنترنت**[1]) أنه في الوقت الذي تسارعت فيه تكنولوجيا الاتصالات؛ فإنّ الإنترنت تحدّت التنبؤات، وجلبت معها مفاجآتٍ كثيرة، قيل إنّها "ظاهرة أكثر منها حقيقة"، وقيل كذلك أنها "أقصى ما وصل إليه الغرب" في الاتصالات. وسُرعان ما تركت الإنترنت الفيزياء وراءَها، وطوّرت سيمولوجيتها المميزة مع تحقُّق هذه القفزة، وطوّرت كذلك ما أصبح يُسمّى آيكولوجيا "بيئة" الإنترنت.

ويشيران المؤلفان إلى أن الكثيرين رَأوا في الإنترنت وسيلةً لتوسيع الفُرص، حرّرت الأفكار، وقدّمت للمجتمع فُرصاً غير مسبوقة، وأنه من خلال التقارب التكنولوجي سوف تتجه البشرية نحو مزيدٍ من الحرية

الإنسانية، ومن قوّة الناس والتعاون الدولي، إلى جانب أن هذه الوسيلة التّقنية المميزة قد تصبح للكثيرين بمنزلة جامعة بلا جُدران.

يَذكر مؤلِّفا كتاب (**الإعلام الجديد: تطوُّر الأداء والوسيلة والوظيفة**[2]) أنّه مع ظهور الإعلام الجديد ـ بما يملكه من أدوات تفاعلية ـ أصبح للمستقبل القُدرة على المشاركة النشطة الأكثر فاعلية في العملية الاتّصالية والتواصلية، بحيث أصبح الجمهور يسعى للحصول على المعلومات واختيار المُناسب منها، وتبادل الرسائل مع المرسل بحريةٍ وشفافية، بعدما كان دورُهُ في السابق مجرد متلقٍ للمعلومات.

ويؤكّد الكتاب أنّ الانترنت يمثل فضاءً جماعياً، يشترك المستخدمون في إنتاجه، وهو لا يتعلق بعملية بثٍّ مركزية، ولكن يتفاعل داخل حالةٍ ما، يسعى كل فرد (مرسِل ـ مستقبِل) في اكتشافها بطريقته، أو تغييرها، أو الحفاظ عليها كما هي، منوّهين إلى أن الانترنت أحدثَ تغييراتٍ بُنيوية في خريطة الإعلام بشكلٍ عام، وفسح المجال ـ على وفق ذلك ـ بقيام تعدُّديةٍ إعلاميةٍ افتراضية. ويرى المؤلفان أنّ الإعلام الجديد يمتاز عن الإعلام التقليدي اللامتكافئ، والذي يخدم النُّخب التي تتحكم في إنتاج الخطابات العامة، ولا يضمن التبادل والتفاعلية بين المُرسِل والجمهور، في أنه غير مركزي، يُيَسّر للأفراد إمكانات إنتاج الخطابات والمشاركة في الاتصال العمومي، وما يميّزه أيضاً أنه لا يتعلق فقط بما يُسمّى بـ" الكثرة المعلوماتية"، ولكن بتعميم القدرة على الكلام للأفراد، ويُسهم في تشكيل (فضاءٍ عمومي) أكثر انفتاحاً، إذ لم يَعُد التواصل العمومي يقتصر على النُّخب السياسية والثقافية من أحزابٍ وجمعيات وغيرها، نظراً لما تمتاز به استعمالات ووسائط هذا النوع من الإعلام بالنصية الفائقة، والنقل التجميعي، والشفافية، والتزامنية، والتفاعلية.

ويتطرق الكتاب إلى آليات عمل الوسائط الاجتماعية على الشبكة العنكبوتية، حيث يوضح أن المبدأ العام الذي تقوم عليه فضاءات الحوار في الحيز الافتراضي يتمثل في أن أفراداً تجمعهم قضايا وهواجس مشتركة، يقررون الائتلاف ضمن مجموعة افتراضية، ليتحدثوا ويناقشوا ويتبادلوا الآراء حول موضوع ما ، فيشكلون بهذا المعنى جماعة يتواصل الأعضاء فيها أفقياً، إذ أن كل عضوٍ هو في الوقت ذاته مرسل ومستقبل. ويبين مؤلفو هذا الكتاب أن المتلقي العربي ،وفقاً للتقارير العربية للتنمية الثقافية، لم يستفد بشكلٍ فاعل من تلك الفضاءات الالكترونية في مجال التوعية السياسية والديمقراطية والحريات العامة، إذ تشير الإحصاءات الحديثة المتعلقة بدوافع الفرد العربي للانترنت، إلى أن دافع الترفيه والتسلية جاء في المرتبة الأولى بنسبة (46%) ، فيما سجل دافع التماس المعلومات نسبة (26%) فقط.

أما كتاب (**الإعلام الجديد: المفاهيم والوسائل والتطبيقات** [3]) فيؤكد مؤلفه عباس مصطفى صادق إن الإعلام الجديد يتمتع بجملة خصائص ومميزات ، تتمثل في دمجه للوسائل المختلفة القديمة والمستحدثة في مكان واحد، على منصة الكمبيوتر وشبكاته، وما ينتج عن ذلك الاندماج من تغيير انقلابي للنموذج الاتصالي الموروث ، بما يسمح للفرد العادي من إيصال رسالته إلى من يريد في الوقت الذي يريد وبطريقة واسعة الاتجاهات، وليس من أعلى إلى أسفل وفق النموذج الاتصالي التقليدي ، فضلا عن تبني هذا الإعلام للتكنولوجيا الرقمية وحالات

التفاعلية والتشعبية، وتطبيقات الواقع الافتراضي وتعددية الوسائط، وتحقيقه لميزات الفردية والتخصيص، وتجاوزه لمفهوم الدولة الوطنية والحدود الدولية.

ويوضح صادق إن الإعلام الجديد ليس بثاً أحادياً وتلقياً إجبارياً مثل ما هو لدى نظم الإعلام القديم، ولكنه تفاعل يختار فيه الناس احتياجاتهم ويشاركون هم في الوقت ذاته ليس بالرأي فقط، ولكن بإعلام شخصي خاص بكل فرد على حدة ، منوهاً إلى أن أهمية هذا النوع من الإعلام تزداد خاصة في ظل ثقافة المجموعات الترابطية التي تجد الفرصة للتعبير عن نفسها وسماع صوتها بما يمكنها من التفاعل مع الثقافات الأخرى.

أما كتاب (**ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي**[4]) فيرى مؤلفه أن المجتمعات العربية، وبخاصة تلك التي تحدّ ثقافتها وتقاليدها الاجتماعية من التفاعل المباشر بين الجنسين، أو تلك التي يعمل نظامها الاجتماعي والثقافي على إغلاق قنوات الاتصال الوجاهي المباشرة وسدها بين الأفراد سيزداد إقبال أفرادها على استخدام وسائط التواصل الاجتماعي كوسيلة اتصال " تعويضية" كمتنفس للتعبير عن أفكارهم ومواقفهم ومطالبهم. ويذكر الكتاب أن الاتصال حاجة اجتماعية ونفسية وضرورة حتمية لا يستطيع أحد العيش بدونها، لذا؛ فإن الشباب في هذه المجتمعات سيظلوا يبحثون عن سبل للتواصل بينهم ، مما يجعل الانترنت، أحد أهم الطرق في تلك المجتمعات وقد يضاهي إقبال الشباب مستقبلاً على الانترنت سوى الاتصال عبر التلفون الجوال (Mobile phone).

هذا الكتاب اشتمل على مسح عيّنة عشوائية بلغ أفرادها 472 شاباً وشابة. وما يهمنا في هذا الأمر التطرق إلى الجزئية المتعلقة بحرية الرأي والتعبير، حيث أفاد (65.8%) من المستطلعة آراؤهم بأنهم يجدون في الانترنت وسيلة ملائمة لتوصيل أفكارهم التي لا يستطيعون توصيلها بشكلٍ مباشر أو شخصي. لهذا البعد، بالطبع، دلالاته السياسية الواضحة. وأما فيما يتعلق بمتغير الجنس هنا، فقد أجاب ما نسبته (39.5%) من الذكور و ما نسبته (26.3%) من الإناث أنهم يرون في الانترنت فرصة مناسبة للتعبير عن آرائهم ، لأنه يتعذر عليهم توصيلها بطرقٍ أخرى. هذه النسبة المرتفعة من إجابات الشباب تؤكد مدى أهمية هذه الوسيلة الإعلامية في التعبير عن الآراء والاتجاهات في المجتمعات التي يتعذر فيها التعبير بشكلٍ صريح أو أن أنظمتها السياسية تحد من ذلك.

لم يعمل الانترنت كوسيلة اتصال حديثة على مجرد اختراق الحدود الجغرافية بين الشباب العربي فحسب؛ بل اخترق الحواجز الثقافية والسياسية والاجتماعية بينهم أيضاً. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الانترنت (وفق المؤلف) وسيلة تفاعل اجتماعي وثقافي " عن بعد" بين الشباب تيسر لهم فرص اللقاء الفكري والعاطفي وصداقات اجتماعية. وبالنسب فقد أجاب (64.5%) من المبحوثين أن الانترنت قد ساعدهم في التعارف على شباب من مختلف الفئات الاجتماعية والسياسية والثقافية ، مما عمل على إثراء تجاربهم المعرفية المختلفة. كما وأفاد ما نسبته (39.5%) من الذكور و(25%) من الإناث بأن الانترنت أتاح لهم فرصاً ثقافية وسياسة واجتماعية فيما بينهم جعلتهم يشعرون بالقرب النفسي والعاطفي والسياسي مع من تواصلوا معهم في بقية أنحاء المجتمع العربي.

بدوره يتطرق فارس أبو خليل في مؤلفه (**وسائط الإعلام بين الكبت وحرية التعبير**[5]) إلى أهمية الانترنت في توسيع نطاق حرية الرأي والتعبير، على المستويين الدولي والعربي، حيث يؤكد أن الشبكة العنكبوتية جاءت بصورٍ

جديدة للتعامل مع الأفراد والمجتمعات، وأعطت بعداً جديداً لطريقة الاتصال، وتفريغ الطاقات، والتعبير عما يجول داخل النفس، فأضحت الانترنت السوق الذي يأوي إليه كل صاحب بضاعة، فاسدة كانت أو صالحة ، فيعرضها في هذا السوق لأنه يريد أن يكسب، سواء أكان الكسب مادياً أو معنوياً.

ويُبيّن أبو خليل إن التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال يزيد من قلق الحكومات إزاء التأثير الاجتماعي والثقافي لوسائل الاتصال الجماهيري، لذا؛ فقد ضاعفت هذه الحكومات من القيود والالتزامات التي تُفرض على هذه الوسائل والتي تأخذ أشكالاً متعددة، تتمثل في الالتزامات القانونية أو قيود إدارية أو إجرائية ، أو قيود اجتماعية واقتصادية وغيرها من العوائق التي تحول دون هذه الحرية أثناء ممارسة النشاط الاتصالي . ويقول المؤلف: " آن للمواطن العربي أن يستنشق عبير الحرية ولو من خلال التنفس الالكتروني ؟، وأن أحد أهم أسباب التأخر الذي تعيشه المنطقة من الناحية التقنية هو عدم فتح المجال للحريات بالانطلاق، وإغلاق الأبواب أمام أي تطور علمي يفيد الشعوب، بحججٍ واهية.

أما كتاب (**المدوّنات: الإعلام البديل**[6]) فيرى مؤلفه أن قدرة المشاركة والتفاعل الذي وفرته تقنيات الإعلام الجديد، خاصة المدونات والفيسبوك يعكس قدر التمرد على وسائل الإعلام التقليدية، مشيراً إلى أن الإعلام الجديد أتاح للمواطن العربي وغيره حاجته في الكتابة والتعبير والعرض والتقديم والنشر المصغر الذي يصل إلى الملايين من المواقع والأفراد. ويوضح عبد الحميد أن هذه التقنيات ستمثل البديل المناسب لعدم التزام الصمت دون قيود سياسية أو تقنية تحول دون إبداء الرأي والإعلان عنه، كما وأنها ستسمح للمهمشين والأقليات وغيرهم بالتنفيس عن ما في صدورهم من كبت وقهر وإبداء الآراء والتعبير عنها .

ويؤكّد المؤلف أنه من مصلحة المجتمع والنظام الديمقراطي تنمية مهارات المجتمع على استخدام تكنولوجيا الاتصال والإعلام الجديد وتشجيع المواطنين على المشاركة والمساهمة في المنتديات والمؤتمرات والمدونات المتاحة على الانترنت، وتحليل محتوى هذه المشاركات باعتبارها تعبيراً لطبيعة ومنسوب الآراء والتوجهات وأداة للكشف عن القضايا والمشكلات المجتمعية، منوهاً في الإطار ذاته إلى أنه كلما زاد استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية بين أفراد المجتمع أدى ذلك إلى ارتفاع منسوب مستويات المشاركة والمساهمة واتساع دائرة التعبير عن الرأي العام ، وهذا ما يترتب عليه اختفاء ظاهرة الاعتقاد بهيمنة الرأي السائد الناتجة عن تبني وسائل الإعلام التقليدية لها، واختفاء ظاهرة التزام الصمت والخوف من العزلة.

وفي كتاب (**فهم الإعلام البديل** [7]) نجد مؤلفيه يذهبون للتأكيد على أن وسائل الإعلام البديل تمثل جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية للأفراد . ويتناول المؤلفون بالدراسة والبحث المعاني المتعارفة " للبديل" في مجال الإعلام البديل، منها مثلا البديل في إطار علاقته بالإعلام المسيطر، والبديل باعتباره مطمورا ومتجذرا في سياسة المواطنة للمجتمع المدني، وكوسيلة للتمثيل الذاتي بالنسبة للمجتمعات المحلية، وكشكل مهجن للإعلام المستقل يتحدى علاقات السلطة والرقابة الراسخة .

ويقدم مؤلفو الكتاب الفرضية التي تقول أن مواد الإعلام البديل بحاجةٍ إلى التغلب على القيود المرتبطة

بالتقسيمات الثنائية البسيطة - إلى بديل ومسيطر مثلاً - لكي يتسنى لها التصدي بوضعها كمجالات أو حيزات متنازع عليها يتم بناؤها ثم يعاد بناؤها مجددا طبقا لاحتياجات وخبرات وطموحات جماعات محددة (لا سيما الجماعات المحرومة من التمثيل أو التي تكون محل إهمال وتجاهل أو تهميش في مواضع أخرى من البيئة أو المحيط الإعلامي) . وإجمالا يقدم المؤلفون وجهات نظر مقنعة بضرورة إعادة تخيل المداخل المألوفة للإعلام البديل ويبينون السبب في أن آثار مثل هذا التنظير مهمة في سياقات للعالم الحقيقي تتجاوز بكثير حدود عالم النقاش الأكاديمي.

وفي السياق ذاته جاء في كتاب (**شبكة اجتماعية واحدة ذات رسالة متمردة: الانترنت في العالم العربي**[8]) إن التوصيف الأفضل للدور الذي يلعبه الانترنت في العالم العربي الآن يتمثل في هذا النص" تحركت كرة الثلج، ولم يعد بالإمكان وقفها،وفي تحركها لن تظل على حالها أو حجمها بل سوف تتضخم وتطيح في طريقها ما كان يمثل عقبة كبيرة في السابق . وفي الوقت الذي لم تكد الحكومات العربية تفيق وتلتقط أنفاسها لما سببه لها المدونين من صداعٍ مزمن، حتى فوجئت بوسيلةٍ أخرى أتاحتها لهم الانترنت، وهي "الفيسبوك" . هذا الموقع الذي لم يدر بخلد مبتكريه أنه سوف يتحول لأداة هائلة وطيعة بيد نشطاء الانترنت العرب يسخرونه لدعم حقهم في مجتمعات ديمقراطية ، في منطقة هي الأكثر قمعا في العالم" .

وذكرتْ مقدمة الكتاب أنه رغم أن عدد الشباب العرب المهتمين بالقضايا السياسية على الانترنت بضعة آلاف إلا أنهم نجحوا تماماً في تسليط الضوء على فساد وقمع الحكومات العربية التي أعيتها الحيل لكبح جماح هؤلاء النشطاء المدونين ، لا سيما وقد كسبوا إلى جانبهم كتل ضخمة من قوى وحركات المعارضة العربية، كما وأن الهوة بين الحكومات العربية ونشطاء الانترنت تتسع يوما بعد آخر. حكومات تكتفي بدور التاجر ورجل الأمن ، فيما هؤلاء النشطاء يرغبون في حياة ديمقراطية يصنعونها ويمارسونها، من خلال فضاء افتراضي يصعب التحكم به.

وفي فصل عن واقع إعلام الانترنت في فلسطين ذكر الكتاب أن فلسطين عرفت الصحافة الالكترونية مبكراً، إذا ما قورنت ببعض الدول العربية الأخرى. ووظفت الإعلام الجديد في التعبير عن الذات وتوصيل الأفكار السياسية والدعائية ، سواء من قبل المؤسسات الرسمية أو الأحزاب والفصائل والمواطنين الذين أصبحوا متلقين ومنتجين معاً في هذه الوسيلة الإعلامية الحديثة. وأوضح الفصل أن ظروف الاحتلال الإسرائيلي التي يعانيها المواطن الفلسطيني والتي جعلت منه - ولو عن غير قصد - مواطن ناشط وفعال ، فضلاً عن وقوعه تحت قمع ثلاث سلطات مختلفة (الاحتلال وحركتي حماس وفتح) جعلته راغباً في التعبير عن رفضه لهذه السلطة أو تلك ، أو جميعها والتعبير عن هذا الرفض والانتقاد عبر وسائط الإعلام الجديدة، وفي مقدمتها الفيسبوك والمدونات.

من جانبه يجد فيصل أبو عيشة في كتابه (**الإعلام الالكتروني** [9]) أن تقنيات الإعلام الالكتروني والإعلام الجديد أتاحت فرصة كبيرة لتوسيع دائرة التفاعل الإعلامي والجماهيري ووفرت لكل شخص أن ينشر كتابته بسهولةٍ بالغة. ويذكر أن طبيعة الظروف في عالمنا العربي تُكسب الإعلام الجديد أهمية مضاعفة ليس على مستوى الأفرادٍ وحسب؛ وإنما على مستوى الجماعات والتنظيمات حيث تفتقر وسائل الإعلام العربية على القدرة في استيعاب ما يخالف، مبيناً أن الانترنت شكلت بالنسبة للشعوب العربية ميلاد مرحلة جديدة تحمل فرصاً لم تكن

في الحسبان؛ فقد استطاع الرسام ـ على سبيل المثال ـ أن يعرض لوحاته التي لم يكن بإمكانه إقامة معرض فني لها . كما كانت هناك مناطق محرومة من تسليط الضوء الإعلامي على مكنوناتها فوجدت في الانترنت خير ناشر لها ، كما وهناك أصحاب قضايا وجدوا في الشبكة العنكبوتية خير وسيلة للتعريف بقضاياهم.

ويعتبر أبو عيشة أن الانجاز الأكبر في عالم الواقع "الانترنتي الافتراضي" لم يأت إلا بعد أن أخذ الرأي الالكتروني حيزه من الحرية، التي اتخذت بدورها أشكالاً متعددة ، بعضها فوضوي، وبعضه متطرف، وأكثرها منضبط، ولعل المنتديات والمجموعات البريدية أحد أشكال هذا الرأي ، الذي يعبر عن شريحةٍ واسعة من المتلقين والمتصفحين للانترنت. ويرى أن الانترنت لم تشهد ميلاد الصحافة أو المواقع الالكترونية إلا عبر المنديات الجارية، التي امتلأت بآراء وأفكار حرة غير خاضعة لمقص الرقيب ، مثلما يحدث في المواقع الكبرى ، ثم، ومن خلالها، بدأ أصحاب الآراء الواحدة يشكلون فيما بينهم مجموعات داخل المنتديات ليتبادلوا فيها الحوارات الجادة.

فالإعلام الجديد وفق المؤلف أسس لشعار " اصنع إعلامك بنفسك " ، حيث نشأت فرضية مفادها أن الامتلاك الوافر والسهل للكثير من الناس لإمكانيات النشر يساهم في تغيير جذري في طبيعة بناء " الرأي العام". ويذهب أبو عيشة للقول:" إذا كانت الانترنت تتيح التواصل مع العالم بأكمله، فبالتالي ستتغير أيضا بشكلٍ حاسم عملية تشكيل الرأي العام في البلدان العربية، ومن الممكن أن يحدث تطوراً بهذا نتيجة الاشتراك العريض لقطاعات واسعة من المجتمع في بناء الرأي العام ، وتبعاً لذلك مشاركة عامة أوسع في مراحل اتخاذ القرار. ويرى الكاتب أن الإعلام الجديد ساهم إلى حدٍ كبير في انتشار " الديمقراطية" بمفهومها الخاص بالحريات في العالم العربي، ليزداد منسوب الجرأة وحرية الرأي وعملية المشاركة.

في ذات الإطار يشير حسين عبد الجبار في كتابه (**اتجاهات الإعلام الحديث والمعاصر**[10]) أن الانترنت ـ بوسائطه المختلفة ـ اضعف بيروقراطية الدولة لصالح القوى السياسية وهيئات المجتمع المدني ، من خلال إنهاء احتكار المعلومات، وتوفيره لوسائل اتصال ونضال جديدة لا يمكن التحكم فيها . فظهور وسائط الإعلام الجديدة إيذان ببداية تحرر الإنسان من أجهزة التوجيه الإعلامي التي تسيطر على عقله ، من خلال احتكار المعلومات، أو تشكليها بصبغة خاصة تخدم الجهة المالكة، منوهاً إلى أن تقنيات الإعلام الجديد وفرت " تحرر مزدوج" ، يشمل حرية الإرسال، حيث أصبح المرسل مسيطراً على رسالته الإعلامية، قادراً على تقديمها دون وسيط أو تدخل أو صياغة من طرف الهيئات الإعلامية، كما يشمل هذا التحرر حرية الاستقبال .

وبخصوص الإمكانات التي وفرتها تقنيات الإعلام الجديد فهي كثيرة (حسب المؤلف)، تتمثل أهمها في مجال النضال السياسي عبر تسهيل سرعة الاستجابة للأحداث السياسية، والرد السريع على التحديات، وسهولة الحشد الجماهيري في سرعة قياسية . ولم يعد الأمر ـ كما يقول عبد الجبار ـ يحتاج إلى سيارات تحمل أبواقاً وتجول في المدن لدعوة الناس إلى مسيرة، أو إنفاق مبالغ طائلة لترويج حدث معين، بل أصبح الأمر مجرد تحرير رسالة تعبئة واستنفار، وإرسالها إلى العناوين الالكترونية لآلاف الناس في لحظة واحدة . ورغم أن أنظمة الاستبداد في العالم العربي تراقب وتضيق على الإمكانات الجديدة التي يوفرها هذا الإعلام الجديد بدواعٍ شتى إلا أن هذه "الفورة"

الإعلامية الجديدة غيرت صورة العالم، وكسرت حواجز الزمان والمكان، لذا فإن القوى المجتمعية كافة مدعوة للاستفادة من هذه الثورة إلى أقصى الحدود في مجالات التنظيم والاتصال والإعلام والنضال السياسي وغير ذلك من جوانب معترك الحياة.

وفي صورة أخرى؛ فإن الباحثين في التقنيات الجديدة للاتصال والإعلام لم يُسقطوا الأبعاد التي تمخضت عن هذه التقنيات. ففي كتابه (**التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال**[11]) يناقش " فضيل دليو" في جزء يسير من كتابه الهويات الافتراضية لمستخدمي الوسائط الاجتماعية، حيث يبين أن التوقعات تشير إلى أن عدد سكان العالم سيبلغ في عام 2026 حوالي 8 مليارات نسمة من بينهم ثلاثة مليارات سيكونون من مستعملي شبكة الانترنت . وبما أنه يمكن لكل واحد منهم أن يستعمل عدة "هويات الكترونية" (تمويهاً ووقاية، عن حسن أو سوء نية ، عن قصد أو نسياناً)، فمن المؤكد(وفق دليو) أن تتواجد عبر الشبكة مليارات من الشخصيات الوهمية أو الهويات الافتراضية . مما قد يطرح عدة مشاكل في تسيير هذه التعددية التعريفية عبر الشبكة ويؤدي إلى سن قوانين تسمح بتتبع الهويات " الميتة " (المتخلى عنها) ، أي وضع سجل مدني للشخصيات الافتراضية بغية رصد ولادتها ووفاتها.

تعدد الهويات الافتراضية للأفراد سيسمح لهم - كما يرى المؤلف - بتوفير حكاية حياتهم الخاصة عند الحاجة مع استمرار تواصلهم الالكتروني، مبيناً أن عالماً من هذا النوع ، يقطنه أناس متعددو الهويات ينم عن مخاطر عديدة، فقد تختلط على الفرد كثرة هوياته الافتراضية إلى حدٍ لا يتحكم فيها ، إلى جانب إمكانية أن تشجع هذه التعددية الافتراضية على التحايل على القانون، وبالتالي زيادة نسبة الانحراف والجريمة.

ثانياً: الدراسات

ربما تكون دراسة (**السياحة العشوائية عبر الانترنت : دراسة في تفاعل الشباب الفلسطيني على الحيز العام الافتراضي**[12]) الوحيدة التي تطرقت إلى علاقة التقنيات الجديدة للإعلام بواقع الشباب الفلسطيني وطبيعة استخدامات هذه الشريحة لتلك الوسائط، خاصة المتعلقة بالفيسبوك. ومما جاء في نتائج الدراسة أن الشباب الفلسطيني استخدم الحيز العام الافتراضي لتعويض حاجاته ومكبوتاته الاجتماعية والسياسية معتقداً بذلك أنه سيغيرها على أرض الواقع. وتبين الدراسة أن الشباب الفلسطيني ، بمجمله، لم يستفد من الحيز العام الافتراضي للقيام بعمليات مناصرة ذات طابع جدي، أو للتحشيد ضد أو مع قضايا تهمهم . بل تبعثرت جهودهم ، خاصة مع الكم الهائل من التوجهات التي يتيحها الانترنت. ويعود ذلك(وفق الدراسة) إلى عدم وجود إدارة حقيقية تنظمهم وتعبئهم في مسارات افتراضية معينة.

وتؤكد الدراسة أن الشباب الفلسطيني سعى إلى تشكيل هويات فردية خاصة بهم على الحيز العام الافتراضي ، دون تجاوز الهويات الأصلية، وقد عبر عن ذلك برموز استعارها من الفضاءات الثقافية الغربية والعربية المجاورة،والغريبة عن البيئة الفلسطينية. وتذكر الدراسة أن استخدام تقنيات الإعلام الجديد في النهوض بطموحات الشباب الفلسطيني ، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار الشرط السياسي متمثلاً بالاحتلال الإسرائيلي، ولا

بد أيضاً من تشكيل مرجعيات واقعية، متمثلة بمؤسسات المجتمع المدني، التي يمكنها أن تقود عملية التوفيق بين ممكنات الجدل بين الحيز بشقيه الافتراضي والواقعي.

كذلك؛ هناك دراسة غير منشورة تناولت دور المرأة ، خاصة الفلسطينية في فضاء الفيسبوك . تؤكد الدراسة المعنونة بـ (**المرأة في الفيسبوك : علاقات سلعية ورقابات غامضة وتفاعل بلا فاعلية** [13]) أنه بغض النظر عن تناقضات المجال الافتراضي وطرق تحليله، فإن العالم الجديد المتمثل في الانترنت وأجياله سيكون مساحات دخول جديدة للنساء، ستحمل إمكانية أن ينتقل معهن واقعهن الأصلي، الذي يعج بالتبعية والفوارق والاختلافات.

وتشير دراسة مشارقة إلى أن الفضاء الالكتروني الجديد كما يتم إنتاجه وكما هو حالياً، هو اقرب إلى كل أنواع علاقات القوة التقليدية، فيه أقوياء مسيطرون وفيه ضعفاء تابعون، رغم كل ما يساق من حديث عن تحرر ووصول وانفتاح علاقات بين الأفراد. وهذا ما ظهر في مساحات التحليل التي أشارت إلى خوف المستخدمين والمستخدمات من رقابات تقليدية، ومن استعارة المستخدمات لصور الممثلات بدل صورهن الحقيقية، إضافة إلى خضوع كافة السلوكات والعلاقات إلى تصنيف مبني على الجنس في المواعدات والمراسلات والألعاب والتسليات التي تعطي هذا الواقع طابعه الأعم والأشمل. كما أن تفوق الجانب العائلي على الاستخدام يشير إلى عودة الطابع التقليدي لادوار النساء الرعائية والامومية.

وتستعرض الدراسة عدداً من الآراء لفتيات ونساء فلسطينيات يستعملن الفيسبوك، حيث تبين الدراسة أن معظمهن يشعرن بأنواع مختلفة من الرقابات أثناء دخولهن واستخدامهن هذه الوسيطة الإعلامية، أهمها :الرقابة الذاتية ،الرقابة الاجتماعية ،الرقابة الأمنية ،الرقابة السياسية ، الرقابة الأخلاقية، إضافة إلى الرقابة الدينية. وتشير الدراسة إلى أن الرقابة الذاتية تمثل الرقابة الأوسع والأخطر، بحيث لا يستطعن المستخدمات أن يتصرفن بحرية كاملة في الكتابة ونشر الصّور وكتابة التعليقات بمعزل عن محيطهن الذي يضع محظورات كثيرة.

يقوم إبراهيم فرغلي في دراسته (**المدونات الفلسطينية : "باب الشمس"** [14]) باستعراض عدد من المدونات الفلسطينية، ويعمل على تحليل مضمونها. ويشير الكاتب إلى أن هذه المدونات أتاحت فرصة لخطابٍ مختلف، وغير نمطي؛ يعطي صورة للحياة اليومية للفلسطيني، تختلف عن وسائل الإعلام التقليدية في أنها تقدم اليومي المعاش، في تفاصيله الدقيقة ، تماما كما فعل فيلم " باب الشمس" للمخرج المصري يسري نصر الله ، والمأخوذ عن الرواية التي تحمل الاسم نفسه للكاتب اللبناني الياس خوري. ويضيف فرغلي :" هذه المدونات، في مجملها، تقدم وجها مختلفا لحياة الفلسطينيين اليومية ، يكتبها أهل فلسطين أنفسهم بلا حسابات شخصية ، ولا أهداف سياسية أو حس بالتعاطف أو الشفقة أو التلون حسب التوجه الحكومي . هذه التجارب، وإن كانت قليلة لا تتاجر بالقضية الفلسطينية، وتقدم أصواتا إنسانية، ترغب أن تعيش يوما حياة طبيعية.

ويتطرق فرغلي إلى مضمون هذه المدونات الفلسطينية، فيرى أن بعضها تمارس دوراً إعلاميا يتراوح بين التوجه للغرب لفضح الممارسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، وهذه غالبا تختار اللغة الانجليزية، وهناك مدونات أخرى تهتم بكشف وقائع الفساد في المشهد الفلسطيني، كما يوجد عدد آخر من المدونات تطالب بحق الفلسطيني في حرية

الرأي والتعبير. وينوه الكاتب إلى أن مدى قدرة المدونين على النقد تتراوح وفقا لمواقفهم. ولذلك يفضل البعض الكتابة باسم مستعار، بينما يكتب آخرون بأسمائهم الحقيقية.

وفي الاتجاه ذاته قد تمثل دراسة (**الشبكات الاجتماعية : رقابة ناعمة**[15]) من أدق الدراسات التي عالجت الشبكات الاجتماعية في مجالها العام، حيث يذكر أبو زيد أن الإعلام الجديد يتولى الآن إعادة تشكيل العقل الإنساني وطرق تفكيره وتوسيع نطاق الاتصال والتواصل والتأثر والتأثير، معتبراً أن ظهور الشبكات الاجتماعية أسهمت في تغيير ملامح الحياة بشكلٍ ملموس في كثير من المجتمعات الإنسانية، وأن العديد من هذه الشبكات ظهر بمبادرات فردية أحيانا كما هو الشأن في شبكة " الفيسبوك التي أصبحت تستقطب أعداداً هائلة من المشاركين الذين يعتمدون عليها في التواصل والتعبير عن أنفسهم وآرائهم ومشاعرهم بشكلٍ صريح وفاضح أحياناً ، وبلغ من انتشارها وفاعليتها أن ظهر عنها كتاب أصبح المادة الأولية لفيلم سينمائي عرض في أميركا مؤخرا فنحن نعيش في عصر الشبكات الاجتماعية بأوسع معاني الكلمة ونخضع لآلياتها وتكنولوجياتها (حسب ما يذهب إليه الكاتب).

ويقول أبو زيد في دراسته أن الشبكات الاجتماعية أصبحت تمثل في بعض أبعادها مشروعات هادفة ودعوة للتغيير الاجتماعي والفعل العام المشترك وتوحيد الجهود والاستفادة من مختلف التخصصات العلمية والتكنولوجية في تحقيق تلك الأهداف ، كما وتعمل بالتالي على حدوث ثورة جديدة في العالم عن طريق استقطابها لتلك الملايين العديدة من البشر الذين لم يكن لهم سوى دور هامشي في الحياة فأصبحوا يناقشون مشكلات المجتمع والإنسان والعالم بأسره ويتبادلون في ذلك مختلف الآراء والخبرات ويؤلفون قوة فعالة من الرأي العام العالمي، قادرة على تغيير النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنفرد بصياغتها النخبة أو الصفوة مع إنكار حق الأغلبية العظمى من البشر العاديين في المشاركة في رسم السياسات التي تؤثر في حياتهم وتحدد مصائرهم ، وربما كان ذلك (وفق الكاتب) يمثل أهم وظيفة يمكن أن تقوم بها تلك الشبكات، فهي وظيفة تعطي الإنسان إحساساً بآدميته ووجوده كإنسان معترف به وله دور ايجابي في الحياة.

ويرى أبو زيد أن الشبكات الاجتماعية تؤلف الآن ما يعرف باسم " الرقابة الناعمة " Soft Censorship" لأنها تقوم بالفعل بهذا الدور المؤثر دون الاصطدام العلني العنيف مع السلطات القمعية أو الفئات الفاسدة في المجتمع، وهو دور رقابي سياسي واجتماعي في المحل الأول كثيراً ما تعجز عن القيام به وسائل الإعلام الأخرى أو التنظيمات السياسية المعارضة. ويخلص الكاتب في دراسته للقول:مهما اختلفت الآراء حول فاعلية وجدوى وأخلاقيات تلك الشبكات وانحراف بعض المشاركين فيها، فإنها تساعد بشكلٍ أو بآخر على القضاء على السلبية واللامبالاة التي يبديها بعض أفراد المجتمع في العالم الثالث بوجهٍ خاص إزاء الأوضاع المتردية التي يعيشون فيها وتتيح لهم كل إمكانات التعبير بصراحةٍ وجرأة عن رأيهم في تلك الأوضاع والمسؤولين عنها وطرق التخلص منها . وهذا (وفق أبو زيد) موقف ايجابي يكشف عن قوة الرقابة الناعمة . وربما كان هذا هو ما يقصده مخترع " الفيسبوك" مارك زوكربرج حين وصف هذه التقنية بأنها" حركة" وليست مجرد أداة للتواصل والتعارف فقط.

في دراستها (**مواقع الشبكات الاجتماعية الالكترونية بين الخصوصية والحرية**[16]) تؤكد رشا عبد الله أن

أهم شيء يتعلق بهذه الشبكات هي أنها تتيح للفرد أن يقول ما يريد واعتبارها مساحة حرة للتعبير، وإن أصل الفكرة هي التعبير الحر بأي لغة أو صياغة، سواء كانت متسقة مع ما يظنه الآخرون أم لا ، وهذا هو ما جذب الشباب لهذه الشبكات في العالم كله. ولهذا؛ فإن الحيز الافتراضي لتلك الشبكات يطلق عليه My Space " مساحتي أنا". وهي فكرة جاذبة للشباب في العالم العربي الذي يصعب فيه على شبابه أن يجدوا أي مساحة حرة للتعبير عن نفسه ليس سياسيا فقط ولكن اجتماعيا وثقافيا وسلوكيا .

وتوضح عبد الله أن مواقع الشبكات الاجتماعية على الانترنت قد تكون امتداداً للمدونات بشكلها الحالي وقد يؤدي التطور إلى أن تكتب الناس مدوناتها على الفيسبوك في شكل ملاحظات Notes وتعليقات بدلاً من المدونة الخارجية، أو كما يحدث الآن عبر وضع البعض رابطاً لمدونته على الفيسبوك ، وهذا التداخل بين هذه الوسائط جميعاً أمر ايجابي . فلنترك للشباب فرصة التعبير عن أنفسهم عبر هذه المواقع ولنشجعهم على التفكير بحرية وخارج الإطار التقليدي(وفق الكاتبة).

وترى الباحثة أن الاستغلال الأمثل لهذه الوسائل الإعلامية هو حرية التعبير دون وضع شروط لها أو قيود محددة عليها ، فهي وسيلة للتعبير عن رأي أصحابها، وهي بهذا بمنزلة وسيلة للتعلم والتعبير ولنشر المعلومات، وللاحتجاج السياسي، كما حدث في إضراب 6 ابريل في مصر، والمتمثل في إنشاء " إسراء عبد الفتاح" مجموعة الكترونية للتضامن مع عمال مدينة المحلة الذين كانوا سيتظاهرون في 6 ابريل 2008 ، ولم تكن هي شخصياً تتوقع أثراً كبيراً من المجموعة ولكن ما حدث أن اشترك أكثر من 70 ألف شخص في هذه المجموعة ، وكان لها أثرٌ كبير إلى حد اعتقال المدونة إسراء لأسبوعين.

يذكر سليمان العسكري في دراسته المعنونة بـ (**الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة: سياق نحو المستقبل**[17]) إنه إذا كانت هناك دائما قوى عظمى تتقاسم تاريخياً الشرق والغرب، منذ الفرس والروم إلى المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، زف إلينا المؤرخون أفولها وذبولها ومواتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، والإمبراطوريات التي سبقته، فان عصرنا هو زمان قوة واحدة جديدة هي قوة وسائط الاتصال، منوهاً إلى أن الحرب التي تستضيفها الأفلاك ليست حربا باردة، بل هي حرب ضروس ساخنة بين كواكب جديدة ومجرات متجددة في سماءٍ ليس كمثلها سماء. سماء متخيلة، وواقع افتراضي، تتحكم في أجزاء الصورة من حولنا. ويطالب بضرورة أن يشارك العرب في هذه الثورة الالكترونية ، وأنه لن يتقدموا نحو المستقبل إلا إذا انفتحوا عليه، ببصيرة جديدة من موقع المشارك الفعال ، وليس موقع المتلقي المهمش.

ويعتقد العسكري أن عالمنا يمر بطفرةٍ هائلة في وسائط الاتصال جعلت عبارة " الكون قرية صغيرة" تبدو عتيقة، بعد أن أصبح العالم شاشة صغيرة. هذه الشاشة الصغيرة التي قد تكون شاشة أجهزة الحواسب أو الهواتف أو التلفزيون أو الألعاب تضم العالم كله على صغرها ، بتقنيته المعقدة، بأفكاره المتعددة، بثقافاته المتنوعة، و"علينا أن ننظر إلى هذه الشاشات ، بإمعان، وألا نكتفي بالفرجة، بل بأن تكون لنا مساحة، وأن تكون لثقافتنا موضع".

ويعتقد الكاتب أن مشاركة الشباب أصبحت أمراً ملحاً لأن لهم اليد الطولى في تطويع هذه التقنيات الجديدة،

سواء في الإنتاج الأدبي، أو الترويج الإعلامي والنضال السياسي. و" أنه ينبغي ألا يقتصر وعينا باليات الوسائط الحديثة على استيعابنا للإمكانات والاستخدامات، بل يجب أن يمتد أيضاً إلى البحث عن كيفية مثلى لاستخدام تلك الوسائط الثورية لتنطلق الثقافة العربية نحو المستقبل تحت سماءٍ أكثر رحابة . لا بد أن نشجع على الاشتغال على تلك الوسائط الحديثة وتعزيز حضورها في نشاطنا البحثي والتعليمي والعلمي والثقافي وألا نندب تخلفاً نعيشه أو نستمرئ خطراً يحيطنا، أو غيابا يلتف بنا . علينا أن ننتقل من مرحلة استهلاك أدوات الغرب إلى مراحل استلهام نهضته".

ترى شيرين أبو النجا في دراستها (**من الهمس إلى العلن : الانترنت مجال ثقافي موازٍ**[18]) أنه بفعل الإعلام الجديد فقد تحول العالم إلى قرية صغيرة ، وأصبح العالم أصغر مما نتخيل. وتوضح أن القرية التقليدية لها سمات محددة ومعروفة : المحلية الشديدة، غياب الخصوصية، أهمية العلاقات الاجتماعية، تشابك المصالح، تناقل الحكايات، إضافة البهارات لحكايات قديمة، بينما القرية التي أصبحنا نعيش فيها جميعاً تتميز عن غيرها من القرى بأن كل أهلها متمردين ورافضين ومشككين وحالمين "بيوتوبيا" من صنعهم الخاص، ويساعدهم على العيش الحرية المطلقة في القول وليس الفعل.

وتضيف:" يتشكل الخطاب في العالم الافتراضي ويبقى الفعل مقيدا في الواقع المادي بكل المعوقات التقليدية التي تخلص منها سكان القرية. في تلك الفجوة بين القول الافتراضي (الذي يتحول بالتراكم إلى خطاب) والفعل المادي تتشكل ثقافة موازية متحالفة بشكل كامل مع العالم الافتراضي، وتتخذ علاقاتها بالواقع المادي عدة أشكال: دعم أو مساندة أو استنكار أو تكذيب أو تأكيد أو تخريب أو تعاون أو تحد أو فضح أو تعالٍ شديد" . وتذكر أبو النجا أن الدعامة الرئيسة التي يقوم عليها المجال الافتراضي تتمثل في الكم الهائل من النصوص المفتوحة عبر وسائط الانترنت الجديدة، وما أحدثته من إمكانية تحويل كل الهمس إلى علن كامل. فكل ما كان يدور في السر والخفاء والغرف المغلقة بعيداً عن أعين الرقابة الأمنية والفنية والمجتمعية والدينية أصبح معلناً بوضوح قد يفضي إلى عنف وتكسير عظام متبادل بين العالم الافتراضي والواقع المادي(وفق الكاتبة).

هذه العلانية(حسب أبو النجا) بدت ضاغطة على المؤسسة الرسمية بكل أشكالها، فالأسرة تحاول أن تراقب وتمنع، والمؤسسة الأمنية تحاول إصدار قانون يحد من هذه الحرية، ومقالات بالصحف تهاجم مواقع بعينها، ومدونين يطالهم الاعتقال. ولا تزال المعركة مستمرة. وتتساءل أبو النجا: ما الخطر الذي يشكله خطاب افتراضي على المؤسسة الرسمية لتفزع كل هذا الفزع؟ إنها لحظة الحرية الكاملة التي تشبه إعصارا يكتسح الأخضر واليابس، إلا أنها أيضا لحظة الحداثة بامتياز.

وتعتقد الباحثة أن العديد من أشكال الصراع في الواقع أعيد إنتاجها الكترونيا وافتراضيا لتنشب حروبا في المجتمعات المتخيلة، والأمثلة كثيرة : الإعلاء من شأن رواية أو التقليل من شأنها ، الإعلاء من شأن عقيدة وإقصاء العقائد الأخرى، بيان يحمل اتهامات مقابل بيان يدعو إلى الإلغاء ، سباب مقابل اتهام ، وفي كل مرة تحتشد الصفوف المتخيلة حول معركة منقولة من المادي إلى الافتراضي . وتتابع قائلة :" إلا أنه وبالرغم من تأخر الحداثة

، أو لنقل تعثرها ، تقدم هذه المجتمعات المتخيلة مجالا ثقافيا موازيا يساهم في خلخلة السيادة المطلقة لمجال بعينه، فيؤثر عليه ويقض مضجعه ويدفع أحيانا إلى تقديم تبريرات أو تفسيرات.

وفي خضم كل ذلك، نجد السيد يسين يؤكد في دراسته (**النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا**[19]) أن الفكرة الجوهرية في الإعلام الجديد أنه على شبكة الانترنت يمكن أن نجد أفكارا ورؤى الغرض منها خدمة الجماهير العريضة وليس خدمة المصالح الطبقية الضيقة للنخب السياسية الحاكمة، سواء كانوا من أهل السلطة أو من رجال الأعمال. هذا التطور(وفق يسين) سيؤدي إلى بزوغ نوع جديد من أنواع الديمقراطية هي ديمقراطية الفضاء ألمعلوماتي Cyber Space حيث سيتم تعليم الناس كيف يستخدمون شبكة الانترنت، وكيف يحصلون على المعلومات ، وكيف يكونون آراءهم المستقلة، بدلا من أن يكونوا ضحايا هيمنة "الميديا" بكل أنواعها كالجرائد والإذاعة والتلفزيون التي تسيطر عليها الحكومة. وهذه الديمقراطية الجديدة ستقوم على أساس تعدد الأصوات الفكرية وعدم هيمنة التفكير الأحادي على عقول الناس.

ويرى يسين أن " ديمقراطية الفضاء المعلوماتي" ـ باعتبارها شكلاً مستحدثاً من أشكال الديمقراطية ـ تطرح على المفكرين والباحثين العديد من الأسئلة، أهمها: من ـ في المستقبل ـ سيسيطر على الإعلام ، وعن قدرة الجمهور على النفاذ إلى شبكة الانترنت، بمعنى من يملك ومن لا يملك جهاز كمبيوتر يتيح له الاطلاع الدائم على الشبكة وبالإضافة إلى ذلك هناك أسئلة خاصة بمسؤولية مؤسسات الإعلام وطرق محاسبتها، وكيفية تمويلها وتنظيمها . ومن ناحية أخرى هناك موضوعات بالغة الأهمية من بينها ما هو نوع الثقافة التي من شأنها أن تنمي الحرية الفردية والديمقراطية وتمنح السعادة للناس، وتساعدهم على تحسين نوعية حياتهم. هذه كلها أسئلة وإن كانت تتعلق بالمستقبل إلا أنه لا بد أن نثيرها منذ الآن(وفق الباحث).

وفي زاوية أخرى من هذه الأدبيات يقوم الباحث صلاح الدين الجورشي في دراسته (**الشباب العربي والانترنت: هروب من " السياسة " أم محاولة لإعادة إنتاجها**[20]) بتتبع طبيعة المحتوى الذي يذهب نحوه الشباب العربي في عالم الانترنت، حيث يشير إلى أن الدراسات الميدانية كشفت بأن النسبة الكبيرة من الشباب العرب يبحرون داخل الانترنت للألعاب الالكترونية والترفيه أو دخول غرف الدردشة والتعرف على الجنس الآخر، في حين أن الإقبال على مواقع الأخبار والثقافة والعلوم والسياسة وغيرها من مجالات المعرفة لا يزال محدودا .

ويعتقد أن الشباب العربي الذي " يبحر" عبر الانترنت، لهم مطالب مختلفة إلى حد التناقض الكلي، فمنهم من يهاجر إلى مواقع الجنس والمتعة، تعبيراً عن حالة كبت تزداد تعقيداً يوماً بعد آخر بسبب ظروف اقتصادية واجتماعية ونفسية. ومنهم من يربط علاقة بأجنبيات، حتى ولو كن عجائز يكن جسراً للوصول إلى ما يعتبرونه " الفردوس الغربي". ومنهم من يعلن تمرده على واقعه المحلي عبر أشكال كثيرة من التعبير، سواء عبر نقد شديد القسوة، أو من خلال خطاب ساخر من عالم فقد لديهم هيبته، وتراجعت مصداقيته، وتهاوت رموزه.

وفي جولة سريعة في عالم المدونات والوسائط الاجتماعية الأخرى العربية نجد(وفق الكاتب) أن الانترنت أصبحت فعلا مجالا حيوياً لدى عشرات الآلاف من هؤلاء الشباب في محاولة منهم لإثبات وجودهم وتبليغ أصواتهم

، وكذلك بديلاً عن العمل السياسي الذي كان يستهوي الأجيال السابقة . ويقول: " لقد تراجعت الحركات الطلابية في العالم العربي، وانقطعت الصلة بين عالم الأفكار من جهة، والحركات الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى. وكان البديل إبحار صامت في شبكة ممتدة الأطراف ، تتميز بعوالمها الافتراضية، لكنها في الآن نفسه كثيرة المطبات، شديدة الإغراء".

ويرى الجورشي رغم عزوف معظم الشباب العربي عن متابعة البرامج السياسية في مختلف وسائل الإعلام . ما يجعلهم في الظاهر وكأنهم كائنات غير سياسية . إلا أنه في ظل تتبع خطاهم واختراق عوالمهم الخاصة ، نجدهم يتعاملون مع الشأن العام بأساليبهم الخاصة، أي أنهم يدخلون للسياسة من أبوابها الخلفية. وينوه إلى أن الانترنت غيرت حياة عشرات الآلاف من الشباب العرب، وقلبت نظرتهم للحياة ولأنفسهم وللعالم رأساً على عقب، وهذا ما أدى بالساسة وأجهزة الأمن في العالم العربي يأخذوها بعين الاعتبار، لكن(والحديث للكاتب) فبدلاً أن تتخذ الأطراف الرسمية هذه التقنيات الجديدة كوسيلة للحوار مع هؤلاء الشباب، والتعرف على ميولهم ومواقفهم من القضايا المطروحة في مجتمعاتهم وغيرها ، والعمل على ترشيدهم تدخل في علاقة جدلية معهم ، تصل أحياناً إلى حد الاشتباك والعنف المنظم والمتواصل.

وفي زاوية أخرى؛ فإن بعض الباحثين تطرقوا إلى علاقة الإعلام الجديد بالرقابة، حيث نشير في هذا الصدد إلى دراسة الباحث عبد الله بن خميس الكندي المعنونة بـ (**وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة** [21]) . يقول الباحث :" ينظر البعض إلى انتشار وسائل الإعلام الجديد أنه يمثل مرحلة فارقة ومهمة تشبه إلى حدٍ كبير اكتشاف الطباعة في القرن الخامس عشر. أما الرقابة بمفهومها التقليدي وإجراءاتها المتراكمة فأصبحت هي الأخرى تواجه أوقاتاً عصيبة مع الوسائط الجديدة، بل أصبحت في بعض الأحيان موضوعاً للتندر والتحدي لدى الأشخاص الذين يملكون المعرفة التقنية التي تمكنهم من اختراق جدران الرقابة والتفوق عليها ، وصولاً إلى معلومات ومواقع قررت بعض الجهات الرقابية حجبها ".

ويضيف: " تواجه وسائل الإعلام الجديدة والجماهير في الوقت الراهن الرقابة وكل أشكالها التقليدية بعدد من الإجراءات والممارسات تتمثل في توفير برامج مجانية لاختراق الرقابة على الشبكة العالمية للمعلومات وتمكين الأفراد العاديين من امتلاكها. كما يذهب الأفراد العاديون ومؤسسات المجتمع المدني والأهلي إلى تأسيس المزيد من المواقع الالكترونية الاجتماعية ونشرها، إلى جانب نشر التقارير المحلية والدولية التي تفضح الرقابة المؤسساتية . يضاف إلى ذلك (وفق الكاتب) تطور قدرات المستخدمين العاديين للانترنت والمحترفين منهم في اختراق الرقابة، وتحقيق البشرية لتطورات تقنية متسارعة تعجز الجهود المؤسساتية أحياناً كثيرة عن مسايرتها".

إلى ذلك؛ يتطلب الأمر التطرق إلى مستقبل الإعلام الجديد، ففي دراسته (**الرقمية ومستقبل الثقافة العربية** [22]) يؤكد محمد أسليم أن الثورة الرقمية، سيما المتعلقة بالإعلام ووسائطه الجديدة تعتبر العمود الفقري والمحرك الأساسي للتحولات الجارية أمام أعيننا اليوم، وأن الثقافة هي الحقل الأكثر استهدافاً وتجلية لتلك التغيرات . ويوضح أن المستقبل سيكون للإعلام الجديد وحقل الاتصال بفروعه المختلفة، مشيراً في الوقت ذاته إلى

أن العرب سيستفيدون من هذه التطورات إذا أحسنوا استغلالها وواكبوا تطورها. ويذكر أسليم أن انتشار ظاهرة الخصخصة، ووضع التكنولوجيات الجديدة، ومنها تكنولوجيا الإعلام والتواصل في متناول الجميع، و" كهربة" مجموع مناطق الدول العربية، ووصلها بالانترنت سيضع الثقافة العربية على إبدال جديد، ومستقبل أفضل.

ثالثاً: المقالات

معظم المقالات المنشورة في الصحافة العربية والفلسطينية التي تتناول التقنيات الجديدة في الإعلام الجديد تركز على " الفيسبوك" ، في دلالة واضحة لأهمية هذه التقنية لدى المستخدمين، وأثرها البالغ في عمليتي الاتصال والتواصل بين الأفراد والجماعات. وبما أن الدراسة ستتبع منهج "**تحليل المضمون**" لأهم تقنية في الإعلام الجديد، وهي " الفيسبوك" فإننا سنركز عليها في هذا الإطار.

يرى خالد ربايعة في مقاله المطول (**هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟** [23]) أن التقنيات الجديدة للانترنت، خلقت فضاءً رحباً تجول به ثوار العرب الشباب لإيصال رسائلهم إلى الجماهير والتفاعل معهم بطريقةٍ تفاعلية دراماتيكية لم يحسب لها أحد أي حساب. ويضيف :" إن قدرة الانترنت على تهديد الأنظمة الاستبدادية في العالم ليست نابعة فقط من قدرتها على نشر معلومات غالباً ما تخضع للرقابة ولكن بمقدرة تلك التقنيات على إيجاد قناة بديلة وفعالة لبث المعلومات التي لا يمكن للنظام أن يسيطر عليها أو أن يكبح جماحها مهما امتلك من جبروت".

ويوضح ربايعة أن المواقع الاجتماعية على الانترنت تمثل عنصراً يقض أركان الأنظمة الدكتاتورية في المنطقة من خلال قدرة تلك التطبيقات على تكوين الرأي العام المناهض لذلك النظام ، منوهاً إلى أن الأنظمة القمعية تستطيع "فلترة" تدفق المعلومات لمواقع إخبارية معينة أو مواقع أحزاب معارضة ولكنها بالتأكيد لا تستطيع فلترة تدفق الملايين من الرسائل عبر "توتير" المتاحة حالياً من خلال أجهزة "الموبايل" المملوكة من قبل كل أفراد الشعوب المقهورة والتي يعرف ابسط الناس كيف يرسلها ويتجاوز بها الرقابة المفروضة من السلطات.

وفي مقابل كل ذلك الاستحسان للانترنت ووسائطه المختلفة، يؤكد ربايعة "أنه يجب أن نكون واقعيين في أن الانترنت ليست الحل السحري أو الأداة السحرية التي كانت الشعوب بانتظارها للخروج على الظلم والخلاص من القهر والولوج إلى عالم الحرية والانعتاق، فالمهم في تحريك الجماهير في الثورات هو الفعل الجماهيري الحقيقي الفاعل في الميدان وليس الكتابة على جدران الفيسبوك، وإن كان ذلك مهماً".

بدوره يقول محمد حربية في مقالة بعنوان الـ (**" فيسبوك ".. دولة الانترنت الديمقراطية**[24]) أن الهدف الأساس من إنشاء هذه التقنية هو التواصل والتشارك مع كل الأشخاص في حياة المستخدم ، بحسب مصممي الموقع ، إلا أنه تحول إلى منبرٍ لطرح ومناقشة جميع الآراء والأفكار ذات الطابع السياسي، وخاصة في عالمنا العربي، فحرية تكوين الأحزاب " المجموعات" مكفولة على ألـ " فيسبوك" ، ولا توجد خطوط حمراء للحوار أو سقف للأحلام . ويوضح حربية أن حجم الحرية المتاح على " فيسبوك" شكل ضغطاً على الحكومات العربية، لدرجة أن بعض الدولة

حجبته تماما، فيما فرضت عليه دول أخرى رقابة صارمة، وصلت إلى التجسس على حسابات المشتركين، كما فعل نظام بن علي، الرئيس التونسي المخلوع.

من جانبه يرى سامي بن غربية في مقالته (**الحراك الالكتروني العربي : مواجهة القمع ومخاطر الاختراق**[25]) أن حركة النشاط الرقمي السياسي القاعدي العربي سدت الفجوة التي تركتها وسائل الإعلام التقليدية ومنظمات المجتمع المدني في معالجتها لقضايا حقوق الإنسان والمواطنة ، ففرضت نفسها كقوة فاعلة من اجل التغيير، تصقل جزءاً لا يستهان به من الرأي العام، وخاصة داخل الأوساط الحضرية الشابة والمتعلمة.

ويبين بن غربية أن النشطاء الالكترونيين تربطهم ديناميكيات تشبيك مزدوج، بعضه على الانترنت وبعضه الآخر على الأرض . فهم يتعاونون في ما بينهم خلال الأحداث الكبرى التي تشهدها المنطقة (كقضية غزة والحرب على لبنان 2006 مثالاً). كما يُنسقون في ما بينهم عمليات الحشد والمناصرة لحملاتهم الالكترونية كحملات المطالبة بإطلاق سراح المدونين المعتقلين. إلى جانب كل هذا ، يرتبط النشاط الرقمي العربي بحركة النشاط الرقمي العالمي من خلال المؤتمرات والورشات التدريبية . إضافة إلى كل ذلك القدرة الذاتية التشبيكية الهائلة التي يتميز بها الانترنت وخاصة مواقع الشبكات الاجتماعية .

بن غربية لا يحبذ تدخل السياسة والمال في الإعلام، فهو يعتقد أن تدخل راسمي السياسة الخارجية الأميركية وكذلك شركات الانترنت العملاقة الأميركية، مثل غوغل وتوتير، في حقل النشاط السياسي الشعبي على الشبكة وميدان حرية التعبير على الانترنت ، مضر بتلك الحرية وبمستقبل النشاط الاجتماعي الرقمي ذاته.

يؤكد الكاتب علي بدوان في مقاله (**الفيسبوك وتقنيات ثورة الإعلام الجديد**[26]) إن ثورة الفيسبوك وشبكات التواصل الاجتماعي، أصبحت في الدول البوليسية ملجأ للتواصل الاجتماعي بوصفه ملاذاً آمناً، يمكّن الناس في تلك الدول من التواصل ومن تبادل الخبرات والتأسيس لأعمال هامة، من خلال التعبير عن آرائهم بحرية. كما أن العديد من حركات المعارضة في أكثر من بلد عربي وغير عربي، ظهرت ونمت بشكل ملحوظ على "الفيسبوك" في مناطق وبلاد تتعرض فيها حقوق الإنسان للقمع والاضطهاد، وفي بلاد يستشري فيها أخطبوط الفساد.

ويضيف:" نحن أمام ظاهرة ستكون لها انعكاساتها على العالم العربي بشكلٍ غير مسبوق، حيث ستحول العالم الافتراضي على الحاسوب، من عالم وهمي لا يأخذ على محمل الجد حركة الناس واحتجاجاتهم، إلى عالم حقيقي له مفاعيله على أرض الواقع، ليصبح الشباب الناشط الكترونياً، قوة مؤثرة وفاعلة في تقرير مصير الأحداث وسيرها. وينوه إلى أن ثورة الإعلام الجديد ستدفع في نهاية المطاف، الأنظمة القمعية، لمراجعة حساباتها وإعادة النظر في الإمكانات الكامنة لدى أجيال الشباب، كما سيدفع الكثير من الأنظمة إلى البحث عن أفضل السبل لمواجهة هذا العامل الهام الآخذ في التبلور، والقابل للتطور بشكل غير مسبوق.

يقول الباحث خالد وليد محمود في مقاله (**شباب الفيسبوك.. طوفان لن يتوقف** [27]) :" من داخل العالم الافتراضي، وعبر الفيسبوك ومختلف أشكال المواقع الاجتماعية التي أحسن الشباب استثمارها، نظم الشباب العربي قدراته، وأطّر صفوفه، وبلور وعيه، ورتّب حاجياته، وقهر الخوف، ثم خرج بخطاب فاجأ الأحزاب التي حين

أهملت تأطير الشباب شاخت، والسياسات التي حين ألغت الشباب من الحسبان فقدت الشرعية".

لكنّ اللافت في هذه المجموعات(وفق الباحث) أمران أساسيان: الأول، تحوّل المواطن إلى صحافيٍّ ميداني ينقل الخبر ربما أسرع من المواقع الإلكترونية المتخصصة في نقل الأخبار، أمّا الأمر الثاني، فهو تنوّع المصادر، إلى حد لا يمكن حصره. تدلّ على ذلك مصطلحات كثيرة تسبق الخبر، منها ما هو متعارف عليه ككلمة "عاجل"، ومنها ما استحدثه المواطنون الصحافيون كعبارات: "متظاهر"، و"عاجل جداً ومؤكّد"، و"يرجى نشره بأسرع وقت"، و"اتصال من ميدان التحرير"، وغيرها من العبارات التي يجهد أعضاء المجموعات ليؤكّدوا بها صدقية خبرهم، حتى لا يُتّهموا باختلاق الأخبار.

رابعاً: التقارير

وبشأن التقارير، يرى الصحافي الإسرائيلي "ساغي بن نون" في مقالته (**غزة "تتنفس" عبر "الانترنت"** [28]) إن الانترنت تسمح للشباب في غزة بقناة بديلة للعالم الخارجي الذي يمنعون من الوصول إليه جسدياً ، في ظل الإغلاق. ويضيف :" إن الثورات التي تنتشر في العالم العربي عمقت الهام الكثير من الفلسطينيين باستخدام الشبكات الاجتماعية والمدونات كأداة لبلورة الآراء وتنظيم الاحتجاج ضد السلطات . ويوضح الكاتب أنه برزت داخل غزة مدونات شجاعة تتجاوز الخوف من حماس وتنتقدها. ويؤكد "بن نون" أن الانترنت هي الوسيلة شبه الوحيدة لسكان قطاع غزة لتحطيم العزلة التي يعيشونها إلى حد أن القطاع هو صاحب الرقم القياسي لمستخدمي الانترنت في العالم العربي وفق "وول ستريت جورنال". إن غزة مثل الشجن، ولكن الانترنت هو النافذة التي تتجه إلى الخارج وتسمح لنا بالتنفس(وفق الكاتب).

في مقالتها (**الفيسبوك ومطامحنا** [29]) تقول الكاتبة نجاة البكري :" أن فضاء الفيسبوك الافتراضي "كسح" معظم الفضاءات الحقيقية ، ليتحول إلى فضاءٍ حقيقي وأساسي، بات يسيِّر بعض مستخدميه ، برغبة المنقادين الذين استسلموا لإغراءاته، فارتموا في أحضانه هروباً وطموحاً ، هروباً من واقع لو تابعوه لأصلحوا من أمره، وطموحاً في تحقيق أحلام ظنوا أنها في متناولهم عبر هذه النافذة السحرية . وتضيف :" بحكم أن الإنسان يموج في معظم الأحيان بين ما يمكنه تحقيقه وبين أحلامه ، فقد اتخذ هذا الفضاء ملاذاً، إن أجاد استخدامه فهو المستفيد ، وإن أساء ذلك تحول إلى عنصر دمار مجتمعي، لا يختلف عن أي آفة أخرى كالخمور والمخدرات، لا يمكن إلا أن تدمر".

يقول الكاتب أنس أبو رحمة في مقالته (**الفيسبوكيون الصغار**[30]) :" سيمرض أبناء بلدنا بالفيسبوك، سيصيرون كائنات فيسبوكية، سيتركون الحارة إلى نوافذهم الالكترونية. ويتساءل: ما الذي يدهشهم ، أولئك الأشقياء ، في هذا الاختراع الما بعد الكتروني؟ ، " لن أدري، ربما العلاقات الهلامية التي يعيشونها مع الآخرين، أو الصراخ بما في الرأس إلى الهواء، أو الهواء نفسه". ويتابع أبو رحمه:" سأراهن أن للخوف يدٌ في توجههم هذا: الخوف من الوحدة، ومن خسارة التجريب، ومن الزمن، ومن الصمت".

وفي تقرير (**"فيروس الانقسام" يتسلل نحو مجموعات الفيسبوك الشبابية**[31])، نقرأ:" في حين توقع مراقبون بأن تحدث المجموعات الشبابية عبر فيسبوك، سواء ضد الانقسام أو ضد الاحتلال، صدى واسعاً في الشارع الفلسطيني، إلا أن "فيروس" الانقسام وصل إلى هذه المجموعات، ما أدى إلى تشتتها وإضعاف البعد الوحدوي لها" .

ويوضح التقرير إن جهات وفصائل وأحزاباً فلسطينية دخلت على المجموعات الشبابية، لفرض أجندتها من خلال المجموعات الشبابية". كما أن تباين العناوين في الأهداف لهذه المجموعات شتت قواها، واضعف إرادتها للنزول إلى الشارع، ففي الوقت الذي انطلقت فيه دعوات الفيسبوك الشبابية، تحت شعار "الشعب يريد إنهاء الانقسام" امتلأت صفحات فيسبوك بعناوين شبابية مختلفة، عكست نفسها على الشارع أيضاً مثل: "شباب من اجل القدس"، "تصور شعبي شبابي"، "مؤتمر الشباب الفلسطيني"، "يا الله ننهي الاحتلال"، "الفيتو الأميركي"، "الشعب يريد إنهاء الاحتلال". وغيرها.

وفي السياق نفسه يبين تقرير آخر بعنوان (**تقليد يخلو من الإبداع : حماس وفتح تسارعان لاستخدام الفيسبوك ضد بعضهما** [32]) أن حركتي حماس وفتح سارعتا في استخدام " الفيسبوك" ضد بعضهم البعض أو لمصلحتهم بشكل يثير الدهشة. ويضيف التقرير:" فبعد العجز الفصائلي عن التوصل للمصالحة ،يحاول الطرفان بثّ الانقسام بين الأطفال والأولاد الذين ملّوا من هذا العجز ، وتحت عناوين مختلفة وبرّاقة تحمل اسم " الوطن " والمصلحة الثورية". ومن الأمثلة على ذلك (وفق التقرير) أن موقع حماس " المركز الفلسطيني للإعلام ، وضع خبرا رئيسيا على الصفحة الأولى وبشكل مضخّم تحت عنوان "حالة غليان واسعة يعيشها مواطنو الضفة – "الثورة الفلسطينية" تنطلق على الفيسبوك مطالبة بإسقاط عباس ". أما بالنسبة إلى فتح فيواصل العديد من صحفييها الطلب من وكالة معا عمل تقارير عن رابط الفيسبوك يحمل عنوان "ثورة الكرامة " وانه قد انضم للمجموعة حتى الآن أكثر من 8 ألاف شخص ووصفوها بأنها الثورة التي ستنطلق في غزة لإسقاط حكومة حماس.

ورغم الصراع بين الأحزاب الفلسطينية في ميدان " الفيسبوك " إلا أن الفيسبوكيين " الشباب من الفلسطينيين نجحوا في الخامس عشر من آذار ، وفق تقرير، بعنوان (**شباب الـ " فيسبوك " يقودون الآلاف في مسيرة رام الله**[33]) في تنظيم حملة شعبية للضغط على القيادات السياسية الفلسطينية، وخاصة في حركتي حماس وفتح من اجل إنهاء الانقسام. وذكر التقرير أن " الفيسبوك" يلعب دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية والسياسية في فلسطين، وأنه سيساهم في إنهاء هذا الانقسام في ظل توحيد المجموعات الشبابية في موقعه، والتنسيق المتواصل والجاد بين مستخدميه.

تقييم عام

بعد القيام باستعراض هذه الأدبيات نود تسجيل جملة من الملاحظات بشأنها، مع التأكيد

1. لم نعثر على أيٍ من الأدبيات تتناول - بالتحليل أو بالمسح - وسائط أو شبكات التواصل الاجتماعي، حيث

أن معظم هذه الأدبيات تركز على الانترنت بتاريخه وتطوراته وتقنياته ومستجداته، وفي مقدمتها الصحافة الالكترونية.

2. لم نجد دراسة مستقلة أو متكاملة تتطرق إلى واقع الإعلام الجديد ووسائطه الاجتماعية في أي بلدٍ عربي.
3. لا يوجد دراسة تتناول علاقة وسائط أو شبكات الإعلام الجديد بحرية الرأي والتعبير في فلسطين أو غيرها من الدول العربية.
4. عدد من الأدبيات تغرق في عموميات الحديث عن ايجابيات الإعلام الجديد، دون الخوض المطلوب لتبيان السلبيات أو المحاذير لاستخدامات ومضاعفات تقنيات ووسائط هذا الإعلام.
5. كثير من المقالات والتقارير التي تتناول الشبكات الاجتماعية على الانترنت، سيما " الفيسبوك" تأخذ منحى سياسي وأيديولوجي ودعائي أكثر مما تحمل بعداً علمياً متوازناً.
6. لم نعثر على أية دراسة تحلل مضامين محتوى ما يُنشر عبر الشبكات الاجتماعية المختلفة ، باستثناء عدد محدود جداً، وبتناول بسيط.
7. تفتقر معظم الأدبيات التي تتناول الإعلام الجديد إلى وضع " رؤية " أو إستراتيجية واضحة ومحددة لكيفية التعامل مع واقع ومستجدات وأبعاد تقنيات ووسائط هذا الإعلام.
8. علاقة المرأة بوسائط الإعلام الجديد ومدى دورها في توظيف هذه الوسائط للتعبير عن رأيها ومواقفها ومطالبها تكاد معدومة.

استناداً إلى هذا المشهد؛ فإن الأمر يتطلب:

أ. إعطاء تقنيات وشبكات الإعلام الجديد اهتماماً بحثياً (وصفي ومسحي) على الصعيدين العربي والفلسطيني.

ب. التركيز على تحليل دور ومضمون وتأثير الوسائط الاجتماعية للإعلام الجديد كلاً على حده، لتعميق الفائدة، وتأكيد التخصصية.

الهوامش

1. آسا بريغز ، وبيتر بورك، التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتنبرغ إلى الانترنت، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2005، ص 393.
2. انتصار عبد الرزاق وصفد الساموك، الإعلام الجديد : تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، 2011، ص 22. 24.
3. عباس مصطفى صادق، الإعلام الجديد: المفاهيم والوسائل والتطبيقات، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان، ط1، 2008، ص51.
4. حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص 163. 167.
5. فارس أبو خليل ، وسائط الإعلام بين الكبت وحرية التعبير،دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص 315. 317.
6. محمد عبد الحميد، المدونات: الإعلام البديل،عالم الكتب، القاهرة،ط1، 2009، ص267. 269.
7. أولجا بيلي، وآخرون، فهم العلام البديل، ترجمة علا إصلاح، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2009، ص 9. 11.
8. الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، شبكة اجتماعية واحدة ذات رسالة متمردة:الانترنت في العالم العربي، الشبكة العربية، 2009.ص 4 و 121.
9. فيصل أبو عيشة، الإعلام الالكتروني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص 260. 265.
10. حسين عبد الجبار، اتجاهات الإعلام الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص89. 91.
11. فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،دار الثقافة للنشر والتوزيع،عمان، 2010، ص177.
12. الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا ، "السياحة العشوائية عبر الانترنت : دراسة في تفاعل الشباب الفلسطيني على الحيز العام الافتراضي،رام الله،ط1، 2010، ص49. 50.
13. صالح مشارقة ، المرأة في الفيسبوك : علاقات سلعية ورقابات غامضة وتفاعل بلا فاعلية، دراسة غير منشورة قدمت إلى معهد دراسات المرأة. جامعة بيرزيت كمتطلب أكاديمي، 2011، ص 19. 20.
14. إبراهيم فرغلي ،المدونات الفلسطينية : "باب الشمس" ،مجلة العربي، الكويت، عدد 606، 2009، ص ص130. 135.
15. أحمد أبو زيد، الشبكات الاجتماعية: رقابة ناعمة، مجلة العربي، الكويت،عدد 627، 2011، ص ص 32. 36.
16. رشا عبد الله، مواقع الشبكات الاجتماعية الالكترونية بين الخصوصية والحرية، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، وزارة الإعلام، مجلة العربي، الكويت، ج1، 2010، ص ص 162. 168.
17. سليمان العسكري، الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة: سياق نحو المستقبل، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010، ص ص 4. 7.
18. شيرين أبو النجا ، من الهمس إلى العلن : الانترنت مجال ثقافي مواز، منشورة في كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010، ص ص 171. 181.
19. السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء المعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1: 2010 ، ص ص 74. 137.
20. صلاح الدين الجورشي ، الشباب العربي والانترنت: هروب من " السياسة " أم محاولة لإعادة إنتاجها، مجلة شؤون عربية، القاهرة، عدد 132، 2007، ص ص76. 84.
21. عبد الله بن خميس الكندي ، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة ، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1: 2010 ، ص ص 168. 179.
22. محمد أسليم، الرقمية ومستقبل الثقافة العربية، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، ج2: 2010 ، ص ص 128. 140.
23. خالد ربايعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، جريدة القدس ، القدس، عدد 14942، 2011/3/21، ص47.
24. محمد حربية ، الـ" فيسبوك ".. دولة الانترنت الديمقراطية، جريدة الأيام الفلسطينية، مقلاً عن " المصري اليوم" ، عدد 5418، 2011/2/13.
25. سامي بن غربية، الحراك الالكتروني العربي: مواجهة القمع ومخاطر الاختراق، جريدة " وصلة، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، القاهرة، العدد11، يناير 2011
26. علي بدوان ،الفيسبوك وتقنيات ثورة الإعلام الجديد (http://www.albayan.ae/opinions/articles/2011-02-01-1.1096701
27. خالد وليد محمود في مقاله (شباب الفيسبوك.. طوفان لن يتوقف، جريدة فلسطين، غزة، الخميس، 24 /2، 2011.

28. ساغي بن نون،غزة "تتنفس" عبر "الانترنت" ، جريدة الأيام ، نقلا عن " معاريف " ، عدد 5442، 2011/3/9
29. نجاة البكري،الفيسبوك ومطامحنا، ملحق صوت النساء، الصادر عن طاقم شؤون المرأة، عدد327، 27/1/ 2011
30. أنس أبو رحمة ،الفيسبوكيون الصغار، جريدة نوافذ، عدد صفر، رام الله، تشرين الثاني 2010.
31. حسام عز الدين، "فيروس الانقسام" يتسلل نحو مجموعات الفيسبوك الشبابية، جريدة الأيام،2011/2/28.
32. شبكة معا الإخبارية، تقليد يخلو من الإبداع : حماس وفتح تسارعان لاستخدام الفيسبوك ضد بعضهما، انظر:
http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=356703
33. يوسف الشايب، شباب الـ " فيسبوك " يقودون الآلاف في مسيرة رام الله ، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 2011/3/5449.16.

المبحث الثالث

مدخل نظري

في الوقت الذي انتشر فيه التلفزيون في بداية السبعينيات[1] من القرن الماضي في أنحاء مختلفة من العالم، تصدى كثيرٌ من الباحثين في حقلي الاتصال والاجتماع للآثار التي أفرزتها تلك التقنية عبر سيطرة ثقافة الصورة وتغيير معالم الرأسمال الثقافي. هؤلاء الباحثون وضعوا العديد من النظريات وأدوات التحليل المتعلقة بهذه التقنية الإعلامية التي أكدت على سلبية المتلقي عبر ما يُرسله التلفزيون من رسائل مضمرة في الصورة، لا يشارك المشاهد في صياغتها، مما يعني انتفاء العلاقة التواصلية بين المرسل والمرسَل إليه[2].

ومع انطلاق ثورة إعلامية جديدة تمثلت بالانترنت في عقد التسعينيات من القرن نفسه أصبحت تلك النظريات أو أدوات التحليل لا تصلح تماماً لاستكشاف الظواهر الاجتماعية التي أفرزتها الشبكة العنكبوتية . فالنظريات التي عالجت التلفزيون وطبيعة المشاهد كمتلقٍ سقطت في ظل هذه الثورة وما نجم عنها من فضاء أو حيز افتراضي تفاعلي، حيث غدت الذات الاجتماعية قادرة على المشاركة في عملية الإرسال، ليُصبح المستخدم مرسلاً ومستقبلاً في آن واحد.

ومع نشوء الحيز العام الافتراضي (Media Social (بات من الضروري إجراء تعديلات أساسية على نظريات التقنية التلفزيونية، خاصة وأن الإعلام الجديد كسر جاذبية الصورة وأحاديتها، وأعيدت الشراكة من جديد إلى عملية الكتابة بوصفها مصدرا تواصليا . هذا يبرز من خلال مواقع التواصل الافتراضي مثل الـ" **Facebook**" ، و الـ" ***Twitter***"، و" **Blogs**" و" الـ " **YouTube**" ، وغيرها ، التي تستخدم الكتابة، إلى جانب الصورة والفيديو، في عملية التواصل . بل أن اغلب المدخلات التي تشارك فيها الذوات الافتراضية، سواء بالإدراج أو بالتعليق، هي نصوص كتابية[3] .

وعلى الرغم من أهمية الانترنت كتقنية اتصالية إلا أن الباحثين لم يدرسوا أبعادها وخصائصها الثقافية، ولم يطوروا نظرية اجتماعية خاصة بها تساعدهم على فهم المشكلات الاجتماعية التي أوجدتها هذه التقنية الالكترونية، أو عمق التأثيرات النفسية والاجتماعية التي تمخضت عنها ؛ بل اكتفوا بالنظريات الاجتماعية المألوفة في أدبيات الدراسات الاتصالية والاجتماعية على اعتبار أن هذا النوع من الإعلام هو جزء لا يتجزأ من الاتصال الجماهيري[4].

فريق من الباحثين تمسك بهذا التوجه ليؤكد وجوب دراسة تأثيرات الانترنت على مستخدميها ضمن دراسة النظريات الخاصة بوسائل الإعلام التقليدية في حين ذهب فريق آخر ليبين أن قبول النظريات السابقة جاء اضطرارياً ومرحلياً ريثما ينجح الباحثون في صياغة نظرية خاصة بالانترنت كوسيلة اتصال من نوعٍ خاص . وبما

أن البحث في هذا المجال لا يزال في طوره الجنيني، وبخاصةٍ في العالم العربي، ويحتاج إلى وقتٍ قد يطول، فإننا سنقوم باستعراض تاريخي لأبرز الباحثين الذين قدموا أطروحات وإسهامات نظرية في مجال تقنيات حقلي الإعلام والاتصال، ومن ضمنها التقنيات الجديدة[5].

وفي هذا الإطار؛ نود الانطلاق من نظرية **الحتمية التكنولوجية**[6] (**Technological Determinism Theory**) التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور وتفكير وسلوك الأفراد، وعلى التطور التاريخي للمجتمعات. يرى صاحبها " مارشال **ماكلوهان**" أن مضمون وسائل الإعلام لا يمكن النظر إليه مستقلا عن تكنولوجيا الوسائل الإعلامية نفسها . فطبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان يشكلها الأفراد والمجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال؛ لذلك يفترض ماكلوهان في نظريته أن تكنولوجيا الاتصال تُكبل حرية الإنسان الذي يُصبح تابعاً لها [7] .

ويرفض " ماكلوهان " قول الذين يرون أن وسائل الإعلام الجديدة ليست في حد ذاتها جيدة أو سيئة، لكن الطريقة التي تُستخدم بها هذه الوسائل هي التي ستحد أو تزيد من فائدتها ، حيث يستطيع الإنسان أن يستخدمها في الخير أو الشر على حدٍ سواء. ويقترح بدلاً من ذلك أهمية الوسيلة لذاتها ـ مجردة من القيم ـ من خلال عبارته الشهيرة : "**الوسيلة هو الرسالة**"[8]. ويوضح "ماكلوهان" ذلك من خلال عدة أمثلة، نذكر، هنا، أحدها، متمثلة بالتلفزيون. فالرسالة الأساسية في التلفزيون يراها هي التلفزيون نفسه، إذ لا يهم أن تعرض هذه التكنولوجيا الحديثة عشرين ساعة يومياً أفلام عنف أو برامج ثقافية راقية، لأن التأثير العميق للتلفزيون هو الطريقة التي يعدل بمقتضاها الناس الأساليب التي يستخدمون بها حواسهم. كما يرى "ماكلوهان" أن مد جهازنا العصبي تكنولوجياً، يغمسنا في حركة تجمع عالمية للمعلومات، وأن الفرد في العالم الحديث سوف يتحول من الانعزال والانسحاب إلى المساهمة الشديدة في التجارب الجماعية بسبب الوسائل الالكترونية التي ستجعلنا مرة أخرى نعود إلى الترابط[9].

وجهة النظر هذه التي يبديها ماكلوهان مهمة وجديرة بالدراسة، ولكن هذه التطورات التي حدثت لا يمكن أن نعزوها فقط إلى تطور تكنولوجيا وسائل الاتصال، المطبوع منها والالكتروني . فمما لا شك فيه أن الاختراعات التكنولوجية الأخرى ـ مثل وسائل المواصلات السريعة، مصادر الطاقة الجديدة، وتطور الوسائل والنظم السياسة والاجتماعية والثقافية ـ كان لها أيضاً دور في التأثير على تطور المجتمعات بمختلف عناصرها بما فيها تكنولوجيات الاتصال نفسها [10] .

ومن الناحية السياسية يرى "ماكلوهان " أن وسائل الإعلام الجديدة تُحول العالم إلى " قرية عالمية"[11] (**Global Village**) تتصل في إطارها جميع أنحاء العالم ببعضها مباشرة . فعالمنا الجديد توقف فيه الزمن واختفت فيه المساحة، لهذا بدأت وسائل الإعلام الالكترونية مرة أخرى إلى إرجاع الناس للوحدة القبلية، وتجعلهم يقتربون مرة أخرى من بعضهم البعض. ويؤكد أن وسائل الاتصال امتدادات للبشر (وهو عنوان لكتاب له نشر عام 1964)، من خلال حواس الإنسان ثم أعصابه، فالكاميرا امتداد لحاسة العين والميكروفون امتداد للأذن (وللفم في الاتجاه الآخر) والحاسوب امتداد للعقل. وأن تأثيرها على الإنسان يرجع إلى كونها تعتبر جزءاً لا يتجزأ منه، يعتمد عليه بالضرورة لأدراك ما يجري حوله وتقدير مدركاته[12].

هذه النظرية التي صاغها " ماكلوهان" لاقت نقداً إلى حد الرفض أحياناً. فبالرغم من أهمية وسائل الاتصال يرى البعض بأن هذه الجبرية أو " الحتمية التكنولوجية" مبالغ فيها. وهي تفسير أحادي، يمكن اعتباره مجرد تعبير " غير علمي" عن الثقافة الغربية المعاصرة وعن الآلية التي عاش " ماكلوهان" في ظلها ... ومن ثم لا يمكن تعميمه من الناحتين التاريخية والجغرافية، بل حتى تصديقه بهذه الدرجة على المجتمع الغربي ومنه الأميركي. هذا بالإضافة إلى كونه يفسر اختلاف النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الرغم من وحدة كل من الطور التاريخي والرقعة الجغرافية ووسيلة الاتصال المسيطرة، إلى جانب أنه يعبر عن تفسير تبسطي لتاريخ وسائل الاتصال الذي هو أكثر تعقيداً وتداخلاً في تطوره أفقياً وعمودياً من أن يُفسر بهذا التبسيط الخطي المنتظم[13].

كذلك؛ فإن هناك من يرى أن تعبير ماكلوهان هو تصور حتمي يتناقض مع تصور الأديان لحقيقة الإنسان والكون والحياة، والذي يعتبر الماديات متغيرات تابعة ." فالتكنولوجيا يجب أن تكون وليدة التغير الاجتماعي الذي يوفر لها أسباب نشأتها، ويجب أن تكون تلبية لمطالب المجتمع الذي تتنوع أهداف أفراده. فالتكنولوجيا تابعة لإرادة الإنسان وليس العكس" [14] .

كما ونجد البعض يذهب بعيداً في موقفه إزاء نظرية ماكلوهان ليؤكد أن " القرية الكونية الصغيرة" التي رحب بها ماكلوهان في بداية الستينيات، لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر؛ فالتطور التكنولوجي المذهل في مجالات الاتصالات، زاد في تصغير هذه القرية وتفتيتها محولاً إياها إلى أشبه ما تكون مجموعة من البنايات العملاقة التي تضم عشرات الشقق السكنية التي يقيم بها أناس كثيرون، لكن كلا منهم يعيش في عزلة واغتراب عن الآخر الذي يسكن معه سواء في تلك البناية أو حتى الشقة نفسها[15] .

وأكثر من ذلك؛ يذهب نبيل علي ليؤكد على مدى سذاجة هذا التصور، واعتباره وهماً آخر من صنع ألعاب اللغة بهدف خدمة عولمة الإعلام والاقتصاد. ويوضح:" مع ظهور كل تكنولوجيا جديدة، تتكرر الوعود في تحقيق التفاؤل، ومغازلة أحلام الضعفاء والفقراء. لقد كان لاستعارة " القرية الكونية " التي ابتدعها ماكلوهان، مفعول السحر. فشاع تداولها حتى بدت هذه " القرية الفاضلة الالكترونية " وكأنها أمرٌ واقع حل بنا بالفعل، أو في طريقه إلى ذلك.. قرية يسودها الوئام، تجمع بين أهلها ألفة الأسرة الواحدة وعلاقاتها الحميمة. ويضيف:" يكفينا أن نبرهن على سذاجة هذا التصور بما يقوله ماكلوهان نفسه عن قريته الكونية :" إنها لن تكون مثالاً للوفاق والمساواة؛ بل على العكس، فان إسقاط حاجزي المكان والزمان سيزيد من التنوع ومظاهر الانقسام والفرقة"[16].

وبهذا؛ فإن نظرية ماكلوهان ـ بغض النظر عن المؤيدين أو الرافضين لها ـ تمثل قاعدة أساسية انطلق منها الباحثين والمنظرين في مجال التقنيات الاتصالية، إلى جانب ما قدمته من إسهامات نوعية في مضمون وسائل الإعلام ومدى ارتباطها بتكنولوجيا الوسائل الإعلامية نفسها، وما لذلك من تأثيرات على مضمون ما تقوله تلك الوسائل.

ومن نظرية الحتمية التكنولوجية لماكلوهان والانتقادات التي وجهت لها نذهب إلى إسهام نظري آخر يتمثل في نظرية المجال العام[17] **Public Sphere** التي وضع أسسها المفكر الألماني "**يورغن هابرماس**"[18] في العام

1962، والتي تُشكل المرجع الأساس لمعظم الباحثين في حقل التقنيات الاتصالية. هؤلاء الباحثون الذين تعرضوا لمفهوم المجال العام تاريخيا حاولوا الإجابة على ثلاثة أسئلة رئيسة بشأنه، وهي: ما هي الأسس النظرية للمجال العام، وكيف تناقش المعلومات فيه، وما هو تأثير المجال العام على المجتمع؟.

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة بإطارها العام، سنتطرق إلى الظروف التي تولدت بفعلها فكرة نظرية هابرماس للمجال العام، ومن ثم سنعرج للتعريف بهذا المفهوم وصولاً إلى مضامينه وتأثيراته، والانتقادات حوله . يدرس هابرماس فترة في القرن الثامن عشر تقلص فيها في أوروبا دور الدين وبرزت طبقة متوسطة سعى أفرادها عبر النقاش العام في أماكن عامة لتأييد أو معارضة مواضيع في الشأن العام . كانت الصالونات الأدبية والمقاهي في انجلترا وفرنسا وألمانيا (حسب هابرماس) هي الأماكن الحديثة التي وفرت الفضاء العام في المجتمع لهذا النوع من الجدل العقلاني الذي لا يقع تحت سيطرة الكنيسة أو الدولة . بالنسبة لهابرماس، شكلت هذه الصالونات والمقاهي " فضاءً عاماً برجوازياً " تُقرأُ فيه القصص والروايات في البداية ثم الصحف والمجلات وتتم مناقشتها مواجهة[19].

ولكي تُؤتي هذه المنتديات أهدافها وثمارها كان عليها الالتزام بمعايير واضحة وفق هابرماس تتمثل في : انفتاح تام للمجتمع؛ نقاش عقلاني لا يتحرج من طرح وتناول أي موضوع من قبل أي مشارك؛ تجاهل وضع المشاركين الاجتماعي والاقتصادي؛ استقلال تام للمشاركين عن أية ضغوط أو إكراهات؛ رفض التراتبية؛ الالتزام بحكم القانون. ينشأ عن هذا الجدل المفتوح بين أنداد حول مواضيع عامة " رأي عام " يوجه سياسات الدولة. في الوضع المثالي ، كما رآه هابرماس، الفضاء العام هو مصدر الرأي العام الذي هو ضروري لشرعية السلطة في أية دولة ديمقراطية ناجحة.

من البداية لم يتوقع هابرماس توفر فضاء عام في كل مجتمع بل حتى في المجتمع الغربي الذي طرأت ظروف أثرت سلبيا عليه . وبالرغم من أن القرنين التاسع عشر والعشرين قد تخلصا إلى حدٍ كبير من الاقصاءات المبنية على الانتماء الديني أو النوع الجنسي (الجندر) أو الموقع الطبقي . مما قد يُقرب من الفضاء العام من صيغته المثالية . فإن هابرماس حدد عوائق سببتها دولة الرفاهية وصناعة الثقافة وتنامي المصالح الخاصة الكبرى . هذه العوامل السلبية شوهت(وفق هابرماس) الفضاء العام الذي لم يعد له وجود فعلي لكن اسمه يستعمل في ما بعد لتبرير قرارات الزعماء[20]. وحتى في مرحلة أبكر لم تغب عن هابرماس بعض المسائل المتعلقة بنظريته فهو اعترف من البداية بأن الانفتاح المفترض والمساواة المفترضة في الفضاء العام البرجوازي نقضتها من الأساس المصلحة الطبقية، وتنبه إلى أن ثقافة الاستهلاك الجماهيري في القرنين اللاحقين ستضر بالغ الضرر بهذا المفهوم.

بعد هذا؛ ننتقل إلى تعريف هابرماس للفضاء العام، حيث يعرفه بأنه " ظاهرة اجتماعية أولية شأنها شأن الفعل، والفاعل والجمعية والجماعة"، ولكنها "ظاهرة تستعصي على المفاهيم التقليدية للنظام الاجتماعي التقليدي" [21]. وبتوضيح أكثر؛ فإن الحيز العام يتوسط بين المجال الخاص" ممثلاً بالمجتمع المدني و " مجال السلطة العامة " متعلقاً بالدولة وطبقتها الحاكمة. ويتم التعبير عن المجال العام في كلا المجالين من خلال آلية الرأي العام الذي

يجعل الدولة بصيرة بحاجات المجتمع. وهو بهذه الصورة يتميز عن الدولة، لأنه مجال لإنتاج الخطابات التي يمكن. من ناحية المبدأ. أن تكون ناقدة للدولة. وهو أيضا (أي المجال العام) يتميز عن الاقتصاد الرسمي، لأنه ليس مجالاً لعلاقات السوق، ولكنه مجال للعلاقات الخطابية والعلاقات بين خطابات مختلفة أيديولوجيا، هو مسرح للجدل والنقاش وليس مجالاً للبيع والشراء.

هذه التفرقة بين أجهزة الدولة، والأسواق الاقتصادية، والتجمعات الديمقراطية أساسية في النظرية الديمقراطية لأن الجماهير تعتبر المجال العام باعتباره مؤسسة تنظيمية ضد سلطة الدولة. ومن هنا؛ فإن دراسة الحيز العام لا بد لها أن تركز على " الديمقراطية التشاركية " وكيف يتحول الرأي العام لكي يصبح فعلاً سياسياً؟[22].

ويفسر غلوفر وكابلان[23] نظرية هابرماس في المجال العام كأنه" محادثة عامة موسعة بين أنداد.. مناقشة مفتوحة لأي شخص يملك رأسمالاً وتعليما كافيين لتمكينه من أن يصبح مشاركاً والمشاركة تأتي بغض النظر عن المنزلة الاجتماعية للمشارك... السجال في هذه المحادثة يأتي من ممارسة عقل المرء... لا يوجد موضوع خارج النقد... وكل النزاعات يمكن تسويتها من خلال الجدال المنطقي".

إلى ذلك؛ فإن فكرة المجال العام عند هابرماس هي فكرة تحفيزية (Motivating) وهو بذلك يؤكد التأثير المستقل للمجال العام في الفعل (Action) وفي الفعل السياسي تحديداً. ويأتي تشكل المجال العام عند هابرماس، كنتيجة لنظريته المسماه " التفاعلية التواصلية" ، والتواصل عنده يفرض أخلاقيات عقلية ينبغي توفيرها في طرفي الحوار والمناقشة، ليصل كلا الطرفين إلى نتيجة من خلال كلامهما؛ وبهذا يمكن أن يتحقق التواصل [24].

ويميز هابرماس في التواصل بين فعلين: الفعل الغائي الاستراتيجي، (أي الفعل الذي ينطلق من معرفة مسبقة بوظيفته ولا يعمل على تجاوز الواقع القائم) والفعل التواصلي، ويعود ذلك إلى ماضي الفلسفة، والى تاريخ علم الاجتماع . ويعتقد هابرماس أن النظريات الفلسفية الأخرى للفعل، تناولت الفعل الاجتماعي من وجهة الفاعل، في حين أن النظرية السوسيولوجية تعتمد على المتحاورين (أي على العلاقات)، إذ تركز على إجماع المعارف التي يشكلها المتحاورين، تجميعا ضروريا وكافيا للتأويلات التي يعطونها للوضعية ، وبهذه الغاية يتقبلون التواصل بواسطة اللغة، أو بالأحرى، بوسيلة لتبادل المعلومات . وهذا يعني أن هابرماس انتقد النظريات القديمة لأنها لم تركز على اللغة في فهم الأفعال، فهي مبنية على المنفعة والغائية. وقد ركز اهتمامه على الفعل التواصلي، لأنه مبني على الحقيقة والأخلاق العقلية، مع ربطه بالعالم المعاش[25].

والحديث عن التفاهم أو التواصل عند هابرماس، ليس في الحقيقة سوى مدخلاً للحديث عن الإجماع الذي هو الغاية القصوى من تصوره الفلسفي العام لمشروع الحداثة. وهو عنده نتاج لمواقف وممارسات تم التفاوض والاتفاق عليها. فالحقيقة بالنسبة له تتويجا لتأمل منعزل كما تذهب إلى ذلك مختلف الفلسفات الميتافيزيقية. وهي لا توجد قبليا، وإنما تنبعث من داخل المحادثات التي تتم بين الأشخاص المتحاورون أنفسهم. أو بعبارة أخرى فان الحقيقة ليست أكثر مما يتفق عليه هؤلاء الأشخاص في ظروف مثالية للتحاور. فالرأي في نظره يجب " أن يتكون من خلال المناقشة التي يفرضها التبادل الرمزي والسياسي داخل مجتمع تتنازعه قوى الصراع وقوى الإجماع " ولان " النظام

السياسي الذي أنتجته الدولة الحديثة في حاجة دوما إلى ولاء الجماهير فهو يبحث بالضرورة عن أساليب متعددة لإضفاء المشروعية على مؤسساته[26].

وبما أن هذه المشروعية يتم تداول عناصرها داخل قنوات المجال العمومي بكل ما يتضمنه من تعبيرات متصارعة، فإن الأهم بالنسبة لهابرماس، هو الاعتراف بالجميع داخل مجال عمومي ذي طبيعة سجالية . وقد ترسخ هذا المجال أكثر فأكثر في المجتمعات الحداثية، بل أصبح عنصراً فاعلا في استدامة مشروع الحداثة ذاته، و أصبح الجمهور بتعدد مصالحه واتجاهاته، وباستعماله العمومي للعقل، هو المصدر الشرعي للقوانين. وبالرغم من كل التناقضات التي تعبر المجتمع الحديث، وبالرغم من تحكم البراجوزية في آليات المجال العمومي فإن الرأي العام في وجوده الواقعي والمتخيل، أصبح يشكل بعداً رئيساً للمشاركة الجماعية في اتخاذ القرارات. والسيطرة التي تمارسها الدولة في تعبيراتها العقلانية واللاعقلانية التي ينتزع بها المجتمع الحديث مشروعيته، أصبحت في تصور هابرماس، خطرا جماعيا ،" يجب التخفيف منه بتكوين إرادة سياسية مرتبطة بمبدأ مناقشة عامة ومتحررة من أي سيطرة أو ضغط،؛ وبالتالي فان تواصلا عموميا ومتحررا من السيطرة هو الذي يشكل قوة أفضل برهان[27].

فالتجربة التواصلية تأتي من العلاقة التفاعلية التي تربط شخصين على الأقل، داخل العالم المعيش، وفي إطار من التوافق اللغوي. ومن ثم فان كل شخص أو فاعل يملك القدرة على الكلام والفعل يمكنه أن يشارك في التواصل ، وان يعلن ادعاءاته للصلاحية، لكن شريطة أن يراعي مقاييس " المعقولية والحقيقة والدقة والصدق"[28] . وتأكيد هابرماس على هذه المقاييس يرجع سببه إلى إلحاحه على قضية التفاهم داخل مجال عمومي حديث لبلورة نوع من " النظرية الإجمالية للحقيقة" من جهة، والى حرصه على نسج علاقات تواصلية غير خاضعة لأي نوع من أنواع الضعف والسيطرة من جهة أخرى. ولذلك؛ فان نظرية التفاعلية التواصلية، بالرغم من تأكيدها على أهمية التفاعل اللغوي، أو بسبب هذا التأكيد، فإنها تؤدي إلى التفكير في شروط إمكان ما هو مجتمعي، وبالتالي إلى التفكير في المجتمع بصفة عامة[29] .

ولا نستطيع- لضيق المجال- أن نفيض أكثر من ذلك في الحديث عن المشكلات النظرية والتطبيقية للمجال العام . ولكن ما يهمنا في الواقع هو التأكيد على فكرة جوهرية مفادها أن ممارسات هذا المجال تختلف بالضرورة وجودا وعدما بحسب طبيعة النظم السياسية المختلفة. وإذا ما أخذنا التصنيف الذي وضعه عالم الاجتماع السياسي " لويس كوزر" في كتابه " علم الاجتماع السياسي " ، وهو تصنيف يضم ثلاثة أنماط رئيسة، وهي النظم الشمولية والنظم السلطوية والنظم الليبرالية يتوضح لنا التالي: النظام الشمولي بحكم طبيعته لا يسمح إطلاقا بوجود " مجال عام" فعال تتم فيه مناقشة توجيهات النظام الأساسية وسياسات الحكومة، وذلك لأنه غالبا يقوم على أساس هيمنة حزب سياسي أوحد. في هذا النظام الشمولي ليس هناك مجتمع مدني مستقل عن السلطة الحاكمة . ولا يمكن أن يعلو صوت على صوت الحزب الحاكم الذي يفرض التفكير الأحادي على المجتمع، مما يؤدي على المدى الطويل إلى العقم الفكري، والانهيار الاجتماعي التدريجي . ومن الأمثلة على ذلك الاتحاد السوفيتي سابقاً.

وبخصوص النظام السياسي الثاني وهو السلطوي، فانه يفرض قبضته الحاكمة على المجتمع، وإن كان يسمح

بحريةٍ نسبية لبعض المؤسسات، وبمجال عام محدود للغاية وتحت الرقابة، تدار فيه المناقشات التي تخص المجتمع في حدود. وربما كان المجتمع المصري في العهد الناصري نموذجاً لهذا النظام السلطوي الذي ما زالت بصماته واضحة بشكل أو بآخر. أما النمط السياسي الأخير، وهو النظام الليبرالي فانه يتمتع لكونه ديمقراطيا بمجالٍ عام حي وفعال، تدور فيه المناقشات ـ نظريا ـ بحرية مطبقة وبغير قيود أو حدود. وربما كان المجتمع الأميركي المعاصر نموذجاً بارزا لهذه النظم السياسية الليبرالية، وإن كانت القراءة النقدية لتحولات هذا المجتمع منذ الخمسينات حتى الآن تكشف عن أن هناك فجوة كبرى بين النظرية والتطبيق[30].

وبشأن الانتقادات التي وجهت إلى هابرماس؛ فإنه تناول الاعتراضات الكثيرة على آرائه في كتابات لاحقة في الوقت الذي ظلت نظريته هي الأساس في محور دراسات ونقاش حتى خارج المجالات الأساسية التي ارتبطت بها. يتحدث البعض عن مصطلح " الفضاء العام" على أنه فضفاض ومطاطي ويتساءلون عن إمكانية استخدامه كمؤطر للدراسات، بدءاً من الاعتراض على طبيعة الفضاء العام الشفهية والافتراض الساذج للفصل بين العام والخاص والإيمان بوجود ذات **Self** أو فرد مستقل يمكنه مقاومة كل ضغوط المجتمع إلى افتراض أن كل الأطراف تمتلك صوتا مماثلا لأنهم كلهم عقلانيون لهم تجارب في الحياة متماثلة، ولديهم الحرية الفردية للقيام بأي نشاط. كذلك اعترض البعض على غياب الديمقراطية في تلك الفترة وعلى صعوبة التصديق بوجود فضاء عام حر تماماً من النفوذ الأيديولوجي. إلى جانب أن طبيعة البنى الاجتماعية ولا اللغة ذاتها تسمح بوجود مثل هذا الفضاء الحر. كذلك لا يمكن إهمال الدور الجذري للقيود التي كانت سائدة على المعرفة والتواصل[31].

علاوة على ذلك؛ يرى آخرون أن المفهوم الهابرماسي يتجاوز تبعات تحليل كبيرة تخص الاختلاف والتعدد في الطبقات والهويات والنوع الاجتماعي ويظهر صورة مرحة عن العام. في حين أن النظريات النقدية التي جاءت بعد هابرماس كشفت عن عيوب وتميز وفوارق كبيرة خلفها المجال العمومي ليس اقلها دخول الفرد في أدب ووسائل إعلام المجتمعات الحديثة إلى مستهلك شديد وليس مشاركاً تفاعليا، حسب النظرة المثالية التي اعتمدها هابرماس.[32] . وبخصوص المرأة؛ فالبعض يؤكد إن "المجال العمومي الهربامسي" سيظل ناقصا لأنه يستبعد طبقات النساء في المجال الخاص، وان رد ومراسلات النساء للمطبوعات الأدبية سيظل خارج المساواة المطروحة لتبادل الآراء في الطبقة البرجوازية المثقفة، وأن السجال أو المحادثة أو التبادل في نظرية هابرماس سيظل له طبقات عليا وأخرى دونية متلقية. كما وأن فكرة الفضاء العام عند هابرماس بالنسبة للنساء ستظل حيادية (Neutral-Gender) بالنسبة لسؤال النوع الاجتماعي وان الفكرة أيضا ستظل مجنوسة لصالح طبقة من الرجال الإصلاحيين دون أي حديث عن مشاركة للمرأة [33].

وفي إطار الحديث عن الحيز العام ، فقد وجه بعض المفكرين العرب نقدا لاستخدام هذا النموذج في المجتمعات العربية، وملخص هذا النقد أن الحيز العام وُجد بالفعل في التاريخ العربي والإسلامي في تشكيلات مثل العشيرة أو الطائفة، التي شُكلت بالفعل، ولا زالت تشكل مقابلا للسلطة، وملجأً حقيقيا لحماية أبنائها، والسماح بأفعال تواصلية بين الأفراد. في مقابل هذا هناك من يرفض هذا التوجه موضحا أن حضور العشيرة / الحمولة أو الطائفة

في المشهد السياسي العربي، ينفي فردية العربي، ويصبح بالتالي جزءاً من جماعة ، لا جزءاً من مجال عام ، والفرد العربي بذلك، يستبدل سلطة العشيرة وأخواتها ، بسلطة الدولة، كما أنه ينفي قيام حيز عام مشترك بين الجماعات المختلفة[34] .

الحديث عن نظرية هابرماس يطول ويتشابك، ولكن ما نود الخروج به في هذا الخصوص هو أن من يطلع على حجم الدراسات الإعلامية الحديثة يكتشف حجم الاعتماد على مناظرة الواقع " بالهربرماسية" حيث نجد نقاشا حاداً يصل إلى أبحاث ترى في فكر هابرماس ريادة فلسفية وتأسيس لفكر مثالي للتحولات الديمقراطية المجتمعية وأبحاث أخرى تنقد هذه المثالية وتنبش عن المنسي والمسكوت عنه فيها. باختصار؛ استطاع هابرماس صياغة " نظرية متحركة ومفتوحة، وهي نظرية يمكن تلخيصها في كلمة واحدة " الديمقراطية" والتي تتأسس على مبدأ الإجماع، والاستدلال، والصدقية، وتساوي الفرص.

ومن المجال أو الفضاء العام المفتوح للجميع دون قيود تراث أو تراتب كما رآه يورغن هابرماس ننتقل إلى مجالٍ لا يولي " العقلانية" نفس الأهمية التي أولاها هابرماس. هذا المجال هو " المجال الصحافي" الذي نظَر له **بيير بورديو**[35] . بدأ المجال الصحافي في التكوين في فترةٍ مقاربة للفترة التي لاحظ فيها هابرماس تشكل الفضاء العام الذي اعتمد على الصحافة كمون أساسي. بالنسبة إلى **بورديو** فإن دور المجتمع والتهيئة في إمكانية النقاش العقلاني يزداد ، ويرى أنه بالرغم من أن الرأي العام يدل على مسلمات تتجذر في التكوين إلا أن هناك طيفاً متنوعاً بين حدين احدهما اورثوذوكسي والطرف القصي الآخر مناقضه وكما أن هابرماس رأى أن الفاعلين في المجتمع هم نخبة فإن **بورديو** وجد أن الطبقات المتوسطة كانت أكثر استعداداً للمشاركة في النقاش السياسي ولديها " رأس المال " الثقافي والاقتصادي الذي يمكنها من القيام بالتغيير[36].

هناك نقاط تشابه بين مفهوم الفضاء العام، ومفهوم المجال عند **بورديو**، علً أبرزها الاهتمام بالصحافة. فالصحافة تشكل احد أهم مكونات الفضاء العام ولدى **بورديو** يشكل المجال الصحافي journalistic field أهم حلقة وصل بين المجالات المختلفة في المجتمع . و" المجال " عند **بورديو** هو تقسيم للفضاء العام وفق اهتمامات معينة : مجال صحافي، مجال سياسي، مجال اقتصادي، مجال ديني، مجال إنتاج ثقافي ... الخ . مثل المجالات الأخرى، فإن المجال الصحافي يعتمد على مجموعة مسلمات ومعتقدات تتجاوز الاختلافات في الموقع والرأي. يتجلى هذا في كون " المنتجات الصحافية "، كما يسميها **بورديو**، متشابهة، وفي رأي له يناقض السائد يقول:" أن التنافس بين الصحافيين أو الصحف يزيد من التجانس إن تم تحت ظروف متقاربة . لذا قد تجد الأخبار نفسها تظهر في صحف متعارضة التوجه لأنها تكتفي بالحد الأدنى من المعايير، إلى جانب تنقل الصحافيين بأشخاصهم أو بكتاباتهم بين صحف مختلفة الانتماءات، بل ومن قنوات تلفزيونية إلى صحف وبالعكس . ويرى **بورديو** أن للمجال الصحافي كأي مجال آخر درجة من الاستقلالية لكنه أكثر من سواه يخضع لسلطة الاقتصاد والسياسة، وفي أحيانٍ كثيرة يتماهى مع - إن لم ينضوي تماما تحت - المجال السياسي.

داخل المجال الصحافي لا وجود للصحافي المجرد ، فتبعاً لتهيئته في الـ "habitus "[37]، وهو مفهوم أساسي

لدى **بورديو** ، تتشكل ميوله ونظرته للعالم . مع ذلك، ورغم فروقات اللون السياسي فإن هذا المجال له " انتشار دائري" : يقرأ الصحافيون لصحافيين آخرين ويستقون الأخبار من مصادر واحدة ومعلوماتهم هي، في حقيقة الأمر، معلومات عن المعلومات. ويستمد الصحافيون قوتهم، مهما ضعفت ومهما ضعف المجال نفسه، من زملائهم.

أما بخصوص التقنية المصورة" التلفزيون" فإنها أخذت مساحة واسعة من تحليل **بورديو**، فيرى أن فن حجب المعلومات في التلفزيون يقوم على الحجب عن طريق العرض، ومن ثم إعادة تشكيل المعلومات، بحيث ينتج معنى لا يقابل الحقيقة على الإطلاق، فالصحفيون- حسب **بورديو** - "يُشبهون نظارات خاصة يرون بواسطتها أشياء معينة، ولا يرون الأشياء الأخرى .. إنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره". ويذكر **بورديو** أن سعي التلفزيون لجذب انتباه المشاهدين نحو أحداث تتميز بأنها تهم كل الناس، وتعزيزا لأهمية هذه الأحداث المنتقاة، يستخدم التلفزيون الآليات الميسرة لعملية فهم المعلومات بأقل جهد ذهني، وعبر قالب التشويق والإثارة، وهذا ما يؤدي بالتلفزيون لأن يمارس عنفا رمزيا على الجمهور، ويصبح أفراده خاضعين بشكلٍ رمزي لتشكيل الوعي وصناعة الأحكام ولو بدرجاتٍ متفاوتة[38].

سلب حرية المتلقي في الاختيار، سببه (وفق **بورديو**) خطاب المرئي ذاته، وقبله خطاب التقنية، واجتماعهما معاً يعني تشكيل ديمقراطية إرشادية تأخذ على عاتقها توجيه الرأي العام، دون تكليف أو استئذان من أحد، والتوجيه ليس في المعلومة فقط ، وإنما أيضا في طريقة التفكير، وهذا ما يسميه **بورديو** بـ " الثورات الرمزية" في التلفزيون[39] .

إلى ذلك؛ لم تقتصر إسهامات **بورديو** النظرية على المجال الصحافي، بل قام، كذلك ، بطرح النظرية المادية **لاقتصاد المتاع الرمزي**" والتي من خلالها يفكك المعنى التاريخي لـ **" العنف الرمزي"** وهيمنة الرجل على البنى الاجتماعية ونشاطات الإنتاج وإعادة الإنتاج البيولوجي والاجتماعي، ويصل إلى تحليل هذا العنف الرمزي وهو في طور" العنف الروحي" غير المرئي والذي ليس له آثارا في الموقع الملموس. وعلى عكس التفكيكيين الفرنسيين يذهب بورديو إلى أن الهيمنة الذكورية هي بنية تاريخية ويعرفها كالتالي:" نتاج عمل لا يتوقف لإعادة الإنتاج التي يساهم فيها أعوان فرادى(منهم الرجال، مع أسلحة مثل العنف الجسدي، أو العنف الرمزي) ومؤسسات وعائلات وكنيسة ومدرسة ودولة. [40]

وما يهمنا أيضا في **بورديو** وتحليله هو استخدام المهيمنين مقولات ووجهات نظر المهيمن عليهم تاريخياً، وهذا يهمنا في تحليل وضع النساء في الحيز الافتراضي لوسائط الإعلام الجديد، حيث تشير كافة المعطيات الأولية أنهن لا يشعرن بأي اغتراب داخل هذا العالم الجديد، وعلى العكس ينتمين إليه بكل قواهن ويدافعن عنه، وهو ما يسميه بورديو (**التبخيس الذاتي أو التحقير الذاتي**) [41] الذي تبديه النساء في أوقات مختلفة إزاء أنفسهن وأجسادهن في مواجهة هيمنة العنف الرمزي.

ويرى **بورديو** أن ما يسميه" اقتصاد المتاع الرمزي" ينشأ من "استعدادات النساء للدخول في النشاطات التقنية الطقوسية" و" مبادلات رمزية" في علاقات الإنتاج وإعادة الإنتاج لرأس المال الرمزي" ما يؤدي إلى وجود سوق مركزي للعلاقات بالمعنى الاقتصادي قد يتمثل في الزواج وتكوين الأسر أو في ساحات العمل والإنتاج اليومي في

المصانع والمعامل والموانئ والشركات والوظائف، وفي هذه الأعمال كلها يتم إعادة إنتاج " الإنتاج البيولوجي" والذي يُبقي المرأة حبيسة الطبيعة الجنسية لجسدها. ويتم استبعادها عن كل الأمكنة العامة وتمنع المرأة من حيازة رأسمال اجتماعي أعلى من الرجل.

ويعتقد **بورديو** أن " **اقتصاد المتاع الرمزي**" يدوم وتتأبد فيه الهيمنة الذكورية على كافة أنماط الإنتاج الاقتصادي والإنتاج الاجتماعي، وفي هذا الاقتصاد تظهر " الاستعدادات الأنثوية" للاندماج في اقتصاد هذا السوق، رغم حالة التبخيس العالية التي تخضع أجسادهن لها في مؤسسات يذكر منها بورديو "النوادي المرفهة لرجال الأعمال، الفنادق، دعارة الشوارع، ومؤسسات أخرى يظهر فيها الشبق الجنسي مبرراً أساسيا لوجود النساء" [42] .

ومن إسهامات **بورديو** النظرية ننطلق للحديث عن جان **بودريار**[43] التي تشكل أطروحاته مساهمة قوية وشديدة الأهمية يستحيل بدونها، فيما نعتقد، فهم التحولات الجذرية الجارية في البنى الانطولوجية والمعرفية والتاريخية للعالم المعاصر. وفي هذا السياق سنتطرق إلى أهم نظريتين **لبودريار**، تتناولان، بصورة أو بأخرى التقنيات الإعلامية، سواء التقليدية كالتلفزة والجديدة كالانترنت. ونبدأ بنظرية " **الواقع الفائق**"[44] التي تؤكد على " نقد الطابع الصنمي للصور" ، وخطورة الصورة المشكلة اعتماداً على العلاقات الإنتاجية بين الدال والمدلول، وسيطرة الصورة التقنية على الواقع التواصلي ، " فلم يعد هناك اتصال بيننا وبين العالم، وحتى مع أنفسنا، كون أنواع الاتصال تحدث عن طريق الصور. وطغيان الوسيط أو الدال على المدلول هو الصنمية بعينها" [45] .

وفي معرض تفصيله لنظرية " الواقع الفائق"؛ يشير جان **بودريار** إلى أنه مع التقنية الجديدة " لم يعد ممكنا الانطلاق من الواقع لصنع اللاواقعي، وصنع الخيالي انطلاقا من معطيات الواقع. بل ستصبح العملية معكوسة : سنخلق أوضاعا مفارقة ونماذج اصطناع، ومن ثم نبذل الجهود لصبغها بألوان الواقع العادي والمعيش، وبإعادة ابتكار الواقع كتخيل، وذلك لأن الواقع قد اختفى من حياتنا. إنها هلوسة بواقع معيش ومألوف، ولكنه واقع بُني مجددا، بتفاصيل مقلقة لغرابتها أحيانا، بني كمحمية حيوانية أو نباتية، ويقدم بدقة شفافة، ولكنه في كل ذلك بلا مضمون، ومنزوع الواقعية مسبقا وفوق واقعي" [46].

ولهذا تطرح الصورة بشكلها التقني الجديد مشكلة تجاهلها للعالم، وبالتالي تجاهلها لذاتها . يقول **بودريار**:" لقد عوض الشك معايير الحقيقة، وتحول إلى المبدأ الأول للخبر، وأصبح جرثوماً يغزو التاريخ والأحداث والصورة. وحتى عندما يتم دحض الشك فإن ذلك يتم داخل المستوى الافتراضي، لان الافتراضي أصبح جزءا من الواقع اللايقيني والمتناقض والمتقلب والهارب بفعل خضوعه لإستراتيجية الوسيط الإعلامي . ولا يعتبر خبرا ما لا يمر عبر هستيريا الافتراضي، أي عبر تحويل الواقع إلى موضوع استهلاكي مباشر للافتراضي. وعندما تتحول التلفزة إلى فضاء استراتيجي وافتراضي للحدث، فإنها تصبح آلة للتصفية، تتم فيها إبادة الموضوع الواقعي، لصالح موضوع افتراضي في قبضة الوسيط الإعلامي[47] ، أي أن الفرد يُصبح جزءاً من نموذج تفاعلي مفترض تفصله عن الواقع مسافة زمنية طويلة.

هذا الحدث، كما يستطرد **بودريار**، يفرض " الإقامة الجبرية أمام الشاشة" ، ليتحول المشاهدون إلى "

رهائن شاشة" ، فيعيشون ثورتهم كـ " سفر داخل إستراتيجية الصور"، أي أنهم يتحولون إلى سائحين داخل قصة افتراضية. يوضح **بودريار** في هذا الخصوص:" كل آلات البشر أصبحت شاشات، ونحن البشر أصبحنا أيضا شاشات، وتفاعل البشر هو تفاعل الشاشات. لا يمكن فهم ما يظهر على الشاشة بعمق، بل ما يظهر على الشاشة يتم اكتشافه لحظيا ، وسرعان ما يتحرك بسرعة ليحل محله اكتشاف آخر ، وما يتبقى هو ومضات فهمية للصور المتتابعة والنصوص المتعاقبة التي لا يمكن أن تؤسس معنى ثابتا . في زمن الحداثة كان هناك انفصال بين الذات والرسالة والوسيلة، ولكن في زمن ما بعد الحداثة فقد انهارت هذه الأقطاب بعضها على بعض[48] .

هكذا تكلم **بودريار** ليصف العلاقة بين البشر والوسائط الاتصالية الجديدة ، وعلى رأسها الانترنت، وهو في ذلك كان يعزف على وتر مارشال ماكلوهان، ولكن على عكس تفاؤل ماكلوهان بأن وسائل الاتصال الجديدة ستدعم التداخل والفهم الكوكبي المتبادل بين البشر بصكه لمصطلح " القرية العالمية" ، فان رؤية بودريار تحمل كثيراً من الشك في إمكانية أن تحل التكنولوجيا مشكلة الإنسان.

السبب في ذلك أن منظري ما بعد الحداثة أمثال **بودريار** اهتموا بمحتوى الوسيلة اهتماما يماثل اهتمامهم بطبيعتها. فقد رأى ماكلوهان أن طبيعة الوسائل الجديدة هي اللص، ومضمونها هي قطعة اللحم التي يحملها اللص ليصرف انتباه كلب الحراسة عما سيفعله بالمنزل، في حين رأى **بودريار** أن اللص يحمل قطعة لحم أخرى لسكان المنزل ليصرفهم عن ذواتهم ومعنى وجودهم. هذه الرؤية الما بعد ـ حداثية تحمل شكا في التكنولوجيا المعاصرة التي أصبحت في مركز اهتمام الإنسان الغربي المعاصر إلى درجة صرفته عن ذاته، وعن الإنسان الذي اهتمت به أفكار الحداثة (التنوير والاشتراكية خاصة) ، وهو وضع في نظر فيلسوف ما بعد حداثي آخر مثل " فاتيمو" ينتهي بالمناخ الثقافي في الغرب إلى " عدمية محققة" يظل فيها التقدم دائريا باختراع حواسيب وكاميرات رقمية وتيلفونات محمولة احدث وأسرع وأقوى، ويجعل الآلة في المركز وليس الإنسان ، الأمر الذي يفقد التقدم معناه لاستحالة وصوله إلى ذروة سرمدية (مملكة السماء المسيحية أو جنة الفقراء الاشتراكية ، أو حتى الإنسان الحر المحمي بسياج حصين من الحقوق المدينة على الطريقة الليبرالية[49]).

وكذلك الحال مع " دوغلاس ترمبول" الذي يرى أن تكنولوجيا الاتصال الجديدة لا تحمل أي معنى رمزي للواقع، بل هي أداة هروب من ثقل الواقع وتعقيده، وصهوة جواد جموح لإضفاء معاني القوة وتعظيم اللذة، وهي تكنولوجيا لا يتواصل فيها إنسان مع غيره، ولكن مع إنسان افتراضي، وهي تساعد على نفي الإنسان أو على الأقل زحزحته من مركز اهتمام الثقافة واستبدال التكنولوجيا به[50].

أما فيما يتعلق بأطروحته " **موت الواقع**" ، فإن **بودريار** يلخصها قائلاً:" إننا نعيش لحظة انقلابية تنقلنا من عصر الواقع إلى عصر موت الواقع بسبب موت أو نهاية أو تحلل المبدأ المؤسس للواقع، مبدأ الصراع والمواجهة والجدلية والتناقض والنفي والقطيعة والمجاوزة والثورة والتقدم. لقد انتهى عصر الواقع، عصر الأقطاب والمواقع والأيديولوجيات التي شكل تجاذبها وتطاحنها خلال فترة معينة (من القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية) المادة الخام والمحرك الذي لا يمت بصلة للواقع وللحدث وللتاريخ . وبعد غياب مبدأ الصراع انهار الواقع

ومعه الأمل في حدوث أي شيء، باستثناء الحدوث الدائم والدائري للنظام العام ، باعتباره سجنا انثروبولوجيا جديدا للنوع البشري"[51].

ويوضح انه لم يعد لا من الممكن ولا من المقبول معرفيا ولا أخلاقيا القول بوجود عالم واقعي وحقيقي ونهائي ومتمايز كلية عن الاستراتيجيات الخيالية وصناعات الزيف والخلط والوهم والتداخل. أن العالم الواقعي انهار لصالح عالم ما فوق واقعي، تتبادل فيه الأصول والأسماء والمعاني الواقعة داخل حركة دائمة ومريعة وغير قابلة للتنبؤ والفهم. إن هذا العالم هو عالمنا، وهذا هو مصير العصر الذي سيحكمنا في العشريات القليلة القادمة[52] .

ويرى **بودريار** إن الإعلام خلف الإخراج الصوري، والتقنية المبهرة، إضافة للتفكيك الاجتماعي الذي لا يُقاوم ، تحول المعنى الاجتماعي إلى نوعٍ من سديم ليس مكرسا لمزيد من الإبداع أبدا. بل على العكس، ستؤدي إلى خلق القصور الشامل. وبذلك لا يعود الإعلام يستجيب للتنشئة الاجتماعية، بل على العكس تماما سيستجيب " للانبجاس الاجتماعي" في الجماهير . وليس هذا الأمر غير التعبير المرئي عينيا لانبجاس المعنى على المستوى المجهري للرمز . وهذا ما يستلزم تحليله انطلاقا من صيغة ماكلوهان : الإعلام هو الرسالة التي ما زلنا بعيدين عن استنفاد خلاصاتها[53] ".

وقبل التوجه لاستعراضٍ، أخير، لعددٍ من طروحات أو آراء بعض الباحثين المعاصرين في وسائط الإعلام الجديد، نود التطرق إلى أحد أهم المفكرين المعاصرين الذين أضافوا إسهامات متميزة في الحقل الإعلامي، سيما ابتداعه للوسائطيّة أو الميديولوجيا، تلك الطريقة من التفكير التي لم تهدف إلى معرفة كنه المادّة الإعلاميّة، بقدر ما تسعى إلى فهم اشتغال أنظمة التفكير والأخبار الكامنة وراء حدث ما.

هذا المفكر هو " **ريجيس دوبريه**"[54] التي تأسست نظريته أو مقاربته الفكرية على مشروع صياغة علم جديد يدرس الوظائف الاجتماعية العليا للدين والسياسة والعقليات، ويحدد علاقتها بوظائف أخرى تتمثل في البنيات التقنية لنقل الخبر. يتوقع **دوبريه** بأن يكون هذا العلم الاجتماعي الجديد (الميديولوجيا) هو العلم المستقبلي للقرن الواحد والعشرين كقرن للوسائط التقنو- ثقافية من مرآة تلفزية Logiciel وإعداد للمعلومات Software وأدوات تقنية Hardware، فإذا كان العصر الكلاسيكي عصر الطقوس والرموز والقواعد، وإذا كان العصر الحديث عصر بناء القاعدة المادية للاقتصاد ، فإن العصر الراهن هو عصر إبداع أسس مادية ترميزية للثقافة . من هنا تكون الميديولوجيا (**علم الوسائط**) في القرن الحادي والعشرين المعادل الرقمي والمعرفي للاقتصاد السياسي في العصر الحديث[55].

ويرى دوبريه أنه بعد تحول العالم من زمن الاتصال البطيء والمكشوف إلى زمن الاتصال السريع والسري، والتخلص من ارتهان الفرد بسعاة بريد تقليديين ونقلة أخبار وبضائع منتحلين، استطاع الاتصال والإعلام الحديثان الدفع بإنسان القرن العشرين إلى الاستقلالية والقدرة على المشاركة في إنتاج الإرسالية الاتصالية، أو على الأقل فحص مصداقيتها وتعيين الصحيح من الخاطئ فيها، موضحا أن هذه النقلة الهامة تكثف في مضامينها الانتقال الكبير من الاقتصاد المادي إلى الاقتصاد اللامادي، وتجعل من الاتصال

شبكة من العلاقات والمعارف وللتقنيات الأولوية على ما سواها .

من هنا يكون قول دوبريه قولاً يتميز بعمق التنبؤ ودقة التقاط التحول الراهن في حقل العلاقات المتشابكة بين التقنية والثقافة، خاصة وأن الميديولوجيا كدراسة للبنيات التحتية الرمزية والتقنية المؤسسة للبنيات الفوقية الثقافية هي علم يأخذ مكان الاقتصاد السياسي، الذي يدرس البنية الفوقية للعمل المجرد المؤسس على قاعدة البنية التحتية للبضاعة[56].

وفي الوقت الذي يشيد فيه البعض بالتلفزة وشاشتها من حيث الإثارة والإشهار فإن **دوبريه** يُعلي من شأن الكتاب من خلال تأكيده على أهمية الطباعة إلى الحد الذي يصف فيه الدولة بأنها " بنت الطباعة" ، لأن الدولة هي مؤسسة وسائطية مبرمجة عبر وسائط وقنوات أيديولوجية، وتعمل هي بدورها على تفتيت الجسد الاجتماعي إلى فئات مع تقديس كل ما هو خاضع للأغلبية والإجماع . إن هذا المديح الموجه للطباعة هو في جوهره مديح يخص الكتاب والإعلاء من شأنه، لأن فهم الكتاب يشكل مدخلا لفهم التلفزيون وتذوق الصورة عموما ، بينما مشاهدة التلفزيون لا تسمح بقراءة الكتاب، فالمكتبة هي أحسن طريقة نحو ثقافة تلفزية حقيقية؛ بينما غيابها يقلص من غنى هذه الثقافة[57].

ويصف دوبريه التغطية المرئية بأنها :" عرض لنتيجة من نتائج تصويرات الواقع وليست عرضاً للخلفية السببية " فمن السذاجة أن نرى في إمبراطورية التلفزيون سبباً في أسباب السياسي، فهو ربما نتيجة من نتائجها ... التلفزيون لا يقول لا للعالم.. يقدم لنا ما نريد أن نشاهده، إذ يفرض علينا قوالبه كما يحدد لنا زوايا الرؤيا.. يتيح التلفزيون نافذة مفتوحة على العالم، لكنه لا يسمح لنا برؤية ما يخرج عن إطارها. حديث دوبريه حول تصويرات الواقع يقودنا إلى الخلفية الفلسفية التي يمكن الاعتماد عليها كقاعدة صلبة لفهم علاقة التلفزيون بواقع ما، عبر الحديث عن سلسة تصويرات الواقع التي يمر بها خطاب المرئي، وكل مرحلة من هذه المرحلة تزيد من شكنا في عدم واقعية المرئي[58] .

إلى ذلك؛ يتطرق **دوبريه** في كتاباته إلى علاقة الإعلام بالأيديولوجيا، حيث يبين أن الوظائف الاتصالية والإخبارية التي يؤديها الإعلام لا تخلو من تجليات وضمنيات أيديولوجية في الوقت نفسه، فالأيديولوجيا تشتغل في الحقل الإعلامي ظاهراً عبر الصورة لتعمم أحكاما وتمثلات وأقنومات خفية تخدم التوجهات الأساسية لأيدولوجيا سياسية محكمة البناء.

وتكمن أيديولوجيا الميديولوجيا في قدرتها على عزل الأفراد ماديا وتعويض تواصلهم المادي الحار والمباشر باتصال لا مادي بارد ومن بعيد . ويوضح أن وسائل الإعلام (التلفزيون بالخصوص) والاتصال (الحاسوب الشخصي + الانترنت) أضحت عوالم تُلقي بالفرد نحو عزلة فريدة ملموسة لا تتناقض مع اتحاد لامادي من أفراد بعيدين وجماعات لغوية وثقافية مغايرة . لعل أخطر ما تحمله الأيديولوجية الاتصالية ـ التواصلية الجديدة هذه هي قدرتها على إخفاء وقائع العنف والاستغلال واللاتكافؤ الاجتماعي خلف العدالة والتقنية والمساواة المعلوماتية والحق في الخبر، إنها عناوين لوقائع ولأوهام في الآن نفسه [59] .

كما ويتطرق **دوبريه** إلى علاقة العولمة مع الإعلام ، حيث يوضح أنه " بقدر ما تتقدّم العولمة في حياتنا المعاصرة، ترتدّ الأفئدة إلى الهويات. والإنسان المعاصر يعيش أكثر وقته في اللامكان (مطار، محطّة، طريق سيارة، نقطة استخلاص، مركز تسوق...). وهذه أماكن بلا تاريخ ولا ذاكرة. ولذلك، لم تقدْ إلى إنسان قياسي معولم، بل على العكس، فلقد انجر عن عمليّات التوحيد في الوسط التقني والاقتصادي تفتت في النسيج السياسيّ والثقافي" [60] .

وقبل أن نتجه إلى الجزء الأخير من هذا المبحث نود، في عجالةٍ، تقييم نظريات التقنية، خاصة الأدبيات التي أنتجها آخر ثلاثة مفكرين تم التطرق إليهم وهم (**بورديو، وبودريار، ودوبريه**). بداية؛ يجب الإشارة إلى أن هذه المساهمات النظرية تتناول المجتمعات الغربية، مع التركيز على المجتمع الأميركي، لكنها لا تدعي سحب نتائجها على بلدان لم تحقق استقلالها بعد، ولم تتمدد فيها الطبقة الوسطى لتضبط الاستقرار. لذلك كان من الواضح حتى في ظل غياب الانترنت، أن وسائل الإعلام المرئية، ومن بينها التلفاز، لا يمكنها إن تحجب سلبيات الواقع العربي والفلسطيني. ولذلك فإن استخدامنا للنظريات الناقدة لسلطة التقنية المرئية في معرض تحليل ظاهرة الحيز العام الافتراضي سيكون حذرا للغاية، لأن نظرية " الواقع الفائق" ، لجان بودريار، مع الإقرار بفائدتها، لا يجوز أن تُؤخذ على إطلاقها، بل لا بد أن تتم تبيئتها بما يناسب الواقع العربي والفلسطيني المعيش[61].

كذلك؛ وأن هذه النظريات المختلفة تميل إلى التمييز بين المعلومات والمعرفة، حيث الأولى تحيل إلى ثقافة التكنولوجيا الرقمية وتقنياتها التي سادت منذ عقد من الزمن، بينما تحيل المعرفة مقارنة بالمعلوماتية، إلى الطور السابق؛ أي بوصفها تجليا أيديولوجيا للواقع. و" هناك ادعاء لدى أصحاب المعلوماتية مفاده أن المعرفة ، بشكلها الحداثي، قد انتهى عصرها، وأننا على أبواب عصر جديد مختلف، محوره الثقافة الرقمية [62] . كذلك؛ وتؤكد هذه الإسهامات الفكرية على أن التقنية " ليست شيئا محايدا عديم الطعم واللون والرائحة. كما أنها ليست مجرد تطبيق عملي لممارسة نظرية هي العلم. إنها منطق، أو وضع، أو موقف فلسفي أو أيديولوجي. ليست آلات وأدوات ووسائل عمل في يد الإنسان، بل هي أدوات ووسائل تكرس منطق السيطرة، وتكشف عصر التقدم التقني، وأيديولوجيا النظام التكنولوجي[63] .

وعلى خلاف بودريار وفاتيمو وترمبول وغيرهم من المتشائمين بالتقنيات الجديدة للاتصال، نجد مجموعة أخرى متفائلة تنظر إلى ثقافة وسائل الإعلام الالكترونية على أنها ثقافة ايجابية ستزيد من ممارسة الديمقراطية وفهم الآخر المختلف ثقافياً. هؤلاء هم كتاب مجلات بحثية وفكرية أمثال: كيفين كيللر، هوارد رينغولد، ونيكولاس نيغربونت، يتحدثون عن " فجر إنساني جديد" تعلي فيه التكنولوجيا من القوة الشخصية والمتعة واللعب، في الوقت الذي تنهار فيه الصفوة الإعلامية القديمة ليحل محلها صفوة جديدة صغيرة السن، بحيث أن عباقرة البرمجة ومخترقو الكمبيوتر (Hackers) سيكونون الذوات الجديدة في ثقافة يوتوبية تكنولوجية[64].

أما "زاديون ساردر" فيرى أنه تم تقديم ثقافة التكنولوجيا الجديدة كثقافة معتمدة على الشباب، وكثقافة تحررية ضد الهيمنة، في الوقت الذي وصف فيه ساردر كاتبين هما كيللر ورينغولد بأنهما على غرار توماس مور، وفرانسيس بيكون، وغيرهم من اليوتوبيين الأوروبيين الذين أسسوا عوالم جديدة حداثية بدأت بتخيلات في القرن

السابع عشر. ولكن "مارك بوستر" نظر إلى هذه التكنولوجيات الجديدة بطريقة أكثر تحليلية ، وليست فلسفية تجريدية كما تقدم، إذ يرى أن هناك إشكاليات لثقافة الانترنت والواقع الافتراضي، تتمثل في[65]

أ. **إشكالية الحقيقة**: لن تكون هناك حقيقة واحدة مع الانترنت وتكنولوجيات الواقع الافتراضي، بل أكثر من حقيقة ، كما أن تقليص هذه التكنولوجيا للزمان والمكان جعل الحقيقة بلا أساس مادي ومعتمدة على الخيال ، فالموجة الجديدة لوسائل الاتصال الالكترونية لها القدرة على نقل صور ومعلومات وأخبار بسرعة فائقة، الأمر الذي لا يجعل للشيء الواحد حقيقة واحدة ، بل تتغير الهويات باستمرار وتصبح الحقيقة متعددة.

وإذا أردنا أن نضرب مثالاً على ذلك، فان المتصفح لموقع على الانترنت في موضوع ما سيجد وصلات لمواقع أخرى تقدم الموضوع برؤى مختلفة عن رؤى الموقع الأصلي، فإذا أراد أن يعلم قارئا ما شيئا عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي مثلا وصادفه في البحث موقع فرنسي، فانه سيقدم " حقيقة" الصراع برؤية مختلفة عن " حقيقة" الصراع في موقع إسرائيلي، وعن " حقيقة " الصراع في موقع فلسطيني لحماس، وعلى ذلك فهناك عشرات المواقع التي تقدم الموضوع الواحد برؤى عديدة مؤسسة لحقائق شتى. هذه الرؤية المتشظية للعالم ربما تكون عاملا مساعدا على الصمت الذي نراه في المجتمع الدولي، حيال الحقوق الفلسطينية التي قررتها منظمة الأمم المتحدة، ففي عصر ما بعد الحداثة تضيع الحقوق بتعدد الحقائق.

ب.**إشكالية الذات في فترة الحداثة**: كانت الذات تعي نفسها بعمليات التنشئة الاجتماعية التي يرعاها المنزل والمدرسة والكنيسة في الغرب، بخطابات كبرى تقدم إجابات عن أسئلة أساسية : لماذا أنا هنا في الدنيا؟،وما هدفي النهائي منها، وما معايير الخطأ والصواب؟ ، ولكن مع سقوط الأفكار الكبرى وعدم احتفاء وسائل الإعلام الجديدة بها ، تم التركيز على خطابات صغرى متعددة تصب في الذات التي لم تعد تدري معنى لوجودها في الغرب، ولهذا فهي توصف بأنها متشظية متعددة الأوجه ومتداخلة السمات طالما كان أهم شيء في الفضاء المعلوماتي والإعلامي الذي يحيط بها هو إشباع الحاجات الاستهلاكية . وقد انضم مفهوم التفاعلية (Interactivity) ليؤثر أيضا في رؤية الذات لنفسها، فالمرء عبر الانترنت يتحاور مع أشخاص في أقصى الأرض لهم ثقافاتهم المختلفة وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المتباينة، وما يجمع بينهم هو حاجتهم إلى اتصال، الأمر الذي يؤسس لمعنى " الوطن الافتراضي" عندما تنعزل الذات عن وطنها الطبيعي بفعل استخدام هذه الوسائل الجديدة.

ج. **إشكالية الحكايات في الفضاء الالكتروني**: يرى بوستر أنه في الفضاء المعلوماتي ما بعد الحداثي يقوم محرري نصوص الانترنت بكتابة رسائلهم بمنطق" الأطباء النفسيين"، إذ أن لكل فرد حقيقته الخاصة، ويجب ألا يشعر بالخجل أو الذنب نتيجة لحاله، ومن هنا ونتيجة تشظي الحكايات تضيع النصوص الأخلاقية الموضوعية (**Objective Moral C0des**) ، ويصبح ما هو صالح وأخلاقي بالنسبة إلى فرد لا يكون كذلك بالنسبة إلى فرد آخر، إذ لا يدعي أحد امتلاك الحقيقة، فوظيفة الثقافة في عصر الرأسمالية المتأخرة هي إرضاء الجميع، فالكل على صواب، والتعايش أفضل من معرفة الحقيقة. ومن هنا ، وكما يقول "فرانسوليوتار" : تصبح شبكة الانترنت هي فضاء الحكايات الصغرى التي تحث على المتعة والاستبصار بالذات والإعلاء من شان الفرد على حساب المجتمع

الذي قهره في مرحلة " الحداثة" التي انتهت بالفشل.

ومن منا لم يخبر ذلك على الانترنت ؟! خاصة الرسائل غير المرغوبة (Junk Mail) ، فاحد المهام الرئيسية لهؤلاء الذين يضعون هذه الحكايات الصغرى هي جمع المعلومات عن الأفراد: تواريخ ميلادهم، وجنسهم، وسنهم، وثقافتهم، حتى يتسنى توجيه رسائل إقناعية تخدم السوق الرأسمالي العابر للقوميات.

وفي إطار هذا السياق نستطيع أن نرصد أكثر من تمثل أو ظهور لقيم ما بعد الحداثة في الانترنت وتكنولوجيا الواقع الافتراضي، وهي

1. ساعدت وسائل الإعلام التكنولوجية الحديثة على " تعددية" الحقيقة التي تعدت العالم الواقعي إلى عالم افتراضي معتمد على الخيال الذي تصنعه هذه الوسائل.
2. أفل عصر الأنساق الكبرى الحداثية التي تضع الإنسان في مركز الاهتمام ومركز الخطاب في الغرب عندما حلت التكنولوجيا محله، وهو ما أثر في رؤية الذات لنفسها على أنها مفككة ومتشظية.
3. يمتلئ الفضاءان المعلوماتي والإعلامي للوسائل الجديدة بمضامين تركز على التفسير الغريزي للحياة، الأمر الذي يعني رفض العقلانية الحداثية، مثل مواقع البورنوغرافيا وجنس الوب، ليمتد ذلك إلى واقع افتراضي جنسي تسعى إليه هذه التكنولوجيات.
4. تعبر تكنولوجيا الواقع الافتراضي التي تعكس الهروب من الحاضر وثقله إلى الماضي أو إلى المستقبل عن شك عميق في إمكانية مساهمة التكنولوجيا في تحسين واقع الإنسان الغربي المعاصر.
5. يمثل فضاء الانترنت فضاءً للديمقراطية يتم فيه نقد النظم القائمة دونما مساهمة كبيرة في تغيير ثوري لها.

وهكذا: يمكن الاستنتاج من الاستعراض التاريخي السابق لنظريات الاتصال عدم التوصل إلى إجابات شافية ونهائية في البت في مسألة التأثير الذي تحدثه وسائل الإعلام التقليدية، على الرغم من بعض الأفكار والافتراضات والمفاهيم الجديدة التي قدمتها بعض المداخل/ النماذج في دراسة هذه المسألة، وهذا يعني أننا سنبقى نعتمد عليها في تفسير تأثيرات الانترنت حتى تبرز نظرية جديدة في هذا الخصوص.

وإلى أن يحين ذلك الوقت فإنه من غير المناسب، أن نفترض أن إحدى النظريات السابقة هي نظرية " صحيحة " برمتها ، أو " كاملة" ، في حين أن نظرية أخرى منها " خاطئة" كلية أو عفى عليها الزمن يجب التخلي عن مسلماتها. فالوقت ما يزال بعيدا، على ما يبدو، قبل أن تبرز نظرية اجتماعية ـ اتصالية حديثة تنال قبول الباحثين الاجتماعيين في ميدان التواصل الاجتماعي، وتحظى بدعمهم جميعاً، وتشفي " غليلهم" في تقديمها إجابات مقنعة وشافية للتساؤل القديم ـ الحديث المتعلق بمسألة تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية على الأفراد ، وبخاصة الانترنت ، باعتباره الوسيلة الاتصالية الأكثر حداثة وتفرداً في مزاياه وخصائصه من بين الوسائل الأخرى .

الهوامش

1 . تميز النصف الثاني من القرن العشرين بالتأسيس التقني والتبشير الأيديولوجي بثورة الإعلام والاتصال، الذي أصبحت تنعت اليوم بـ " القنبلة المعلوماتية" ، فمنذ عقد الأربعينيات حيث نظر " نوربير فينير" لتقنية الاتصال، انتقالا إلى عقد الستينيات حيث تنامت الدعوة المؤكدة على ولوج عصر نهاية الإيديولوجيات مع " لبيت" و" بيل" كما صاغ " ماكلوهان" مشروع القرية الكونية في عقد التسعينيات؛ انتعشت الأطروحات كما تناسلت الخطابات المبينة لمزايا ثورة الاتصال والإعلام. انظر: محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، عالم الفكر، العدد1، المجلد 32، 2003، ص81

2 . تحول التلفزيون من وضعية المنافس للكتاب إلى وضعية " المنتصر" ، إذ أصبح يبتلع القسط الأكبر من الزمن داخل البيت، ليس بالنسبة إلى الأطفال فحسب، بل أيضا إلى المتعلمين وفئات من الأطباء والمهندسين وسواهم. وقد أضحى كل من التلفزيون ، والسينما، والفيديو فضاءات ترفيهية وثقافية بالنسبة إلى الجمهور والنخبة على حدٍ سواء، فهي ملجأ سهل لتزجية الوقت ومتابعة الأحداث وإشباع الخيال ، دون حاجة لجهد فكري يتأسس على ملكات الفهم والتحليل والنقد. انظر: محمد شكري سلام، المصدر السابق، ص 92.

3 . الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا، مصدر سابق، ص30

4 . قد تكون نظرية" نشر التجديدات" إحدى النظريات التي ستساعد في سد شيء من هذه " الثغرة التنظيرية ". ترى هذه النظرية أن الأفراد والمجموعات التي تتبنى التجديدات بشكلٍ مبكر هم أولئك الذين يحظون بمركز اجتماعي واقتصادي أعلى من أولئك الذين يتأخرون في تبني التجديدات. وتوضح أن العوامل الثقافية التي تتواجد بها المجتمعات أو المجموعات لها أيضا تأثير على القرار في تبني التحديثات. فتقنية الانترنت(وفق هذه النظرية) تشكل أساسا قوياً وعنواناً مهماً في عمليتي " التجديد" أو التحديث للمجتمعات. انظر: أسماء غنايم، الفجوة الرقمية : استخدام الانترنت في المجتمع العربي في إسرائيل ، مجلة أكاديمية ألقاسمي، عدد11، باقة الغربية،2007، ص5-6.

5 . على الرغم من إدراك الكثيرين من الباحثين العرب لأهمية الإعلام ودوره التنموي ، إلا أن هناك شبه غياب تنظيري للقضايا التي يطرحها إعلام عصر المعلومات وانعكاساته على تضاريس واقعنا العربي ، فخطابنا الإعلامي الرسمي يسوده الطابع العلمي، ويخلط عادة. ما بين الغايات والسياسات والإجراءات . فعلى المستوى الأكاديمي، فان كثيرا من أهل التخصص تعوزهم العدة النظرية والخلفية الفنية المعلوماتية لتناول قضايا الإعلام الجديد، خاصة فيما يتعلق بالانترنت كوسيط إعلامي. أما أهل الفلسفة والتربية وعلم الاجتماع ، فيندر فيهم من ينظر إلى الإعلام بصفته هما تنظيريا من هموم التنظير الثقافي الحديث. انظر: . نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر سابق، ص 347

6 . لقد ركز " مارشال ماكلوهان" اهتمامه في دراساته على النظام الاتصالي المتبنى من طرف كل مجتمع، لأنه يرى بأن الخصائص الأساسية للوسيلة المسيطرة في هذا النظام تدل على كيفية التفكير ونمطية المعلومات على مستوى المجتمع برمته، وذلك لأن الناس يتكيفون مع الظروف المحيطة بهم عن طريق توازن الحواس الخمس مع بعضها البعض، وأن كل اختراع تكنولوجي جديد يعمل على تغيير التوازن بين هذه الحواس . و يرى بأن التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الاتصال المسيطرة لها دور كبير في تطور المجتمعات. ولهذا يوصف منظوره " بالحتمية التاريخية" ، والذي ترتب عليه أن صنفت مراحل الحضارة الإنسانية على وسائل التكنولوجيا الجديدة . وهو تصور يمكن تلخيصه في ثلاثة أبعاد متتالية هي: على العالم أن يكتشف، وعلى التكنولوجيا أن تطبق، وعلى الإنسان أن يتكيف . انظر:

Pacey,A: The culture of technology, Cambridge Mass, The MIT Press PewInternet& American Life Project, 1994,p25.

7 . محمد أبو عامود، الإعلام والسياسة في عالم جديد، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2008، ص69

8 . يكون الوسيط هو الرسالة عبر استخدامه للدلالات، التي تشكل مخرجاتها مدلولاتها الرمزية . "فالرمز هو نتاج صناعة علاقة بين الدلالات ومدلولاتها على شكل صورة قابلة للانتقال بيسر إلى ذهن المتلقي .. وتصبح هذه الرموز فاعلة حينما تقوم بصناعة علاقة بين الموجود الفعلي والتصور العقلي". انظر: محمد أبو الرب، الجزيرة وقطر: خطابات السياسة وسياسات الخطاب، تقديم وليد الشرفا، أبو غوش للنشر والتوزيع، رام الله،2010، ص17

9 . فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،مصدر سابق،ص62

10 . المصدر نفسه، ص62

11 . يعتبر مارشال ماكلوهان من أكثر المبشرين لـ" الفتوحات" العجيبة لثورة الإعلان والاتصال، ففي كتابه " حرب وسلام في القرية الكونية " الصادر عام 1970 يعتبر العالم الأرضي بامتداد قاراته وأمكنته الجغرافية ، وتباعد شماله عن جنوبه فيزيائيا وميتافيزيقيا سيتحول إلى مجرد " قرية كونية" بفضل تقنيات الاتصال من بريد وتلغراف وتعميم وسائل الإعلام من صحيفة وإذاعة وتلفزيون كوسائل تعمل على تعميم الأخبار والوقائع. غير أن زيغنيو بريجنسكي مستشار جيمي كارتر للأمن القومي أكمل فكرة ماكلوهان واصفا الثورة الثالثة ، بعد الاستقلال عام 1776 ، والتصنيع في السبعينيات من القرن التاسع عشر بالثورة التكنو ترونيكية . أي الدمج بين التقنية والإلكترونيك . فبريجنسكي يفضل وصف " مدينة كونية" وليس " قرية كونية" لأن القرية تتضمن الحميمية ، والمدينة ترتبط بالعزلة والفردانية، لهذا يصح توصيف العالم الاتصالي الجديد بالمدينة لان الحياة المعاصرة تجعل الفرد منعزلا وهو يقرأ الجريدة أو يشاهد التلفاز أو يبحر في العالم الافتراضي على شبكة الانترنت". انظر: محمد شكري سلام، ثورة الاتصال

والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، ص96، وكذلك، انظر: فرنسيس بال،الميديا، ترجمة فؤاد شاهين، دار الكتاب الجديدة المتحدة،بيروت،2005،ص131

12 . صالح أبو أصبع ،الاتصال الجماهيري،مصدر سابق، ص220

13 . فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،مصدر سابق،ص45

14 . علي احمد مدكور، العولمة وحتمياتها التكنولوجية والحصانة الثقافية، ندوة العولمة وأوليات التربية، جامعة الملك يعود، الرياض، 18 ابريل 2004، في: ***uqu.edu.sa/page/ar/145297***

15 . حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي،مصدر سابق، ص210

16 على الرغم من مرور زهاء نصف عقد على تنبأ ماكلوهان بالقرية العالمية التي توفر فيها الوسائل الالكترونية، دفء وحميمية المجتمع القبلي إلا إنها فكرة. وإن كانت جذابة. بعيدة عن الواقع، فقرابة عُشر البشرية فقط يُنتج ويُعالج المعلومات، أي أن تسعة أعشار العالم يستمع للنشاط الالكتروني المكثف لحوالي خمسة عشرة دولة فقط وباللغة الانجليزية أساساً. انظر: فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،مصدر سابق،ص115

17 . هناك عدة توصيفات للحيز العام، منها: الفضاء العام، والمجال العام. والمجال العمومي. ومرد التطرق بتوسع لهربامس والفضاء العمومي، هنا، يرجع إلى تداخل الفضاء الالكتروني الجديد ونمط Social Media مع الحيز العام، وبروز هذا المستجد كأوسع فضاء عمومي تفاعلي، وبالتالي الاستفادة في تحليل ظاهرة وسائط الإعلام الجديد، سيما الفيسبوك.

18 . مفكر وفيلسوف ألماني، ولد عام 1929، اصدر العديد من الأبحاث الفلسفة التي تركت تأثيراً كبيرا في الأوساط الثقافية،الفلسفية خصوصا. من مؤلفاته: الطالب والسياسية ،(بالاشتراك مع آخرين) 1961؛ النظرية والتطبيق 1963؛ التقنية والعلم كـ" إيديولوجيا"/ 1968؛ الخطاب الفلسفي للحداثة،1985؛ بالإضافة إلى عمله الأهم " the structural of public spherr;An lrguiry into a category of Bourgeois socity

انظر: يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـ " إيديولوجيا" ، ترجمة حسن صقر،ط1، منشورات الجمل، ألمانيا، 2003، ص4

19 . نعيمان عثمان، بؤس الصحافة ومجد الصحافيين، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009، ص81

20 . يرى هابرماس أنه في الوضع المحلي تتوجب الخشية من " الفضاء العام" حيث انه يمكن استعماله كأداة للتسلط بدل أن يكون مثال تحرر. . هنا إشارة إلى حديثه بأن النقاش في الفضاء العام يُفضي إلى رأي عام للإجماع، وللإجماع دوما محاذيره. ففي حالة فرنسا مثلا استعملت الدولة الرأي العام للإقصاء، وهذا مبرر كاف للتخوف السابق من الإجماع. انظر: المصدر السابق، ص88

21 . إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، سلسلة كتب عالم المعرفة، 244، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1999، ص350

22 . السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص 129

23 ديفيد غلوفر، وكورا كابلان، الجنوسة، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية،2008، ص 268.

24 . Michael pusey.jurgen Habermas(key Sociologists).Taylor&francis e-Library.2003.p98.

25 محمد الأشهب، الفلسفة والسياسة عند هابرماس: جدل الحداثة والمشروعية والتواصل في فضاء الديمقراطية، منشورات مؤسسة دفاتر سياسية، الرباط،2006،ص16

26 . محمد نور الدين إفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، الرباط، 1998، ص10

27 المصدر السابق، ص101

28 . جان فيري، فلسفة التواصل، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ص75

29 . المصدر نفسه،ص76

30 . قطع المجتمع الأميركي رحلة طويلة من إرهاب " المكارثية" في الخمسينيات من القرن المنصرم إلى إرهاب " المحافظين الجدد" في الوقت الراهن. فظاهرة المكارثية نسبة إلى عضو الكونغرس الأميركي " مكارثي" هي لجنة كانت مهمتها البحث عن المثقفين الأميركيين ذوي الاتجاهات اليسارية، تمهيدا لمحاكمتهم . ولم يفلت من قبضة هذه اللجنة أي مثقف أميركي ممن يمثلون نخبة العلماء والمفكرين والفنانين. وقد مارست اللجنة إرهابا فكريا لا سابقة له، وهي بذلك أعدمت، واقعياً، فكرة المجال العام والتي هي أساسا ساحة مفتوحة للنقاش وللاختلاف في الآراء، وميداناً للنقد الفعال لتوجهات النظام السياسي وسياسات حكوماته. بعد هذه الفترة اتسعت دوائر المجال العام ، حين قام الشباب الأميركي باحتجاجات واسعة النطاق ضد الحرب الأميركية ضد فيتنام، غير أن أحداث أيلول 2001، وما تلا ذلك من هجمات على ما يسمى بـ " الحرب على الإرهاب" اعدم المجال العام الأميركي ليوصف المجتمع الأمريكي بـ" التسامح القمعي" وفق الفيلسوف ماركيوز أو بعبارة عالم السياسة الأميركي " بيتر جورس" بـ " الفاشية الودود" ومعنى ذلك انهيار فكرة المجال العام بتعريفه التقليدي وصعود فضاء المجتمع المعلوماتي الجديد. انظر: السيد يسين، مصدر سابق، ص 132

31 . Richard Fulkerson," Deliberate Conflict: Argument, Political Theory, and Composition Classes," Rhetorit

Society Quarterly, Winter 2005,p,2,

32 ديفيد غلوفر، وكورا كابلان، الجنوسة، مصدر سابق، ص 266

33 المرجع نفسه، ص278

34 . "السياحة العشوائية عبر الانترنت، مصدر سابق، ص18

35 . بيير بورديو : عالم اجتماع فرنسي (1930 ـ 2002) يعتبر من أبرز المراجع العلمية في علم الاجتماع، اهتم بالحديث عن أنماط السيطرة الاجتماعية، له أكثر من 30 مؤلفا أهمها: العنف الرمزي، بؤس العالم، وفي التلفزة. إن العمل الواسع الذي أنتجه بورديو على امتداد العقود الثلاثة الأخيرة قد اثبت نفسه بصفته واحدا من اشد المتون إبداعا وخصوبة في النظرية والبحث المتعلقين بعلم الاجتماع لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. انظر: بيير بورديو وج.د. فاكونت، أسئلة علم الاجتماع: في علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1992،ص7

36 . نعيمان عثمان، بؤس الصحافة ومجد الصحافيين، مصدر سابق، ص112

37 . كلمة "السمت" التي تعني في اللسان العربي " الهيئة، المظهر، حسن الحال،الطريق القويم"، وضعت هنا في مقابل الفظ اللاتيني (Habitus) الذي يدل على " المظهر الخارجي وشكل الهيئة" أو على " اللباس" أو على " الحالة، الطبع، الاستعداد". وعند بورديو يستعمل اللفظ بناءً مفهوميا للدلالة على مجموع الاستعدادات الجسدية والذهنية الدائمة التي تترتب على عملية التنشئة الاجتماعية للفرد والتي تجعل منه فاعلا اجتماعيا (Agent social) في إطار حقل اجتماعي معين . والسمت بهذا المعنى يقابل " الحقل" حيث يعيش ويشتغل بصفته حيزا في العالم الاجتماعي أوسع واعقد من مفهوم " الذات" . وكلمة " السمت" هب التي استعملها العلماء المسلمون في علم الفلك وانتقلت إلى الفرنسية بصورتها الأصلية (Azimut) . انظر: بيير بورديو وج.د. فاكونت، أسئلة علم الاجتماع: في علم الاجتماع الانعكاسي، مصدر سابق، ص9

38 .بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان، دمشق، 2006، ص47

39 المصدر ذاته، ص50

40 . بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سليمان قعراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 72. يرى بورديو أن عالم الإعلام والثقافة أضحى معرضا لخطر حقيقي يتجلى في ضرورة تحصيل الربح الأقصى والفوري، انسجاما مع ما معايير العولمة التي ليست عولمة لثقافة كونية كما تحقق في فترات تاريخية سابقة، بل هي عولمة تجارية تستهدف أوسع جمهور ممكن لاستهلاك منتجات " الكيتش" و" الجينز"، و"الكوكاكولا . انظر: محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، ص84

41 . بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، مصدر سابق، ص150

42 . المرجع نفسه ، ص150

43 . مفكر فرنسي (1929 ـ 2007)، اختص بالحديث عن التداخل الحقيقي والتشبيهي في الصور الإعلامية في التلفزة والانترنت والسينما، واهم مؤلفاته : الفكر الجذري : أطروحة موت الواقع، التشبيهات والمحاكاة، وروح الإرهاب.

44 . المقصود بالواقع الفائق هو الواقع الصوري الذي يتجاوز الحاجة إلى تقديم صور عن الواقع، بحيث أصبحت الصورة التقنية، أكثر واقعية من الواقع. انظر: محمد أبو الرب، الجزيرة وقطر، مصدر سابق، ص21

45 . اشرف منصور، صنمية الصورة : نظرية بودريار في الواقع الفائق، مجلة فصول، عدد 62،القاهرة، 2003، ص228

46 . جان بودريار، المصطنع والاصطناع ، ترجمة جوزيف عبد الله، مراجعة سعود المولى، منظمة الترجمة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص199

47 . جان بودريار، الفكر الجذري: أطروحة موت الواقع، ترجمة منير الحجوجي واحمد القصوار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006،ص45 و46

48 . محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2008، ص101

49 . المصدر نفسه، ص101

50 . المصدر نفسه، ص102

51 . جان بودريار، الفكر الجذري: أطروحة موت الواقع، مصدر سابق، ص 5

52 . المصدر السابق، ص8

53 . جان بودريار، المصطنع والاصطناع ، مصدر سابق، ص151

54 . ريجيس دوبريه : مفكر فرنسي يعتبر مؤسس علم الميديولوجيا " علم الوسائط" ، له العديد من المؤلفات القيمة والهامة في حقل الإعلام خصوصا كتابه " محاضرات في علم الإعلام العام. الميديولوجيا، وكذلك كتابي : حياة الصورة وموتها ، ونقد العقل السياسي. . أحد أكثر الفلاسفة الغربيين إثارة للجدل، المفكر والفيلسوف الفرنسي المعروف ريجيس دوبريه الذي أطلق تياراً فكرياً يعرف بالميديولوجيا. صدر له أكثر من 25 كتابا أثارت معظمها جدلاً واسعاً حين صدور كل منها، وكان آخرها "ساذج في الأرض المقدسة" الذي كتبه بعد عدة أشهر قضاها مع الفلسطينيين والإسرائيليين واللبنانيين. انظر: ريجيس دوبريه ومفارقات العولمة، http://www.discover-syria.com/news/2088، استرجع بتاريخ 2011/4/11

55 . محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، ص 93
56 . ريجيس دوبريه، الميديولوجيا الوسائطية وحقها بالاستقلال ، مجلة الفكر العربي المعاصر
57 . محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، ص 93
58 . ريجيس دوبريه، حياة الصورة وموتها، ترجمة فريد الزاهي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص274
59 . محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، ص106
60 - http://www.hekmah.org/portal/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1 . 07/04/2011
61 . الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا، مصدر سابق، ص30
62 . إسماعيل الناشف، العتبة في فتح الابتسيم، مواطن ـ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، 2010، ص59
63 . الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا، مصدر سابق، ص30
64 . محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، مصدر سابق، ص102
65 .Mark Poster,"postmodern Virtualities," in: Berger,ed,The Postmodern Presence: Readings on Postmodernism in American Culture and Society,pp.254-273.

المبحث الرابع

المنهجية وأدوات التحليل

من أجل الإجابة على تساؤلات الدراسة، والتثبت من صحة فرضياتها، وتوكيداً لتحقيق أهدافها، فإننا سنعتمد منهجية تحليل المضمون لما يمثله هذا المنهج من أهمية في وصف الدراسة قيد البحث وتبيان خصائصها، وتحليل مضامينها، علاوة على استقراء أبعادها ونتائجها.

سنتناول في هذا الإطار مفهوم ومضامين " تحليل المضمون"، وارتباطه بالحقل الإعلامي، ومن ثم الاطلاع على الدوافع من وراء اختيار هذه الأداة البحثية، إلى جانب التطرق إلى الكيفية التي من خلالها يمكن تناول ومعالجة محتوى مواقع التواصل الاجتماعي على الانترنت، لا سيما موقع الفيسبوك.

ارتبطت استخدامات تحليل المضمون (المحتوى) بالدراسات الإعلامية والاتصالية بوصفها أداة وأسلوباً لتُعرف المعلومات والتفسيرات من خلال الأنشطة الاتصالية المختلفة، وكان هذا الارتباط والنشأة قد تولد تبعاً للحاجة الماسة التي فرضتها منهجية علم الإعلام وتعقيداته منذ بواكير القرن العشرين وتحديداً بعد طغيان الصفة الجماهيرية لوسائل الإعلام ، لتشكل الخطاب الجمعي الجماهيري.

ومع تقدم وسائل الإعلام أصبحت الحاجة إلى وجود أداة عملية مقننة أمراً ملحاً؛ لتقديم نظرة فاحصة ودقيقة لمحتواها، ولإعطاء أحكام موضوعية حول قضاياها وطرق معالجتها؛ وهو ما قاد في نهاية الأمر إلى نشأة وتطور ما يعرف بين الإعلاميين بـ " تحليل المضمون" الذي يقوم على فهم الممارسات الاجتماعية على أنها نصوص، ومن ثم محاولة فهمها ضمن السياقات الاجتماعية، وكيفية استخدامها، وإعادة إنتاجها، وفهم دلالاتها الاجتماعية.

تجدر الإشارة إلى أن تحليل المضمون كغيره من المفاهيم البحثية، لم يُحسم بتعريف جامع مانع (محدد بدقة) إلى حد الاتفاق التام في ظل مشكلات حدود تطبيقاته وإجراءاته على المنجز الأدبي، واللغوي، والشكلي بالرغم من التطور والتوسع الذي شهده في استخدام الأساليب والتقنيات على المستوى الدولي.

يشير اصطلاح التحليل (Analysis) بأنه عملية تستهدف إدراك الأشياء والظواهر عن طريق فصل عناصر تلك الأشياء والظواهر بعضها عن بعض، ومعرفة الخصائص التي تمتاز بها هذه العناصر، فضلاً عن معرفة طبيعة العلاقات التي ترتبط بينها. أما اصطلاح المضمون أو المحتوى (Content) في علوم الاتصال فيشير إلى كل ما يقوله الفرد من عبارات أو ما يكتبه أو ما يرمزه، والمعلومات التي تقدم والاستنتاجات التي يخرج بها والأحكام التي يقترحها باعتبارها جميعاً أهدافا اتصالية مع الآخرين.

يعرف "كلوز كربندورف" تحليل المضمون على أنه أحد الأساليب البحثية التي تستخدم في تحليل المواد الإعلامية بهدف التوصل إلى استدلالات واستنتاجات صحيحة "Valid" ومطابقة في حالة إعادة البحث أو التحليلReplicable، حيث يعتبر تحليل المحتوى الوسيلة الأساسية للكشف عن المضمون والشكل، وأشياء تتصل بذكاء المصدر وقدراته وشخصيته ودوافعه واتجاهاته وقيمه[1].

أما "بيرلسون" فيرى في تحليل المضمون أنه أحد الأساليب البحثية التي تستخدم في وصف المحتوى الظاهر أو المضمون الصريح للمادة الإعلامية وصفًا موضوعياً وكمياً[2] . وتم اختيار وحدة الكلمة والموضوع والفكرة كوحدات للعد والقياس؛ لأنها تمكن من الحصول على الأرقام والبيانات، التي توضح طبيعة المعالجة واتجاهاتها، وذلك من خلال تحليل جميع المواد الصحافية المتعلقة بالأزمات[3].

وفي تعريف آخر نجد أن تحليل المحتوى هو : " مجموعة الخطوات المنهجية التي تسعى إلى اكتشاف المعاني الكامنة في المحتوى، والعلاقات الارتباطية لهذه المعاني من خلال البحث الكمي ،الموضوعي، والمنظم للسمات الظاهرة في هذا المحتوى" [4] . وأيضاً تم تعريفه على أنه:" وسيلة من وسائل جمع البيانات، يتم بمنهج وصفي حيث يستخدم كأداة في تحليل محتوى المادة التي تقدمها وسائل الاتصال الجمعي[5] .

وعلى الرغم من أن تلك التعريفات نظرت إلى تحليل المضمون من زوايا مهمة إلا أن إحدى المصادر الرئيسة في بحوث الإعلام قدمت تعريفا أكثر شمولية وإيجازاً من خلال حصرها لمعظم التعريفات الرائدة لهذه الأداة البحثية المهمة، لتصف تحليل المضمون بأنه " طريقة بحثية موضوعية منتظمة وكمية توضح محتوى المادة الإعلامية"[6] .

ولو فصلنا بعض الشيء المفردات الثلاث التي احتواها هذا التعريف لوجدنا أن المقصود بـ " الموضوعية" أن يكون الباحث بعيدا عن الانطباعات الفردية غير الحيادية، بينما يُقصد بـ " المنتظمة" أن يعتمد الباحث على مجموعة من الإجراءات التي تُطبق بنمطٍ واحد، في حين يُعنى بـ " الكمية" اعتماد التحليل على أرقام حسابية، ذات قيم محددة لكل نوع من أنواع المضمون كلما تكرر . في هذا الصدد لا بد من القول: إن أنصار المنهج الكيفي يسقطون هذا الشرط (اعتماد الكمية) بحجة أن الاهتمام بها هو اتجاه ضحل وخالٍ من المعنى ، وهو اتهام يرفضه أنصار المنهج الكمي؛ لإسهامه في تحقيق عنصر الموضوعية المشار إليه آنفاً[7] .

وبهذا؛ يمكن الاستنتاج من خلال حزمة هذه التعريفات أنه تم وضع العديد من التعريفات المتنوعة لتحليل المضمون، فمنها من حرص على إعطاء صورة عامة له، وهناك من حرص على التركيز على مصداقيته كأسلوب دراسة علمي. ومن الباحثين من أضاف إلى ذلك لربط هذا الأسلوب بالرسالة الإعلامية على وجه الخصوص .

إلى ذلك؛ سنقوم، هنا، باستعراض سريع لمدى استخدام منهج تحليل المضمون في الحقل الإعلامي والاتصال عموماً، حيث كانت المحاولات الأولى لاستخدامات هذا المنهج ما قام به الباحثان (ليبمان وتشارلز ميرز) من خلال قيامهم بتحليل مضمون (عينة من المادة الإخبارية) المنشورة في جريدة (نيويورك تايمز) . وقد تصاعد

هذا النمط من الدراسات بعدما ظهرت إمكانية الضبط والسيطرة على عوامل التحليل واستحكاماته وجدواه في الوصول إلى نتائج يمكن التعويل (الاعتماد) عليها ، وكانت مدرسة الصحافة في جامعة كولومبيا، قد اهتمت بتحليل المضمون اهتماماً واسعاً وكبيراً في ثلاثينيات القرن الماضي للعديد من الصحف الأمريكية، بالإضافة إلى بعض الدراسات التحليلية المتخصصة كدراسة (جوليانت وادواردز) حول الأخبار الخارجية في الصحف الصباحية الأميركية[8].

ويستخدم هذا الأسلوب في مجالات أخرى متعددة، لتؤدي دوراً مهماً في عملية البحث العلمي ولتقود للتعرف على الاتجاهات والآراء سواء أكانت رسائل موجهه عبر أجهزة الإعلام أم مجرد رسائل ونصوص اعتيادية، إضافة إلى استخدامها كطريقة للتعرف على ما تؤديه أجهزة الإعلام من وظائف تحقيقاً لأهدافها ، وافتراض ما يمكن أن تفعله في الجمهور من تأثيرات. وأهم المجالات التي يُستخدم فيها أسلوب تحليل المضمون هي[9]:

1. الكشف عن اتجاهات الأفراد والجماعات إزاء موضوعات مختلفة.
2. المقارنة بين وسائل الإعلام الجماهيري من حيث موضوعاتها واتجاهاتها وأهدافها.
3. قياس مدى تطبيق وسائل الاتصال للمعايير والأسس الإعلامية والثقافية والفنية.
4. تشخيص خصائص الأسلوب الأدبي أو الصحفي من خلال تحليل الرسائل المختلفة.
5. التعرف على الوضع النفسي والاجتماعي للأفراد والجماعات في الأوضاع الطارئة والاعتيادية من خلال تحليل الرسائل التي يعبرون بها عن أنفسهم بأي شكل من الأشكال.
6. الحصول على افتراضات حول تأثير وسائل الاتصال على الجمهور.
7. تعرف الدولة على معلومات ونوايا الدول الأخرى وأهدافها وخاصة في حالات الصراع والحروب، إذ يسعى كل طرف إلى تحليل الوثائق والتصريحات والخطب وما تنشره وسائل الإعلام حول الطرف الآخر
8. يمكن استخدامه للتعرف على المعارف والقيم ومديات تحقيق الأهداف والآثار التي تحملها الكتب ، والمناهج ، والأدبيات التربوية والثقافية وغيرها.

ويتسق أسلوب تحليل المضمون اتساقا وثيقاً ومحورياً بالرسالة والمتضمنة النتاج أو الأفكار أو المفاهيم التي يُراد توصيلها إلى الجمهور من خلال التتابع الرمزي والدلالي، وهذه الرموز يمكن أن تكون لفظية (منطوقة أو مكتوبة) أو غير لفظية (إشارات، إيماءات، ألوان، أشكال، موسيقى، رسوم،...الخ) . ويعَد فهم هذا المنجز ـ غالباً ما يكون ماضياً ـ وتكوينه وتحليله وإيجاد العلاقات الرمزية (الظاهرة) كالشدة، والتكرار، والكيفية، ودرجات التأكيد، وتسيَد القيم والاتجاهات والتأييد والرفض.. أساساً في ضمن وظائف تحليل المضمون، للوصول إلى اكتشافات وعلاقات بالإمكان تجزئتها أو تصنيفها ، ومن ثم إيجاد ارتباطها والكشف عنها على أساس (كمي ونوعي)، ذلك أن تحليل الرسالة : لكلماتها، أشكالها، ألوانها، أو أي سياقات أو رموز تعبر عن المضمون الصريح

بها قد يدلنا على مؤشرات متنوعة تساعدنا في سبر أغوار النص أو (الإنتاج الاتصالي بشكل عام).

هذا التصنيف أو التجزئة المنظمة يعمل على تفسير العمل، وبالتالي التنبؤ بمقاصد منشئ الرسالة واتجاهاته وتأثيراته على المتلقي من خلالها ، ذلك أن التحليل الكمي المنظم يتيح لنا قياس مقاصد ومرجعيات المرسل (المرمز) وقدراته، وبؤر التركيز القيمي أو التفضيل الذي انساق معه النص أو المادة الاتصالية قيد التحليل والدراسة. كما وتكشف عن دوافع المرسل وقيمه التي يؤمن بها، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، وهذه تتصل وتتفاعل باتجاهاته السياسية والدينية والاجتماعية وتكويناته المرجعية (بيئة، عقائد، أفكار، تأثيرات أخرى مختلفة [10]).

وقبل أن نقفل هذا الجزء ينبغي توضيح نقطة هامة قد يغفل عنها بعض الباحثين، وهي أن تحليل المضمون ليس منهجاً قائماً بذاته، إنما هو مجرد أسلوب أو أداة استكمالية Complementary)) يستخدمها الباحث ضمن أساليب وأدوات أخرى في إطار منهج متكامل قد يكون المنهج المسحي Survey Method)) إذ يسعى الباحث في استخدامه إلى مسح جمهور القرّاء، والمستمعين أو المشاهدين، أو مسح الرأي العام أو المادة الاتصالية عن طريق تحليل المضمون كمجموعة المقالات والنصوص المسرحية والصور أو الأشكال والتكوينات الفنية (اللوحات،الرسوم، المنحوتات) بغرض الوصول إلى ارتباطات Correlations)) معينة ،أو البحث عن قيم سائدة أو رموز دلالية[11] .

ومنظرو ما بعد الحداثة ـ عزفاً على وتر الدراسات الثقافية ـ يعتبرون كل ما يتم تحليله نصاً (Text)، سواء كان نوعاً أدبياً أو فنياً (Genre) أو أسلوباً (Style)، وهو ما ينسحب على كل شيء حتى الأغاني وطقوس الرقص. وقد تمت استعارة مفهوم " النص" من البحث السيميولوجي أو العلامي، فالنص في رأيهم تجمع عنقودي متشابك من الرموز الدالة وغير الدالة أيضاً، فبعض الرموز كما يقررون ليس لها معنى، وكل ذلك يتم إدراكه عندما يكون هناك سياق للتأويل . ولذلك ليست مصادفة أن يصل باحثان أو أكثر إلى معاني مختلفة من تأويل النص نفسه[12] .

من هنا، وتحديداً من كثافة محتوى الانترنت، والرموز الدالة وغير الدالة التي ليس لها معنى، إلى جانب التأويلات المختلفة إلى حد التباين فقد " قفزت " إشكالية إيجاد السبل والتقييم للمحتوى على الانترنت. هذه الإشكالية أو " التحدي الجديد" هو الذي فرض على المشتغلين في حقلي علم الاجتماع والاتصال البحث عن آليات أو أدوات تساعد في فهم وحل هذه الإشكالية.

ولكي تتضح صورة تحليل المحتوى على الانترنت بشكلٍ أدق وأعمق ارتأينا استعراض النموذج الشبكي الذي انتشر ضمن إطار صعود مجتمع المعلومات العالمي . هذا النموذج يساعد في منهجية التحليل للتشكيلات أو الشبكات الاجتماعية في عصر المعلومات. تناول هذا النموذج سيكون مُعتمِدا بالأساس على القراءة النقدية التي قام بها " فليكس ستادلر" لنظرية " كاستلز" [13]. تقوم الفكرة الأساسية لكاستلز على أساس أنه نشأت صورة جديدة من صور الرأسمالية في نهاية القرن العشرين تتسم بكونها كونية في طابعها، عنيفة في تحقيق

أهدافها، ومرنة في نفس الوقت، بصورةٍ تفوق الصور السابقة للرأسمالية . غير أنه تتحداها على مستوى الكوكب مجموعات متعددة من الحركات الاجتماعية باسم التفرد الثقافي، ونزوع الناس إلى أن يسيطروا على حياتهم وبيئتهم.

وهذا التوتر بين الرأسمالية وهذه الحركات الاجتماعية هو الذي يميز الديناميكية المركزية لعصر المعلومات، وذلك لكون مجتمعاتنا (وفق كاستلز) تتمأسس باطراد حول التعارض الثنائي بين الشبكة (Net) والذات (Self) . فالشبكة تمثل في الواقع التشكيلات التنظيمية الجديدة المبنية على أساس الاستخدام الواسع لوسائل الاتصال الجديدة والمتشابكة. أما الذات فترمز إلى الأنشطة التي يحاول الناس من خلال ممارستها تأكيد هويتهم في ظروف التغير البنيوي الذي يمر بالعالم، والمتسم بعدم الاستقرار، الذي يتزامن مع تنظيم الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية من خلال الشبكات الديناميكية.

وفي ضوء كل هذا؛ تبرز تشكيلات اجتماعية جديدة تتمحور حول الهويات الأولية التي قد تكون دينية أو إثنية أو إقليمية أو قوية كقاعدة للتركيز. وفي هذا التفاعل بين الشبكة والذات، فإن شرط الحياة الإنسانية والخبرة على مستوى العالم يُعاد تشكيلها بصورةٍ جذرية وعميقة. ويقوم تحليل كاستلز على أساس افتراض يذهب إلى " **نشوء مجتمع جديد**" ينشأ حين يتم بروز تحول بنيوي في علاقات الإنتاج، وعلاقات القوة، وفي علاقات الخبرة. في هذا الإطار يؤكد كاستلز على أن من يبني هوية جماعية يحدد إلى حدٍ كبير المضمون الرمزي لهذه الهوية ومعناها بالنسبة لهؤلاء الذين يتوحدون مع هذه الهوية، أو الذين يعتبرون أنفسهم خارج دائرتها.

ويقدم كاستلز بهذا الصدد مفهوماً جديداً، حين يركز على مفهوم ما يسميه " **فضاء التدفقات**"(Space of flows) ويعني به الشبكة الكونية المترابطة . وهذه الشبكة تضم عناصر متعددة مرتبطة بعضها ببعض، مثل الشبكات الخاصة، وشبكات الشركات، والشبكات العامة وطبعا شبكة الانترنت. هذه المنظمات الاجتماعية (في تقديره) تعيد صياغة نفسها طبقا لفضاء التدفقات الذي يعبر عن المنطق الاجتماعي السائد في المجتمع الشبكي المعقد والذي تتركز فيه القوة إلى حدٍ يمكن معه القول أن "قوة التدفقات تسبق تدفقات القوة ".

يرى كاستلز أننا في النهاية سنصل إلى المشكلة الحقيقية التي تجابه الناس في تعاملهم مع مجتمع المعلومات العالمي، وهي أن المنطق الاجتماعي السائد تشكله الافتراضية الواقعية (Real Virtuality) الذي يدمغ فضاء التدفقات، في حين أنهم يعيشون في العالم الواقعي، أي في فضاء الأمكنة المسكونة بالفعل. وهكذا ينشأ نوع من " الشيزوفرينا البنيوية" ، حيث يتصادم منطقان مكانيان وزمنيان. وهكذا؛ يفقد الناس إحساسهم بذواتهم ويحاولون استعادة هوياتهم من خلال صياغات ونماذج جديدة.

وفي خضم ما أطلق عليه كاستلز " فضاء التدفقات" نجد أنفسنا داخل قارة جديدة من العالم الافتراضي يسكنها مئات الملايين؛ لذا لا بد من دراستها دراسة منهجية شاملة. ورغم هذا التدفق المهول وما أحدثه من حركة انقلاب في مجمل التكوينات العالمية[14] إلا أن الأساليب البحثية والنظريات المنهجية التي تتناول وتحلل مضامين وأهداف ثورة المعلومات أو التقنيات ما تزال قاصرة عما هو مطلوب، وإن كان هناك نظريات علمية

بازغة تحاول تفسير ظاهرة التفاعل بصوره المختلفة عبير شبكة الانترنت، سواء أخذت شكل جماعات النقاش أو التدوين أو الفيسبوك[15].

ومن توصيف كاستلز للثورة التقنية وفي قلبها الشبكة العنكبوتية ننطلق نحو الإجابة على السؤال الذي أشغل ولا يزال كثير من الباحثين في حقل التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، والمتمثل بكيفية تحليل مضمون المحتوى على شبكة الانترنت؟ . وفي مسار طريق الإجابة سنعرج ، قليلاً، للحديث عن فهم خصوصية مواقع الانترنت المختلفة، سيما المواقع المتصلة بالشبكات أو الوسائط الاجتماعية، وفي مقدمتها " الفيسبوك". يطلق البعض تسمية " تحليل مواقع الويب" على طريقة تحليل محتوى أو مضمون ما يتم نشره على الانترنت. و في محاولة الإجابة على كيفية عملية التحليل هذه يجب أولاً فهم خصوصية مواقع الويب المستكشفة، فمبدأ الكتابة الالكترونية للويب لها نمط خاص مرتبط بها إن كان من ناحية الشكل (الأشكال المختلفة للمواقع أو ما يسمى بلغة أخرى إخراج الصفحات) ، أو من ناحية المحتوى (ما يحتويه موقع الويب من تعابير ذات بنيوية لغوية مختلفة).

ولكي نحلل المواقع الالكترونية نحتاج إلى أدوات محددة تقدَر بعدد المفاهيم والمجالات العلمية التي أدت إلى بنائها : فلكل موقع نظراً لطبيعة الوسيط وللأسباب التي أدت إلى بنائه مجموعة من الخصائص لا بد من فهمها : فللموقع منطق اجتماعي مرتبط بحاجة بنائه، كما له منطق جمالي مرتبط بالعملية الإدراكية لناحية الواجهة لتسهيل آلية التصفح ، ومنطق تفاعلي لتفعيل عمليات التواصل بمعناه الحديث، ومنطق اقتصادي استثماري، ومنطق معياري من جهة البناء ألمعلوماتي، ومنطق إدراكي يتداخل فيه مجمع علوم الإدراك أو العلوم المعرفية، ومنطق وظيفي، فلكل إنتاج مهما كانت طبيعته وظيفة معينة. وأخيراً منطق دعائي، فكل موقع الكتروني بحد ذاته يمثل صورة للمؤسسة أو للإعلان الخارجي، ، دون أن نغفل، هنا، أن أحد أهم الأهداف الأساسية للانترنت، حالياً، هو البعد المادي الربحي.

ويساعد " تحليل مواقع الويب" في الإجابة ـ وإن كانت مقاربة ـ عن حزمة من الأسئلة، أهمها: كيف يتم تحليل بنية النص في الصفحة الأولى (البوابة)، كيف سنراقب ونحلل الاستراتيجيات الموضوعة للخدمات المتوافرة في الموقع؟ كيف سنراقب ونحلل التأثير المتوقع لردات فعل المستخدمين من ناحية معالجتهم للمحاور، ولطريقة الإبحار، للبنية النصية، للبنية التناصية، للبنية الداخلية، للصفحات الداخلية ..الخ .وأيضاً؛ كيف سيتم تحليل إستراتيجية أمانة المعلومات ، وكيف ستؤثر فعلياً على المستخدمين ؟ وما هي طرق التعامل مع الموقع وطرق تفحصه؟.

طرح هذه الأسئلة يدفع إلى توالد أسئلة أخرى مثل: كيف سنراقب النص الذي هو، بشكلٍ عام، بعيد كل البعد عن النص " الكلاسيكي" المبني على قواعد معيارية من ناحية البنية الصرفية، والنحوية والدلالية. هنا يطرح السؤال: هل تساعد النظريات الألسنية حالياً على فهم نص " ديناميكي" كذلك الموجود في مواقع الويب؟ وهل هذه النظرية موجودة أو مطلوب وجودها ؟ أو بالأحرى؛ هل باستطاعة الألسنية الحالية تحليل مواقع الويب، أو

جزء منها؟.

إذن فالانترنت، لتعدد مجالات عمله الوظيفي كوسيط معلوماتي لكل المجالات والاختصاصات يزيد من الدفع نحو التفتيش عن الخصائص الأساسية والرؤى والتأثيرات المختلفة لأصناف المواقع . وهذا طبعاً هو نتيجة الازدياد الهائل في عدد المستخدمين (بالرغم من الفجوة الرقمية التي ما زالت موجودة، والتي تؤدي حتماً إلى فجوة معرفية). إما عن الاختصاصات المختلفة لفهم مواقع الويب، فهي أيضاً متعددة : سيميائية الصورة، علم السيمياء[16]، علوم اللغة، الاقتصاد، التسويق، السياسة، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع، الإعلام، التواصل والاستخدام .. الخ. هذه المجالات موجودة خارج وقبل الانترنت، وتدخل ضمن نطاق فهم مواقع الويب وتحليلها.

وعلاوة على ذلك كله؛ فإن عملية تحليل مواقع الويب تتطلب اعتماد ما هو مناسب كالحقول، والمعلومات (المحتوى) والإبحار والتجديد، ثم هل الموقع عام أو خاص، مؤسساتي أم فردي؟ وسنرى إذا كان الموقع يُعطي إمكانية للتفاعلية، إلى جانب المحاولة في مراقبة المعلومات التي تهتم، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، بالمحتوى وإستراتيجية الموقع، محتوى الصفحات، هرمية العناوين، وجود إمكانية النقاش، البريد الالكتروني، ووجود رسومات. ونظرا لضخامة الويب من الصعب بناء نماذج مصغرة لمواقع تمثل مجمل المواقع الموجودة على الانترنت . كما أن هناك مواقع جديدة تدخل في كل وقت، فتحليل مواقع الانترنت لا يدَعي الشمولية. كذلك، لا يمكن أن الاكتفاء فقط بالمواقع التابعة للدولة، أو تلك التجارية أو السياسية، بل يجب أن نهتم أيضا بمواقع المستخدمين الذين يشكَلون بالمفهوم العام "ثورة الانترنت".

التطرق إلى الأسئلة السابقة والاختصاصات المختلفة لمواقع الويب ينقلنا إلى الجهة التي عادة ما تقوم بمراقبة وتحليل مثل هذه المواقع الالكترونية، ويُقصد بها ،هنا، مراكز البحوث الغربية . فالغرب يعتمد أكثر على التحاليل العددية للانترنت من خلال المدونات بشكل خاص، وبالتحديد المدونات السياسية، ليس بما تحويه من مضمون سياسي لبلدٍ ما، بل بما تحتويه من أخبار مناهضة للنظام في بلدٍ ما . وتصب كل التحاليل الغربية على أن الانترنت في العالم العربي هو ضد الأنظمة. فالمدونات العربية، وهي عديدة، لم يكن لها تأثير فعلي لنشر الثقافة بقدر ما كانت تُرى من قبل الغرب على أنها أصوات خارجية تعبر عن معارضتها للأنظمة .

أما من ناحية اهتمام العرب فعندما يتحدثون عن الانترنت الفرنسي أو الانجليزي مثلا فهم لا يهتمون بأخبار الشباب الذين يتحدثون عن ساركوزي ، أو اوباما أو الأنظمة الغربية، بل يهتمون بأمورٍ أخرى اجتماعية، سياسية ، ثقافية ..الخ. على عكس ما يهتم به الغرب من ناحية الانترنت العربي، وهذه مفارقة لها دلالة معرفية أكثر منها تحريضية. من هنا؛ فإن هذا التعدد في أشكال المحتوى يؤدي إلى صعوبة في آلية التقييم والتحليل، فالشبكة المعلوماتية متناقضة: فكيف يمكن تقييم شبكة تحوي في الوقت نفسه المواقع الخلاعية الأكثر إباحية وصولاً إلى المواقع الدينية الأكثر تطرفاً مروراً بكل ما يمت بصلةٍ إلى الحياة العامة !.

هذا الواقع له دلالات ترتبط بصناعة وتبادل المعرفة. وهذا ما أدى إلى تغيرات في الاختصاصات المرتبطة

بصناعة الميديا الرقمية. وكما نرى؛ فإن بعض الجامعات في العالم تشهد اختصاصات جديدة مرتبطة بهذا الواقع من منفذين ومبدعين مختصين. كل هذه المجالات تتحد إذن لكي تُعطي صورة مناسبة للموقع لما له من أهمية بالنسبة إلى المؤسسة سواء كانت فردية، جماعية، رسمية، أو صفحة شخصية، أو لعدد الصفحات، تجديد الصفحات، عدد العلاقات التناصية، أمن وشمولية الموقع . هذا يؤدي بدوره إلى التفتيش عن أدوات لمراقبة مواقع الويب وتأثيراتها. فلإيجاد أدوات حديثة لمراقبة الويب، أصبح ضرورياً التأقلم مع واقع محدد، خاصة وان الأدوات والمفاهيم القديمة لتحليل وسائل الإعلام التقليدية، لا سيما المطبوعة منها غير مناسبة لمواقع الويب.

كما أن على هذه الأدوات أن تتطور بتطور الانترنت الذي أخذت تقنياته تتسع بدءاً من المواقع المكتوبة الـ HTML التي كانت أساس نجاح الانترنت لما لها من إمكانيات متعلقة بسهولة النشر، وخلق العلاقات التناصية بين المواقع لتشكل شبكة معرفية متاحة للجميع، مروراً بالمنتديات والرسائل الالكترونية والمواقع كواجهة دون تفاعلية مباشرة، ثم الـ XML والويب الدلالي الذي ساهم في سهولة التبادل والتفاعلية من دون المعرفة التقنية للمستخدمين، وصولاً بالشبكات الاجتماعية والفيديو كونفرانس، والسكايب، والويب 3،5 الذي يُهيأ لدخوله في كل المجالات المعرفية.

إذن؛ مساحة التحليل متعددة ومتشابكة وخارج المقياس، ففي المجال التواصلي نجد (رسائل، دردشة، منتديات، مواقع شخصية، ..الخ)، وفي تعددية الوسائط هناك (صورة، صوت، نص) إلى جانب التعددية في المحتوى، فالنص بحد ذاته متعدد المعاني والبنية الهيكلية. كما أن الصورة متعددة الأشكال، منها الثابت والمتحرك، ومن المواقع ما يحوي على الشكلين معاً. وعلاوة على ذلك، هنالك التعددية في المستوى اللغوي عبر تعدد اللغات عمودياً وأفقياً[17].

وبهذا؛ فإن المعايير التي تُستخدم لتحليل محتوى الانترنت وقياس تأثيراته غير موجودة (عربياً على الأقل)، وإذا كان بعضها موجوداً فبطريقة عشوائية. كذلك؛ فإن الأبحاث والأساليب القياسية في هذا المجال ما زالت " يافعة" مقارنة بالتطور الانترنتي والمعلوماتي الهائل . واستنادا إلى كل ما تقدم، فإنه نظراً إلى المهمة الصعبة في التعامل مع واقع الانترنت المتشعب والمتسم بالتعقيد واختلاط الظواهر الاجتماعية على الصفحات الالكترونية، فان الاستعانة بمنهجية تحليل المضمون، التي تتسم بالمرونة العالية، وتحمل في طياتها خليطا مركبا، وليس تلفيقيا، لمنهجيات اقتصادية واجتماعية مختلفة، تساعدنا في معالجة محتوى وسائط الإعلام الجديد، وتجاوز متاهات البحث الكمي، وحدوده التي تقدس التقنية، ولا تضيف أي معرفة نقدية حول الموضوع قيد المعالجة .

الهوامش

1 . كامل القيّم، المحتوى الإعلامي ومنهج تحليل المضمون، http://shmoos.yoo7.com/t2607-topic استرجع بتاريخ 18 2011/4/

2 . عاطف عدلي العبد، تصميم وتنفيذ استطلاعات وبحوث الإعلام والرأي العام: الأسس النظرية والنماذج التطبيقية، دار الفكر العربي، القاهرة،2003، ص 42.

3 Arther Asa Berger. "Media Research Techniques", (London sage Publication 1994 P.85 – 119.

4 . منهج تحليل المضمون، انظر : http://qawaneen.blogspot.com/2010/06/blog-post__5199.html، استرجع في 2011/4/19

5 .رجاء دويدري،المنهج العلمي،أساسياته النظرية وممارساته العملية، ط1،دار الفكر ،دمشق،2000، ص215.

6 . Berelson, Bernard(1952). Content Analysis in Connunication Research.Glencoe, Illinois: The Free Press Publishers.p,18

7 . تتسم منهجية تحليل المضمون بالمرونة العالية، بحيث يمكنها معالجة منتجات وسائط الاتصال، وبالتالي رصد تأثيرات العولمة، وهي لا تلتزم بترتيب معين في انتقاء النصوص، بل يتم رصد عناصر التشابه والتماثل عبر الممارسات والنصوص والأفعال الاجتماعية، واختيار عينات تمثلها لعرضها في البحث، لذلك فإنها تتنصل من متاهات البحث الكمي وحدوده التي تقدس التقنية،و لا تضيف أي معرفة حول الموضوع. انظر ، بيالارا، مصدر سابق، ص33.

8 . أسلوب (تحليل المضمون) طريقة تُستخدم في حالة تعذر اتصال الباحثين بالمبحوثين بصورة مباشرة للتعرف على اتجاهاتهم وأفكارهم واستجابتهم من خلال الملاحظة والمقابلة والاستبانة وغيرها، لذا يلجأ الباحثون لأي طرق بديلة غير تقليدية، من خلال دراسة نصوص (غير التعبير الشفهي أو التحريري) هذه الجماعات دراسة منهجية بإتباع طريقة منظمة وصارمة . انظر، فارس جميل أبو خليل، وسائط الإعلام بين الكبت وحرية التعبير، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص39.

9 . المصدر نفسه، ص40 . 41.

10 . المصدر ذاته،ص39.

11 . نظراً لأن منهج تحليل المضمون هو أداة استكمالية يستخدمها الباحث ضمن أساليب وأدوات أخرى في إطار منهج متكامل، فإن الدراسة ستعتمد، كذلك، المقابلة الشخصية من خلال استنطاق عدد من الإعلاميين ومستخدمي الشبكات الاجتماعية، خاصة موقع الفيسبوك، فهذه الأداة تُعد أولى الوسائل استخداما لقياس حجم الجمهور ولا يزال يُعتمد عليها في وقتنا الحاضر إلى حدٍ كبير؛ خصوصا في دول العالم الثالث الذي لا تزال فيه بحوث القياس في معظمها في مراحلها الأولى . إلى جانب أنها تعتبر الوسيلة الأفضل على الإطلاق لمعرفة السلوكيات الاجتماعية والنفسية الموجودة لدى الباحثين؛ حيث يتمكن الباحث من الدخول في تحليل جوانب جزئية من شخصية المبحوث لها ارتباط مباشر بعملية الاستماع أو المشاهدة. انظر: محمد بن عبد العزيز الحيزان، البحوث الإعلامية، أسسها، أساليبها، مجالاتها، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1998، ص169.

12 . Thomas R. Lindlof, (1995) Qualitative Communication R esearch Methods, Current Communication :v3(Thousand Oaks, CA: Sage Publications, p.54.

13 . لمعرفة المزيد عن آراء وإسهامات كاستلز النظرية، خاصة فيما يتعلق بالمجتمع الشبكي ومفهوم فضاء التدفقات وغير ذلك انظر: السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص 84 . 96.

14 . إن الثورة الكونية، خاصة في بعدها الإعلامي والتكنولوجي ، ليست ثورة وحيدة البعد، ولكنها ثورة مثلثة الجوانب. فهي أولا ثورة سياسية شملت النظم السياسية المعاصرة والعلاقات الدولية على السواء ، يمكن تلخيصها في عبارة واحدة : التحول من الشمولية والتسلطية إلى الليبرالية، وهي ثانياً ثورة في القيم وتحول من القيم المادية إلى القيم المعنوية، وهي ثالثاً ثورة معرفية تنطوي على الانتقال من الحداثة إلى بعد الحداثة، وفي قلبها الثورة التقنية للإعلام والاتصال . انظر، السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص80.

15 . يرى عدد من الباحثين بوجود علم جديد يطلقون عليه اسم " سوسيولوجيا الانترنت" يدرس الشبكة العنكبوتية من وجهة النظر الاجتماعية، وذلك بالتركيز على خصائص الشبكة، ونوعية الذين يستخدمونها ، والموضوعات التي يطرقونها . كما وتبلور علم جديد آخر هو " علم اجتماع الفضاء المعلوماتي" ، يتخصص في الدراسة السوسيولوجية للانترنت من كل النواحي ،ولذلك هو يدرس فئات المستخدمين للشبكة، وأنماط شخصياتهم ،والمواقع التي يزورونها ، وموضوعات اهتماماتهم، إلى غير ذلك من موضوعات. انظر: السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص96.

16 سيمياء هي ترجمة للسيمولوجي وهو يعني علم السيمياء الذي يرجع في أصوله إلى الكلمة العربية سِمَة والتي تعني العلامة . فالمعنى الاصطلاحي للسيمياء هو علم العلامات والذي يتفرع عنه علم العلامة اللغوية وهي الرموز الصوتية التي تكون الكلمات والجمل.

17 . نظراً لهذه التعددية، وكثافة المحتوى على الانترنت وصعوبة إيجاد آلية أو منهجية محددة ومتفق عليها من قبل الباحثين في حقل الإعلام والاتصال لغاية الآن بخصوص فهم وتحليل وتقييم هذا المحتوى ، ونظرا لعدم قدرة أي كتاب أو دراسة بالإحاطة بكل الميادين الافتراضية في شبكة الانترنت ، فان الدراسة التي بين أيدينا ستعتمد على عينة من المجموعات الفلسطينية المشتركة في مواقع الفيسبوك .

المبحث الخامس

الإعلام الجديد وحرية التعبير

كثر الحديث خلال العقد الماضي، على وجه التحديد، بشأن الحرية الإعلامية وأهمية توافرها لما لذلك من ضرورة ماسة في تحقيق الأهداف التي تسعى إليها وسائل الإعلام المختلفة. هذه الحرية اعتنقها البعض ليدفعها نحو الأمام، محافظاً عليها ومتعهداً باستمراريتها رغم التحديات الجمة، في مقابل أولئك الذين أرادوا تكبيلها وفرض أشكال الرقابة المتعددة عليها بذريعة الحفاظ على الأمن العام والآداب العامة وما إلى ذلك من مفاهيم لا يزال النقاش بشأنها محتدماً؛ بانتظار أجوبة لها ولو كانت مقاربة .

وبتطور وسائل الإعلام وبروز وسائط وتقنيات جديدة في عالمه انبرى ثلة من المتخصصين في حقلي الاتصال والإعلام، تحديداً، بتناول ورصد وتحليل حرية الرأي والتعبير التي تتيحها مواقع الإعلام الجديد، لا سيما منها الشبكات الاجتماعية ، كالفيسبوك ويوتيوب وتوتير وغيرها . هذا التناول وما اتبعه من رصد وتحليل سلك طريقين، الأول رأى أصحابه بأن الوسائط الإعلامية الجديدة تمثل الحد الأقصى في الحرية التي منحتها وسيلة إعلام لغاية الآن، بينما الفريق الثاني اعتقد عكس ذلك انطلاقاً من الرقابة المفروضة على هذا الإعلام واحتكار الشركات المالكة لوسائطه وتقنياته للمعلومات ونشرها .

وقد برزت موضوعة حرية الإعلام، كعمل فكري يستكمل البحث في إطار منظومة القيم والأعراف التي تشكلت وتطورت لاحقاً لحماية حق الإنسان في التعبير عن رأيه بعيداً عن هيمنة القوة، واستبداد السلطة، وتعسف الرقابة المسبقة واللاحقة، وكان لا بدَ من البحث في جدلية الحرية والقانون كمقدمة تعرض تطور الاعتراف بالحقوق الأساسية للإنسان في الإعلان عن رأيه من دون خوف أو عقاب، انطلاقاً من حقيقة أن الإنسان لا يمكن أن يكون واعياً وحراً من دون أن يكون جزءاً فاعلاً ومعترفاً به من كينونة المجتمع، وأن ذلك الاعتراف يشكل مقدمة للاعتراف بكل حقوقه اللاحقة وفي مقدمتها الحق في حرية الرأي والتعبير.

وتأسيساً على ما سبق؛ سننطلق في هذا المبحث لنناقش جذور وتطور حرية الرأي والتعبير ومساراتها التي أجمعت كافة محطاتها على قيمة الحرية باعتبارها حق مقدس لا يمكن التنازل عنه أو الانتقاص منه. التطرق إلى الحرية وتجلياتها تاريخياً سينقلنا للحديث عن حرية الرأي والتعبير في فلسطين، من زاوية التشريعات ومدى إسقاطها على الواقع. بعد ذلك سنعرج إلى الإعلام الجديد من حيث خصوصية مظاهره وأدوات ممارسته، وصولاً إلى علاقة ذلك بالديمقراطية ومدى ارتباطها بالتقنيات الجديدة لهذا النوع من الإعلام.

أولاً: الحرية والتعبير: جذور ومسارات

" يعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد.. إن الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتسولٍ ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوقٍ عليه، ولا يد لأحدٍ عنده" .

مأثورة " المنفلوطي" هذه تؤسس لنا القاعدة التي سننطلق عليها صوب الحديث عن الحرية المتلازمة بعلاقةٍ عضوية مع مفهوم الحق في التعبير وحرية الرأي، ذلك المفهوم الذي يتشابك مع عالم الإعلام باعتباره الوسيلة الأكثر ضرورة لأن تسبح في عالمه مفردات الحرية وتطبيقاتها[1].

إن تاريخ البشرية في الواقع هو تاريخ الصراع من أجل الحرية[2]، وبامتلاك الحق في ممارسة الحرية، يتجسد مبدأ حرية الرأي باعتباره المُجسد للشعور بتأكيد الذات عبر الوجود الشخصي والاجتماعي، إذ لا يكفي اعتبار الحرية مُعطى بديهياً ، بل لا بد من مغزى الممارسة العملية، وانطلاقا من ذلك، فإن مبدأ حرية الرأي أو حرية التعبير[3] قد لازم وعي حق الحرية وعبر عنه، وجسد لحظة الصدام مع الاستبداد الذي يقف في النقيض من (حق التعبير) . فالإنسان كائنٌ متميز في حقه في التعبير عن أفكاره من خلال وعاء اللغة باعتبارها ممارسة التعبير ، وفي الوقت ذاته هي من أبرز أشكال التطلع إلى (اكتساب الحرية) وتحويلها إلى ممارسة ، وفي كل الأحوال فإن مفهوم الحرية ينطلق إلى خارج الإنسان، ذلك الخارج الذي يتشكل من خلال وعينا في تكوين رموز التعبير التي ستقود إلى مفهوم متماثل وهو الاستمتاع في الحرية ذاتها [4] .

والإنسان لا يتعامل مع الحرية إلا باعتبارها طريق الاختيار المتواصل لغايات الذات الفاعلة، ومن هنا يتشكل مفهوم تنامي الحرية عبر جدلية فقدان الحرية والسعي نحو استرجاعها ، وتظهر الحرية باعتبارها مطلقة (محررة) لطاقة الإنسان والمعبرة عن ماهيته والتأكيد على أن له (رأياً) بما يحيط أو يتعامل معه، لذلك نجد " هارولد ج. لاسكي" يقول:" إنه لا توجد حرية من دون حرية القول، ولا تتوفر الحرية إذا وجدت امتيازات خصوصية تقصر الحقوق على جزءٍ فقط من المجتمع، ولا توجد حرية إذا مكن رأي متسلط أن يتحكم في العادات الاجتماعية لباقي الآراء من دون اقتناعها بأن هناك أسس معقولة لهذا التحكم، وبالمحصلة فإن تقييد حرية الرأي هو بمثابة تحويل الإنسان إلى سجين مجرد من القدرة على التفكير والإبداع، ولذا فان إطلاق حرية الرأي وفك القيود الآسرة لحرية التعبير، هي في المعيار الأول معطي قيمي وأخلاقي ومعبَر عن القدرة عن اكتشاف الذات الإنسانية وتوكيد دورها في المعرفة .

ولقد عبر الفيلسوف اليوناني سقراط عن ذلك عندما عدَ المعرفة بأنها الفكر، وإن اكتشاف تلك الحقيقة يتم عبر التعبير الحر والبحث عن الحقيقة الواقعية، أما تلميذه أفلاطون فقد طور ذلك المفهوم للمعرفة والتعبير عنها، كما أن أرسطو اعتبر حرية التعبير هي الأساس أو الامتياز للإنسان الحر، وعندما قال (اعرف نفسك) فإنه في الواقع قد مهد الطريق من اجل بناء قدرة التعبير عن الرأي من الداخل إلى الخارج أي في الذات الإنسانية إلى المحيط، والاستعداد للدفاع عن ذلك الرأي[5] .

وكما طرح الفلاسفة اليونان قضية الفكر الحر، وقادوا الصراع بين الفكر الحر ونقيضه، فإن الإسلام نظر إلى حرية التعبير على أنها فريضة على الحاكم والمحكوم معاً، فالحاكم مطالب بتنفيذها عن طريق الشورى، وعن طريق تحقيق العدل والنظام القضائي المستقل، ونشر التعليم، وتحقيق الاكتفاء الاقتصادي وغيرها من الوسائل التي تجعلها ممكنة بحيث لا تخاف الرعية من ظلم أو فقر أو تهميش إذا مارستها ، مبيناً أنه بدون حرية التعبير فإن الخلل في المجتمع الإسلامي سينمو ويتصاعد إلى حد تصدعه وانهياره. وقد أكد القرآن على حرية التعبير وتعدد الآراء وتنوعها، حيث يقول تعالى في سورة هود : " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ "[6].

وكذلك الحال مع روما القديمة التي جسدت تقاليد التعبير عن الرأي، فلم يقف " شيشرون" خطيباً في قضايا خاصة، فلقد كانت خطبه الشهيرة تحدياً لمسلمات العقائد الدينية التي كانت آنذاك ، تحدياً للعقل والوعي، وكل ذلك مهد لاحقا لمرحلة تعد وثبة كبيرة في ميدان الفكر في القرون الوسطى. ففي عصر التنوير جعل من التسامح مبدأً مضافاً يتصل بفكرة (حرية التفكير) التي في مضمونها تكمن الفكرة الأسمى وهي حرية التعبير، فقد استطاع " فولتير" أن يرتقي بمعنى حرية التفكير إلى قوله : "ليس هناك حرية لدى الناس من دون حرية التعبير عن تفكيرهم" . هذا القول الذي شكل قاعدة إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي جاء في المادة الحادية عشرة منه : " أن الاتصال الحر للأفكار والآراء هو من أثمن حقوق الإنسان، فكل مواطن، إذاً، بإمكانه أن يتكلم، ويكتب، ويطبع، بحريةٍ، ضمن المسؤولية عن هذه الحرية في الحالات المحددة بالقانون"[7].

إن هذا النص نجد ظلاله لاحقا في كل المواثيق التي صدرت عن البشرية في ما يخص حقوق الإنسان وحق التعبير ثم حرية النشر والإفصاح، ذلك الحق الذي أصبح شبه " المقدس" باتصاله بالضمير الذي يجمع بين المسؤولية الأخلاقية والواجب الوطني والذي تجسد بعد أكثر من ثلاثة قرون في المادتين 18 و19 من (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[8]) اللتين تنصان على :

لكل شخص الحق في حرية التفكير والتعبير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته وعقيدته، وحرية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة.

لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقييد بالحدود الجغرافية.

وقد جاء تأثير الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المواثيق العربية واضحاً ومباشراً، فقد نص (الميثاق العربي لحقوق الإنسان[9]) في المادة الثانية والثلاثين .." يضمن هذا الميثاق الحق في الإعلام وحرية الرأي والتعبير ، وكذلك الحق في استقاء الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين بأي وسيلة ، ودونما اعتبار للحدود الجغرافية " . ومع تماثل المعاني والمفردات بين الإعلان العالمي والميثاق العربي ، إلا أن الأخير أضاف إلى المادة ذاتها فقرة يمكن أن تفسر أنها تمثل إطارا شاملا محددا ومؤطرا لأسلوب ودلالة التمتع بحق حرية الرأي والتعبير، حين أشار إلى أن تلك الحقوق تمارس (في إطار المقومات الأساسية للمجتمع، ولا تخضع إلا للقيود التي تفرضها باحترام حقوق الآخرين أو سمعتهم أو حماية الأمن الوطني أو النظام العام أو المصلحة العامة أو الآداب العامة).

وهنا يكمن (الشيطان في التفاصيل) فقد مهد ذلك النص ما يمكن أن يُعد تحفظا على حق الحرية وحرية التعبير ، وذلك انه أعطى السلطة، حتى ولو لم ينص على ذلك الحق في تقرير معنى (المقومات الأساسية للمجتمع) وكذلك القيود التي يفرضها باحترام حقوق الآخرين أو حماية الأمن الوطني أو النظام العام ...الخ، من دون أن يشير إلى الجهة التي تحدد معايير تلك المفاهيم وتملك الحق والأهلية لحمايتها والدفاع عنها، وعمليا فقد انتهى الأمر إلى أن الحكومات هي التي تقرر حدود تلك المحرمات، فهي المدعي العام والقاضي ومحامي الدفاع ، وقد تجلى ذلك عندما أصدر وزراء الإعلام العرب وثيقة مبادئ تنظيم البث والاستقبال الفضائي والإذاعي والتلفزيوني في المنطقة العربية التي حدد البند الأول منها المبادئ الأساسية للوثيقة ..(تهدف هذه الوثيقة إلى تنظيم البث وإعادته واستقباله في المنطقة العربية وكفالة احترام الحق في التعبير عن الرأي وانتشار الثقافة وتفعيل الحوار الثقافي من خلال البث الثقافي [10]).

ثانياً: حرية الرأي والتعبير في الإعلام الفلسطيني

ضمنت التشريعات الفلسطينية الحق في حرية الرأي والتعبير كمبدأ أصيل من مبادئ حقوق الإنسان، مع التأكيد، هنا، على أن حرية الرأي والتعبير لا تكتمل إلا إذا اقترنت بالحق في الوصول إلى المعلومات وتبادلها، ورفع الرقابة عن الإعلاميين حتى يقوموا بتأدية واجبهم المهني بحرية وموضوعية . وفيما يلي سنذكر أهم التشريعات التي تطرقت إلى حرية الرأي والتعبير ارتباطاً بالمشهد الإعلامي في فلسطين، ومدى تطبيق نصوص هذه التشريعات على أرض الواقع.

أولاً: القانون الأساسي

خصص القانون الأساسي الفلسطيني عددا من المواد التي تشير إلى حرية الرأي والتعبير، فقد نصت المادة 19 منه على أنه "لا مساس بحرية الرأي، ولكل إنسان الحق في التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو غير ذلك من وسائل التعبير أو الفن مع مراعاة أحكام هذا القانون" .وكذلك، فقد نصت المادة 27 والتي خصصها القانون الأساسي لوسائل الإعلام على الآتي:

1. تأسيس الصحف وسائر وسائل الإعلام حق للجميع يكفله هذا القانون الأساسي وتخضع مصادر تمويلها لرقابة القانون.
2. حرية وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة وحرية الطباعة والنشر والتوزيع والبث وحرية العاملين فيها، مكفولة وفقاً لأحكام القانون الأساسي والقوانين ذات العلاقة.
3. تحظر الرقابة على وسائل الإعلام ولا يجوز إنذارها أو وقفها أو مصادرتها أو إلغاؤها أو فرض قيود عليها إلا وفقاً للقانون وبموجب حكم قضائي.

وعلى هذا؛ فإن القانون الأساسي قد وضع الأسس والقواعد لحرية الرأي والتعبير ونشره سواء بالقول أو بالكتابة

أو غير ذلك من وسائل التعبير، كما أشار في المادة 27 منه على حق أي كان في تأسيس الصحف ووسائل الإعلام، ولم يخضع للرقابة سوى مصادر تمويلها، أما ما تنشره وسائل الإعلام فيحظر القانون الأساسي الرقابة عليه.

وبالرغم من كل الضمانات التي وفرها القانون الأساسي للإعلام والإعلاميين إلا أنه ترك المجال مفتوحاً للعديد من التفسيرات والتأويلات عندما تحدث عن مراعاة أحكام القانون كضمانة لممارسة حرية الرأي والتعبير كما جاء في المادتين(19 و 27). ومن الواضح أن القانون الأساسي ضمن حرية الرأي والتعبير وحرية وسائل الإعلام والإعلاميين بعبارات واسعة وفضفاضة دون أي تفسير، الأمر الذي من شأنه إعطاء السلطة التنفيذية المجال لوضع إعاقات اكبر تجاه حرية الرأي والتعبير ووسائل الإعلام والإعلاميين.

ثانياً: قانون المطبوعات والنشر

تم إصدار قانون المطبوعات والنشر في عام 1995 بموجب مرسوم رئاسي، وهذا التاريخ يدل على أن هذا القانون أصدر قبل انتخابات المجلس التشريعي عام 1996 وقبل صدور القانون الأساسي الفلسطيني. لقد نصت المادة 2 من قانون المطبوعات والنشر على أن " الصحافة والطباعة حرتان وحرية الرأي والتعبير مكفولة لكل فلسطيني، وله أن يعرب عن رأيه بحرية قولاً، كتابةً، وتصويراً ورسماً في وسائل التعبير والإعلام" كما نصت المادة 3 منه على "أن تمارس الصحافة مهمتها بحرية في تقديم الأخبار والمعلومات والتعليقات وتسهم في نشر الفكر والثقافة والعلوم في حدود القانون، في إطار الحفاظ على الحريات والحقوق والواجبات العامة واحترام حرية الحياة الخاصة للآخرين وحرمتها"، وعلى هذا فإن قانون المطبوعات والنشر كفل حرية الرأي وحرية التعبير بكافة الأشكال كما كفل حرية الصحافة في ممارسة وظيفتها في تقديم ونقل المعلومات.

أما الغريب في هذا القانون فهو أنه أورد قيودا كثيرة على حرية الرأي والتعبير وبخاصة فيما جاء في المادة 4 منه التي حددت ما هي حرية الصحافة، والتي يعتبر انتهاكها صريحاً بحد ذاته للقانون الأساسي والمواثيق الدولية والإقليمية. كما نصت المادة 7 " أن على المطبوعات أن تمتنع عن نشر ما يتعارض مع مبادئ الحرية والمسؤولية وحقوق الإنسان واحترام الحقيقة وأن تعتبر حرية الرأي والفكر والتعبير والاطلاع حقاً للمواطنين كما هي حق لها". وهنا كرر قانون المطبوعات والنشر استخدام المصطلحات الفضفاضة والتي يمكن تفسيرها على نحو متعدد، "وهي عبارات تستغل عادةً لتوسيع الهامش المتاح للجهات التنفيذية كي تضيق على الحريات ".

كما أشارت الفقرة 1 من المادة 37 إلى "حظر نشر أي معلومات سرية عن الشرطة وقوات الأمن العام وأسلحتها أو عتادها أو أماكنها أو تحركاتها أو تدريباتها". وهنا يمكن استخدام نص هذه المادة من قبل السلطة التنفيذية كذريعة لمنع وسائل الإعلام، وإذا لم يوضع حد لهذه العبارات والمصطلحات فقد تؤدي إلى إنزال أشد العقوبات على الإعلامي. مثل هذه المفردات ستنعكس بلا شك على الإعلامي عندما يبدأ بالكتابة، حيث تُخلق لديه رقابة ذاتية للحيلولة دون وقوعه في محاذير لا يحمد عقباها.

ثالثاً: مشروع قانون تنظيم الإعلام المرئي والمسموع

لم يكن بد من عمل قانون ينظم الإعلام المرئي والمسموع، وبخاصة لأن قانون المطبوعات والنشر 1995 خلا من تنظيم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، بالإضافة إلى أن القانون الأساسي الفلسطيني أشار في المادة 27 إلى أن تأسيس وسائل الإعلام هي حق للجميع يكفله القانون الأساسي؛ وكذلك أشار في الفقرة 2 من نفس المادة إلى حرية وسائل الإعلام المسموعة والمكتوبة، وهذه الحرية مكفولة بموجب القانون الأساسي والقوانين ذات العلاقة.

ولقد كفل مشروع قانون تنظيم الإعلام المرئي والمسموع لعام 2009 في المادة 2 منه حرية وسائل الإعلام المرئي والمسموع، وأضاف أنه لا يجوز إنذار هذه الوسائل الإعلامية أو وقفها أو مصادرتها أو إلغائها أو فرض قيود عليها إلا بموجب أحكام القانون وبموجب حكم قضائي، ولقد أشار كذلك في المادة 3 إلى أن تأسيس الإعلام المرئي والمسموع حق للجميع يكفله القانون الأساسي كما ورد في المادة 27 من القانون الأساسي. وقد أجاز مشروع القانون في المادة 5 منه أنه يحق لوسائل الإعلام الإبقاء على مصادر معلوماتها سرية، ما لم تقرر المحكمة خلاف ذلك؛ وهذه ضمانة جديدة بالإضافة إلى الضمانات التي نص عليها القانون الأساسي وقانون المطبوعات والنشر.

لم يخل مشروع قانون تنظيم الإعلام المرئي والمسموع من بعض القيود بل عاد وأكد في المادة 28 منه على التزام المحطات التلفزيونية بالتقيد بما جاء به قانون المطبوعات والنشر في المواد (7، 8، 39) والتي تشير إلى منع نشر ما يتعارض مع مبادئ الحرية والمسؤولية وحقوق الإنسان واحترام الحقوق، وكذلك إلى منع نشر أية معلومات سرية عن الشرطة وقوات الأمن العام وأسلحتها أو عتادها أو أماكنها أو تحركاتها آو تدريباتها، وهذا ما تم انتقاده عند الحديث عن قانون المطبوعات والنشر الذي ترك المجال مفتوحاً أمام تفسيرات وتأويلات عديدة لهذه المصطلحات مما يضيق على عمل حرية وسائل الإعلام.

أما بخصوص التشريعات المتعلقة بالانترنت أو وسائط الإعلام الجديدة، فلغاية الآن لا توجد أي قوانين أو تشريعات أو مواثيق شرف أو مدونات سلوك تتعلق بالقواعد المنظمة للنشر الالكتروني أو قواعد خاصة بتنظيم العمل داخل مقاهي الانترنت في الأراضي الفلسطينية.

وبمراجعة سريعة لمدى تطبيق نصوص هذه التشريعات نجد أن واقع الحريات الإعلامية في فلسطين شهد تراجعاً خطيراً خلال الفترة الأخيرة، وتحديداً خلال حالة الانقسام الداخلي التي أدت إلى حالة الاستقطاب الحاد والتي نتج عنها انتهاكات متواصلة ضد الحريات العامة عموماً، والحريات الإعلامية بشكلٍ خاص، كما يظهر ذلك من خلال التحريض المتبادل الذي بلغ مستويات بالغة الخطورة، حيث ظهرت على السطح مصطلحات لم تكن موجودة من قبل مثل: عبارات التخوين، والتكفير والإقصاء والعصابة والمليشيا وإطلاق التهم من كل نوع ، على أساس أن الشخص الذي ليس معي فهو ضدي، وباتت هي السمة الغالبة على لغة التخاطب في معظم وسائل الإعلام الفلسطينية المختلفة. وفي موازاة ذلك لا يمكن إسقاط الانتهاكات الإسرائيلية الممنهجة والمتواصلة بحق الحريات الإعلامية في في الأراضي الفلسطينية التي أخذت أشكالاً متعددة تبدأ بإغلاق المؤسسات الإعلامية وتدمير أجهزتها مروراً بالاعتقال والاحتجاز والمطاردة والإصابة،

والغرامة، والنفي، وصولاً إلى أخطرها والمتمثلة بإطلاق النار المودي إلى القتل [11].

كذلك؛ هناك تناقض في المواد القانونية المتعلقة بحرية الرأي والتعبير، وبخاصة بين قانون المطبوعات والنشر وبين القانون الأساسي، إلى جانب خضوع مبدأ حرية الرأي والتعبير لدى الجهات الرسمية الفلسطينية للتشويه المتعمد، وتتلخص (القاعدة السلوكية) في هذا الشأن بجملة واحدة (أنا مع تلك الحرية طالما أنها لا تمسني!!)، فضلاً عن أن السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وحكومة حماس في قطاع غزة بأجهزتهما المختلفة، المدنية والأمنية، مارست ضغوطاً على الصحافيين، وعلى وسائل الإعلام، لتقييد حرياتهم وحرياتها [12].

إجمالاً لكل ما سبق؛ إن وجود كلمة الحرية وحرية التعبير بشكلٍ خاص لدى المفكرين والأديان، وفي ثنايا القوانين يؤكد على أهمية انتهاج سلوك إنساني متوازن يلتزم بهذه المبادئ ويعمل على تطبيقها على أرض الواقع، حتى لا تبقى وصفاً نظرياً دون مُعطى عملي. التأكيد على أهمية الحرية يتطلب تأمين وممارسة حرية الرأي والفكر والتعبير والحق في الاتصال والحصول على المعلومات الصحيحة ونشرها وتداولها انطلاقاً من أن هذه المرتكزات هي حقوق أصيلة وثابتة ومعترفاً بها وغير قابلة للمساومة أو الإنقاص أو الإلغاء. كل ذلك يفرض التصدي لمفهوم الرقابة على الإعلام والذي سنناقشه في مبحثٍ لاحق.

ثالثاً: الإعلام الجديد: خصوصية المظاهر وأدوات الممارسة

١. خصوصية المظاهر

لقد اضعف الانترنت، خاصة بعد اختراع وسائطه الجديدة، بيروقراطية الدولة لصالح القوى السياسية ومؤسسات المجتمع المدني، من خلال قضائه على احتكار المعلومات، وتوفيره لوسائل اتصال ونضال جديدة لا يمكن التحكم فيها. فظهور شبكات التواصل الاجتماعي أذنت ببداية تحرر الإنسان من أجهزة التوجيه الإعلامي التي تسيطر على عقله، من خلال احتكار المعلومات، أو صبغها بصبغة خاصة تخدم الجهة المالكة. وهو تحرر مزدوج، يشمل حرية الإرسال، حيث أصبح المرسل مسيطراً على رسالته الإعلامية، قادراً على تقديمها دون وسيط أو تدخل أو صياغة من طرف الهيئات الإعلامية الخاصة والرسمية. كما يشمل هذا التحرر حرية الاستقبال بدون عوائق.

تطور تقنيات هذه الشبكات الاجتماعية وامتدادها عالمياً ساهم في توسيع " المملكة الافتراضية" لحرية الرأي والتعبير من جهة، وخلق مظاهر وتجليات ملموسة في ميدان الواقع من جهة أخرى. هذه المظاهر يمكن إجمالها في التجليات التالية[13]:

تسهيل الحصول على المعلومات ولا هي تزال " طازجة " من مصادرها المباشرة، فبمجرد " نقرة " على شاشة الحاسوب ينتقل القارئ من موقع إلى آخر أينما أراد على وجه الأرض، ويقرأ عن أي موضوع يشاء بأي لغة يفهم.

تسهيل إيصال المعلومات إلى الجمهور دون تحكم من الحكام المستبدين أو غيرهم، حيث أن توفير المعلومات الصحيحة هو أول خطوات التغيير. وقد كان احتكار الحكام للمعلومات في الماضي من أهم الوسائل التي يحتمون بها.

التمكن من إيصال الرسالة الإعلامية بالشكل الذي يريده المرسل، دون تدخل موجه من أباطرة الإعلام، الذين

اعتادوا التصرف في المعلومات التي تصلهم وصياغتها وإخراجها بالطريقة التي تخدمهم، على حساب المرسل الأصلي ورسالته.

رخص ثمن الاتصالات، بل ومجانيتها في بعض الأحيان مما يجعلها متاحة للجميع، ولا مجال لاحتكارها من طرف الحكومات القمعية أو الشركات الاحتكارية. ومن فوائد رخص ثمن الاتصالات إشراك عامة الناس في المعلومات.

رغم أن الحكام المستبدين يميلون إلى التضييق على تكنولوجيا الإعلام الجديد، خوفا من انفلات الأمور من قبضتهم، إل أن هذا الإعلام أخذ يؤثر كثيراً على إعلام الصحف وبدأ يزاحم الصورة (التلفزيون) وهوة مرشح للسيادة في المستقبل لأسباب نجمل أهمها في الآتي:

إن الإعلام الجديد يُعطي القارئ فرصة اطلاع اكبر من الناحية الكمية، ففي جلسة واحدة أمام الكمبيوتر يستطيع القارئ أن يطالع عشرات المصادر الإعلامية، من جميع أرجاء العالم، ودون تكلفة مالية تذكر، وهو أمر غير ممكن عمليا من حيث الوقت، ومن حيث الكلفة ، في التعامل مع الإعلام التقليدي.

إن الإعلام الجديد يُعطي المستخدم حرية الانتقاء والمقارنة، من خلال الاطلاع السريع على العديد من المصادر المتعددة الرؤى والخلفيات، ثم يستخلص لنفسه النتيجة التي يراها اقرب إلى الحقيقة ، دون أن يظل أسيراً لرؤية محددة تفرضها عليه الحكومات أو الشركات المالكة لوسائل الإعلام.

يمكن الإعلام الجديد المستخدم من القراءة المتخصصة ، فلم يعد من اللازم استنزاف الوقت والجهد في تصفح الصحف بحثاً عن موضوعٍ معين، أو انتظار برنامج مخصوص في إحدى القنوات التلفزيونية، بل أصبح هذا الإعلام يساهم في الاطلاع على الموضوع في الوقت المراد .

يوصل الإعلام الجديد الرسالة الإعلامية إلى مدى عالمي، ويتجاوز القيود التقليدية التي تقيد التلفزيون والصحافة المكتوبة ، فهذه تحدها حدود المكان " فلا يتجاوز اغلبها مساحة معينة من البسيطة ، كما تحدها حدود المكان" فلا يستطيع الجميع الوصول إليها لان غير مجانية، بخلاف الانترنت فهو مجاني أو شبه مجاني في العادة .

في خضم كل ذلك؛ فإن وسائط الإعلام الجديد تساعد الأفراد والمؤسسات والحركات الاجتماعية وغيرها في اجتذاب أعضاء ومناصرين جدد باستخدام طرائق عديدة منها:

1. مراقبة عدد القراء لمقالات ومواد إخبارية وتحليلية معينة، من خلال العداد الذي يبين عدد الزوار لكل مادة، مما يعين على صياغة المادة المناسبة الجذابة، المؤثرة على القراء.
2. السماح للقراء بالتعليق على بعض مواد الموقع، مما يمكن من التعرف على المتابعين للموقع، والمتفاعلين مع رسالته الإعلامية.
3. عملية التعليق هذه ستفتح باب الاتصال بالمتفاعلين، والاستفادة من جهودهم (غرف دردشة، وأماكن نقاش عامة) للتعرف من خلالها على أفكار القراء، ومدى قربهم أو بعدهم من فكرها، ثم تبدأ الاتصال بمن تتوسم فيهم خيراً واستعداداً للمشاركة والعمل.

٢. آليات الممارسة

يوفر الانترنت إمكانات وآليات جديدة في مجال العمل السياسي والاجتماعي وغيرها ، لم تكن موجودة من قبل، أبرزها[14] :

1. تسهيل سرعة الاستجابة للأحداث السياسية، والرد السريع على التحديات، وسهولة الحشد الجماهيري في سرعة قياسية. فلم يعد الأمر يحتاج إلى سيارات تحمل أبواقاً وتجول في المدن لدعوة الناس إلى مسيرة، أو إنفاق مبالغ طائلة لترويج حدث سياسي في وسائل الإعلام التجارية . بل أصبح الأمر مجرد تحرير رسالة تعبئة واستنفار ، وإرسالها لآلاف الناس في لحطة واحدة فيطلعون عليها وقد يستجيب الكثيرين لها.
2. سهولة التنسيق بين مجموعات شتى للاحتجاج والتظاهر في موقع معين أو ضد قضية معينة، وحشد القوى الشعبية للانقضاض على الهدف من مختلف الاتجاهات ، ومفاجأته بموجات المتظاهرين القادمين من جهات مختلفة، ، وقد برهنت هذه الإستراتيجية على نجاحها، خلال مظاهرات القوى المناهضة للعولمة في أميركا وأوروبا ، وكذلك في الثورات العربية خاصة المصرية والتونسية، فبدلاً من إرسال " ممثلين" للتنسيق بين القوى المشاركة ، أثبتت شبكات التواصل الاجتماعي في تلك الأحداث أنها وسيلة اتصال تعبئة يمكن التعويل والاعتماد عليها.
3. التمكن من توصيل الرأي المساند أو المعارض إلى الجهة المستهدفة بسرعةٍ وبقوة. فلو صدر عن أحد القادة السياسيين مثلاً موقف لا يُرضي الحركة، فإن إرسال آلاف رسائل الاحتجاج والإدانة في يوم واحد أصبح ممكنا. ولو أرادت تلك الحركة إيصال مواقفها إلى جمهور واسع حول قضية محددة، فإنها لا تحتاج إلى أكثر من كتابة رسالة وإرسالها إلى مواقع الكترونية كثيرة.
4. يوفر الاتصال السريع الذي أحدثته وسائط الإعلام الجديد تبني " تكتيكات نضالية " تستنزف " العدو" ، مثل التظاهر المتوازي في مواضع شتى من نفس المدينة ، أو في مدن مختلفة، في مجموعات منضبطة، لا تستطيع قوى القمع السيطرة عليها ، بدلا من المظاهرات التقليدية التي تركز على المظاهر الكمية، على حساب الدقة والفاعلية. وقد برهنت هذه التكتيكات على فائدتها في إرهاق القوى القمعية ومفاجأتها، وتسهيل الوصول إلى الأهداف التي يريد المتظاهرين ضربها، وتقليل الخسائر في صفوفهم.
5. تشويش أفكار الحكومات القمعية وخلخلة استراتيجيها من خلال الحشد المتوازي المتعدد الرؤوس والمنابع، بحيث لا تستطيع القوة القمعية أن تحدد هدفها بدقة، أو تصوغ تكتيكا فعالا للقضاء عليه. بل لا يمكن لها أن تحدد بدقةٍ من يقف وراء الاحتجاجات الاجتماعية والسياسية، مما يحول بينها وبين القدرة على عزلها عن المجتمع. وهذا التشويش الفكري والاستراتجي في ذهن " العدو" يشل تحركه ، ويضعف أو يقضي على فاعلية رده . ويختلف الأمر لو كان واضحا للسلطة أن وراء تلك التحركات حزباً أو منظمة أو حركة محددة ، حيث يسهل حشرها في زاوية ضيقة واستئصالها.
6. حول الانترنت تظاهرات الاحتجاج والتأييد من نشاط محلي إلى ظاهرة عالمية، حيث تتوارد الرسائل من

جميع أنحاء العالم تأيد موقفاً سياسياً معينا، أو تحتج على آخر.

7. إن الخبرة والتسهيلات الجديدة التي وفرتها شبكات التواصل الاجتماعي في مجال التنظيم والاتصال والإعلام غيرت المعادلة القديمة التي كانت تضطر قوى التغيير إلى الاعتماد على دعم دول أخرى في نضالها السياسي، كما كان الحال في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، حيث كانت قوى التغيير تحتاج إلى دعم دولٍ معينة في مجال الاتصال والإعلام والتأمين (حمل جوازات سفر الدول المساندة، واستخدام وسائل إعلامها واستخدام الحقائب الدبلوماسية والتابعة لسفاراتها ..الخ) لكن الانترنت جعل التنظيمات السياسية في غنى عن كل ذلك تقريباً ، فحررها من ثمن الدعم الخارجي الذي كثيراً ما يتضارب مع أهداف القائمين على الفعل النضالي ورسالتهم.

8. مكنت هذه الوسائط الإعلامية الجديدة من تعبئة الملايين من المتعاطفين عبر العالم غير الملتزمين في حركة أو مؤسسة اجتماعية محددة للمشاركة في عمل سياسي أو إعلامي ضد " القوة المستبدة ". هذا المظهر رأيناه في ثورات تونس ومصر على وجه الخصوص، وكذلك فيما يتعلق بالتضامن مع الشعب اللبناني أثناء العدوان الإسرائيلي في تموز 2006، والعدوان على غزة في أواخر العام 2008. وليس من الضروري أن يكون المتعاطف مناصراً دائماً، أو مقتنعاً بمبادئ هذا التنظيم أو بتلك الحركات الاجتماعية المختلفة، بل يكفي أن يشترك معها في هدف ظرفي، فيساهم في حملة محددة ذات هدف مخصوص.

رابعاً: الإعلام الجديد والديمقراطية

يعتبر الإعلام إحدى حقائق الحياة المعاصرة، وواحداً من أهم قوى تشكيل السلوكيات والقيم والعلاقات الإنسانية والثقافية، بما يبثه من خلال قنواته المتعددة ووسائطه المتنوعة من أفكار وآراء تتسلل في رفق وهوادة إلى أذهان الجماهير العريضة، فتعمل على تغيير واقع حياتهم وتغرس فيهم قيما جديدة . إضافة إلى ذلك؛ فإن الإعلام يقوم بدورٍ حيوي في نشر ثقافة عامة موحدة بين فئات وشرائح المجتمع الواحد من ناحية، مثلما يعمل من الناحية الأخرى على التقريب بقدر الإمكان بين الثقافات المختلفة ، ويساعد بالتالي على نشر روح الاحترام من خلال التعرف على الثقافات المغايرة[15] .

أهمية هذا الإعلام تصاعدت لتأخذ أشكالاً متعددة، خاصة بعد بروز وانتشار التقنيات الجديدة في عالمي الاتصال والإعلام، والتي من أبرز ملامحه تلك العلاقة المعلوماتية- السياسية التي أعادت طرح مفاهيم العدالة الاجتماعية وحماية الخصوصية الفردية والملكية الفكرية، وما يتعلق بالديمقراطية ، مفهوماً وممارسة؛ حيث يرى الكثيرون: أن الانترنت ستفضي إلى إعادة النظر في مسألة الديمقراطية بعد أن وفرت هذه الشبكة التواصلية الفريدة ساحة جديدة للرأي العام تسمح بظهور أشكال جديدة للممارسات الديمقراطية[16] .

الحديث عن آليات الممارسة التي ابتدعتها وسائط الإعلام الجديد تحتم علينا الإجابة على سؤال أساس، يتمثل في مدى إمكانية هذه الأدوات في مأسسة ممارسة ديمقراطية في مختلف مكونات الحياة الإنسانية؟ . قبل أن نجيب

على هذا السؤال سندلف، قليلاً، نحو الحديث عن " مجتمع المعلومات "، لنتعرف على مدى مساهمته في صياغة إطار أو منظومة تبلور ومن ثم تصنع مثل هذه الممارسة الديمقراطية؟.

إن تشكيل مجتمع المعلومات الكوني ليست عملية يسيرة وذلك أنه يقف دونها تحديات عظمى، ينبغي مواجهتها . وأول هذه التحديات المعركة الدائرة الآن حول " ديمقراطية المعلومات" ، والتي هي الشرط الموضوعي الذي لا بد من توافره لتفادي أو تجاوز أنظمة التسلط والشمولية. ويرى بعض الباحثين أن ديمقراطية المعلومات تنهض على أساس أربعة مقومات، وهي[17] :

حماية خصوصية الأفراد، وتعني الحق الإنساني للفرد لكي يصون حياته الخاصة ويحجبها عن الآخرين.

الحق في المعرفة، ويُقصد بها حق المواطنين في معرفة كل ضروب المعلومات الحكومية السرية، التي قد تؤثر على مصائر الناس تأثيراً جسيماً .

حق استخدام المعلومات: وتتمثل في حق كل مواطن في أن يستخدم شبكات المعلومات المتاحة وبنوك البيانات بأسعارٍ رخيصة، وفي كل مكان، وفي أي وقت.

الأساس الرابع يمثل ذروة مستويات ديمقراطية الإعلام ، ويُقصد به حق المواطن في الاشتراك المباشر في إدارة البنية التحتية للإعلام الكوني، ومن أبرزها عملية صنع القرار على كافة المستويات المحلية والحكومية والعالمية.

هذه المقومات الأساسية لمجتمع يفترض أن تسوده " ديمقراطية المعلومات " تواجه نقداً من بعض العلماء الاجتماعيين، منطلقين في ذلك من أن مفهوم مجتمع المعلومات لا يصلح كنظرية، لأنه يتسم داخليا بعدم الاتساق ، ولا تؤيده الشواهد العملية . وإن تفسير شيوعه في الخطاب الخاص بالسياسات لا يمكن تفسيره إلا على أساس أيديولوجي. ذلك أن التركيز على مؤسسات التعليم العالي بزعم ضرورة الاهتمام بتكوين الرأسمال الإنساني، بما يتضمنه ذلك من رفع الكفاءة على أساس نمو المعرفة، وأهمية ذلك للدخول في المنافسة العالمية، وما يؤدي إليه ذلك من التوسع في إنشاء جامعات افتراضية Virtual لا أساس له إذا نظرنا إلى حقائق سوق العمل[18] .

استناداً إلى هذه الخلفية المعلوماتية ننتقل للحديث عن السؤال الذي طُرح سابقاً، والمتمثل بمعرفة طبيعة العلاقة بين الإعلام والديمقراطية ومدى إمكانية أن تلعب شبكات الإعلام الجديد في مأسسة ممارسة ديمقراطية تشاركية في مختلف المجالات الإنسانية؟.

الجواب على هكذا سؤال ينطلق من اعتبار الإعلام سليل الديمقراطية لأن انتشار الصحيفة، مروراً بمحطات الإذاعة وقنوات التلفزة وصولاً إلى الوسائط الإعلامية الحديثة، هو انتشار يرتبط جوهرياً مع تعميم الديمقراطية في مجمل مفاصل القطاعات الحياتية ، خصوصاً مفاصل السياسة والاقتصاد والثقافة. فالإعلام حلقة واحدة من حلقات تطور سيرورة الديمقراطية وعلامة مفصلية تشير إلى غيابها بغيابه والى حضورها بحضوره . فقوة الإعلام من قوة الديمقراطية وضعفه من ضعفها، بل أن ثمة آراء وأطروحات تجتهد في إثبات أن الإعلام هو المدخل الحقيقي لتطوير الفعل الديمقراطي.

وللإعلام فضلٌ كبير يتجلى في قدرته على تحقيق التواصل بشكلٍ فعال وتحويل العالم إلى " قرية صغيرة" ، كما

بشر بذلك ماكلوهان، وما يغني هذه النزعة التبشيرية المتفائلة بقدرة الإعلام على تحقيق فعالية كبرى في التواصل هو تلاحق سرعة ابتكارات وسائط اتصالية جديدة من الإذاعة إلى الشاشة، فالفاكس وصولا إلى الانترنت . كذلك؛ يتوقع البعض أن أساس النظام السياسي في مجتمع الإعلام الجديد سيتمثل بالديمقراطية القائمة على المشاركة بدلاً من الديمقراطية النيابية التقليدية في مجتمع الصناعة، إلى جانب المزيد من تدخل وسائل الاتصال في الأمور السياسية بدءاً من تقديم المرشحين للانتخابات وانتهاء بعمليات الحشد والتعبئة السياسية وتسهيل مهمة الحكومة في الحكم، مع استمرار توظيف تكنولوجيا الاتصال الحديثة عبر الوسائل المختلفة المحلية والإقليمية والدولية في معالجة القضايا السياسية التي أُدخلت في العلاقات الدولية وما أطلق عليه " دبلوماسية الإعلام الالكتروني" [19] .

فالعملية الإعلامية في زمن الإعلام الجديد (وفق البعض) لم تعد مركزة في أيدي هيئة واحدة أو عدد محدود ومعلوم من الأشخاص أو الهيئات، التي تحتكر المعلومات وتتولى نشرها بالطريقة التي تناسبها والصيغة التي تخدم أغراضها الخاصة والوقت الذي تحدده، وإنما أصبحت أكثر ديمقراطية - إن صح التعبير - ومفتوحة أمام الجميع على مستوى العالم للمنافسة والنقد والتعديل والقبول أو الرفض[20]

في مقابل هذا كله نجد البعض يذهب خلاف ذلك طارحاً سؤالاً محورياً في هذا المضمار وهو : هل التفاعل الاتصالي يؤدي إلى الديمقراطية ؟ . يجيب عن هذا السؤال الباحث الكندي ميشيل سينيكال فيقول :" إن لفظة التفاعل أُحضر بتضخم في خطاب رجال الأعمال والسياسيين كلما تعلق الأمر بالطرق الالكترونية السيارة للإعلام ، والهدف هو الترويج لمشاريع تجارية وأخرى سياسية تختفي وراء التقدم الإعلامي والاتصالي كأسطورة تقنية ثقافية جديدة"[21] .

إذن؛ وفق هذا الجواب فإن تدويل وسائل الاتصال لا يؤدي بالضرورة إلى التفاعل والتواصل، وهذا يعني أن تطوير تقنيات الإعلام والاتصال لا يطور بالضرورة سيرورة الفعل الديمقراطي، ولا حاجة هنا لإثبات أن العديد من القنوات الإذاعية والتلفزية (كمثال) هي ملك رجال الأعمال أو ملك أنظمة سياسية مستبدة في أفريقيا وآسيا وغيرها . من هنا؛ فان تطور الإعلام (وفق هذا التصور) لا يحمل في طياته تطويرا للديمقراطية، بل تقدم تقني في طرائق الاتصال وأساليب التفاعل بالصوت والصورة (الانترنت مثلاً) من دون إخصاب لديمقراطية سياسية وثقافية[22] .

هذا الطرح يربطنا بقضيةٍ لها صلة وثيقة بغياب " ديمقراطية الانترنت"، تتجلى بالفجوة الرقمية التي تشمل جميع ما يتعلق بمظاهر التفاوت المعلوماتي بين الأمم المتقدمة والأخرى المتخلفة، وأسباب ذلك، وكيفية تجاوز هذه الفروقات عبر ضرورة إقامة بنى تحتية معلوماتية، وتفعيل مقومات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، بحيث يرتكز عليها التطور التكنولوجي والاجتماعي والاقتصادي للدول المتخلفة؛ ما يسمح بتحقيق مستويات عليا من الاتصال الالكتروني، بسعات نطاق فائقة، توفر انسياب المعلومات بالكميات الهائلة المطلوبة، وتدفقها طوال الوقت لأجل المعرفة، والاطلاع والبحث العلمي الالكتروني، وبناء المجتمعات الافتراضية .

والى جانب ذلك؛ فإن الأمر يتعلق أيضاً بإتاحة الفرص الكاملة أمام مختلف لغات الأرض، خصوصاً اللغات

ذات الفعل الحضاري مثل اللغة العربية، واللغات الوطنية الأخرى الفاعلة، لتحقيق الوجود الجماهيري العالمي بمختلف مظاهر التنوع الثقافي، وتأكيد الهوية الوطنية والخصوصية. فاللغة، والثقافة المحلية، والإبداع والابتكار، والمشاركات المحلية بأنواعها في الفضاء الافتراضي تعتبر من أهم مقومات الهوية الوطنية وتحقيق الذات في عالم الإنسان الكوني، بغية المحافظة على ثروات الأمم العقلية، والرمزية، وكفاءات الموارد البشرية المتحركة والكامنة، شاملا ذلك حل مشكلة هجرة العقول بخلق المناخ المحلي- العالمي الذي يخدم المجتمعات المتنوعة ، ويحدث التكافؤ المناسب بين البيئتين الواقعية والالكترونية لدى الجميع[23] .

وعلاوة على ذلك؛ فإن الجانب الأكبر في أهمية إتاحة الانترنت، يكمن بصفةٍ خاصة في مدى سرعة الاتصال الالكتروني، ليتناسب مع الأعداد الهائلة المتزايدة لمستخدميها المتفاعلين عبر الفضاء الرقمي الافتراضي؛ بما يحقق الخدمات الرقمية العادلة للجميع، من دون توقف، وهو الأمر الذي يتزايد طلبه عالمياً باطراد.

وقبل أن نقفل هذه المسألة نود، أن نعرج، قليلاً، على أبرز صور " اللاديمقراطية الالكترونية" في العالم والتي تجسدها الولايات المتحدة الأميركية. فأميركا تحتكر تكنولوجيات الحاسوب والانترنت بصفة خاصة مثل ما يحدث بين الشركات الأميركية العملاقة؛ مايكروسوفت، غوغل، نيتسكيب، صن سيستمز، الخ . فهذه الشركات في معظمها تحتكر منتجات الكترونية برامجية ما؛ تبسط بها سيطرتها بصورة أو بأخرى، وتدير من خلالها توجهاتها المعلوماتية على صناعة تكنولوجيا المعلومات وعالم الانترنت ؛ ومن ثم على عالم الإنسان الجديد في مجتمعه الجديد، وكيف يمكن أن يتشكل ويتكون رقميا . هذا الأمر يدعو بإلحاحٍ ، إلى ضرورة مشاركة مختلف جهود الشركات والدول المختلفة للإسهام في تكوين المجتمعات الافتراضية بمنظورات عالمية متنوعة، من مجتمعات إنسانية طبيعية مختلفة، لها ثقافاتها وهوياتها وقدراتها المتميزة، وألا يُترك الأمر لدولةٍ من دون أخرى، أو لشعبٍ واحد من دون غيره من الشعوب[24] .

خلاصة الكلام في هذا الأمر: تساهم وسائط وشبكات الإعلام الجديد في دفع مسيرة الديمقراطية قدماً وتوسيعها لتؤثر في الإعلام القومي والرسمي بطرقٍ عدة، موفرة أجواء أفضل ومشجعة أكثر عليها . ولكن في مقابل الاستفادة من الفضاء الذي تتيحه هذه الشبكات لزيادة معدل الحرية في التفكير والتعبير والإبداع ومظاهر الديمقراطية عموماً يقفز أمامنا السؤال التالي : ما هي ضمانات ألا " ينقلب السحر على الساحر" ليتحول العالم الذي صنعته هذه الوسائط إلى بديل أو نسخة طبق الأصل من العالم الذي يقلص الحريات ويقيد التفكير والإبداع، خاصة وأن العلاقة بين المستخدِم والمستخدَم تقتصر فقط على الاستهلاك وليس على الإنتاج أو المشاركة فيه. فعوامل الفجوة الرقمية والاحتكار التكنولوجي ومحدودية التعليم والفقر والرقابة وغيرها ما زالت تمثل سوطاً يجلد الدعوات المنادية بـ " ديمقراطية الانترنت ".

الهوامش

1 . محمد فوزي الجبر، الثقافة العربية وثورة المعلومات: قراءة نقدية، شؤون عربية، عدد 121، ص 123.

2 . تُعرف الموسوعة الفلسفية العربية الحرية بأنها: " الأعمال التي نقوم بها والتي لا تخضع لقوانين حتمية تخرج عن سلطتنا، أو هي مجموعة الاختبارات التي نقوم بها من تلقاء ذاتنا دون إكراه خارجي. وفي الوقت ذاته تشير الموسوعة إلى (أن الخروج من مأزق إيجاد تحديد عام مرضٍ لمفهوم الحرية لا يكون إلا بالنظر إلى الدلالات المختلفة التي اتخذها في مختلف حقول المعرفة. انظر: الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد 3، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1997، ص365.

3 . حرية التعبير هي الحرية التي يُعبر المرء من خلالها بفطرته الطبيعية عن ذاته وعن مجتمعه دون عوائق، ويتطلب تحقيق الحرية أن يكون المواطنون مستقلين عن الحكومة أو السلطة بقدر المستطاع، فضلاً عن الإيمان الراسخ بالعقل الذي يألف المناقشة والجدل مع وجود بيئة تتسم بالتسامح تسود فيها حرية التعبير والرأي . للمزيد: انظر:حسين عبد الجبار، اتجاهات الإعلام الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص99. أما بخصوص " حرية الإعلام" فتعرف بأنها " حرية التعبير العامة للفكر في جميع أشكاله، كالتعبير بواسطة الكلمة والخطاب والصراخ والغناء والكتابة أو إصدار المطبوعات أو الصحافة الدورية والمسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون والإعلام الجديد. انظر: محمود الحشاش، حرية الإعلام بين التعزيز والقمع، فصلية الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان،عدد 41 ، تشرين الثاني، 2011، ص17 .

4 . ناصيف نصار، باب الحرية : انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة، بيروت، 2003، ص161.

5 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2010، ص34.

6 . فارس جميل أبو خليل ، وسائط الإعلام بين الكبت وحرية التعبير، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص 134 .

7 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص37.

8 . في العاشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1948 اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد اعتمد بموجب قرار الجمعية العامة 217 ألف (د ـ 3) وكانت المادة الأولى منه تنص على... " يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعاملوا بعضا بروح الإخاء".

9 . صادق مجلس الجامعة العربية على الميثاق العربي لحقوق الإنسان عام 2004، متأخراً 56 عاماً عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

10 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص 55.

11 . محمود الحشاش، حرية الإعلام بين التعزيز والقمع، مصدر سابق، ص18. نود الإشارة هنا إلى أن طريق الصراع في الساحة الفلسطينية وهما حركتي فتح وحماس قد وقعا على إنهاء هذا الانقسام والبدء بإجراءات المصالحة بينهما وذلك في القاهرة في الرابع من أيار / مايو 2011.

12 . سميح محسن، مفاهيم فلسطينية ملتبسة لحرية الرأي والتعبير، فصلية الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان،عدد 41 ، تشرين الثاني، 2011، ص7 .

13 . حسين عبد الجبار، اتجاهات الإعلام الحديث والمعاصر، مصدر سابق، 89.

14 . المصدر السابق، 93.

15 . رغم ذلك إلا أن الأمر لا يخلو من شبهة وخطورة احتمال اندثار بعض مظاهر الثقافات الوطنية، وتمهيد الساحة لهيمنة الثقافات التي تتمتع بقدرة فائقة على الانتشار والتأثير، بفضل ما يساندها من تقدم علمي وتكنولوجي ومادي تفتقر إليه غالبية دول العالم.

16 . نبيل علي، محورية الثقافة في مجتمع المعرفة، في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، كتاب العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ج1، 2010، ص 25.

17 . السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، مصدر سابق، ص77.

18 . المصدر نفسه، ص84.

19 . محمود علم الدين، ثورة المعلومات ووسائل الاتصال: التأثيرات السياسية لتكنولوجيا الاتصال: دراسة وصفية ، السياسة الدولية، عدد 123، 1996، ص111.

20 . أحمد أبو زيد، التكنولوجيا الرقمية والإعلام الجديد، مجلة العربي، عدد 577، كانون أول 2006، ص ص 142 ـ 147.

21 . : محمد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، مصدر سابق، 84.

22 . إن تعميم فكرة وسائل الاتصال وتشديد القول على علاقة الإعلام بالديمقراطية هو من إنتاج رجال المال الذين صاغوا إستراتيجية " حرية التعبير التجاري" باعتبارها حقاً جديداً من حقوق الإنسان . من هنا تكون دعوى التفاؤل بقيام علاقة ضرورية بين وجود الإعلام ووجود الديمقراطية ، دعوى مغرضة تؤكد المظهر الايجابي وتغفل الأعماق السلبية التي تجعل صناعة الإعلام صناعة تجارة وفعل سياسة. للمزيد، انظر: المصدر السابق، ص85.

23 . التكافؤ المناسب بين البيئتين الطبيعة والالكترونية أكدته القمة العالمية لمجتمع المعلومات، في مرحلتها الأولى التي انعقدت في جنيف في سنة 2003؛ وذلك بضرورة عبور الفجوة الرقمية وتعزيز النفاذ إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، وإيجاد فرص رقمية ، وتسخير مختلف إمكانات التكنولوجيا

المعلوماتية لصالح تنمية الشعوب على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذا؛ كان من المقرر في القمة المذكورة، أن الانترنت ستكون متاحة للجميع بحلول العام 2015. للمزيد، انظر: محمد علي رحومة، علم الاجتماع الآلي، سلسلة كتب عالم المعرفة عدد 347، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، ص198.

24 . المصدر السابق، ص199.

المبحث السادس

الانترنت في فلسطين

أدى التطور المتسارع والهائل في تكنولوجيا الاتصال في نهاية القرن العشرين إلى إنتاج وسائل حديثة في التواصل الاجتماعي، عملت على تغيير أنماط حياة الأفراد اليومية، وعلاقاتهم الاجتماعية ، وطرق تفاعلاتهم التقليدية المألوفة.

وتأتي شبكة الانترنت في مقدمة هذه الانجازات دون منافس؛ إذ عملت أكثر من أية وسيلة أخرى على إحداث تغييرات جذرية، مست حياة الناس وطالت جوانب حياتهم السياسية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتربوية . كما أن هذه الشبكة العنكبوتية ساهمت، في الوقت نفسه، على تغيير واضح في طبيعة الوسائل الاتصالية الأخرى التي تعود عليها المجتمع، وفي نمط الثقافة السائد بين أفراده، إلى الحد الذي يمكن معه القول بأن ثقافة الانترنت، طغت على تلك الثقافة، أو هي في طريقها إلى ذلك[1].

ويجمع علماء العصر على أن التطور الإلكتروني ممثلاً بالانترنت، كان واحدًا من ثلاثة تطورات تكنولوجية أساسية، لحقت بالعصر الحالي، وستبقى تخلف أعظم الآثار على عصور قادمة، وهي تطور العلوم التطبيقية والتكنولوجية المتعلقة بالبيولوجيا، وتطور الأبحاث المتعلقة بالفضاء والتطور الإلكتروني، المتعلق قبل أي شيء آخر، بالاتصالات والإعلام. ويؤكدون على أن انعكاسات الثورة التكنولوجية قد شملت كامل مراحل الاتصال والإعلام، وكانت سببًا رئيسًا فيما وصلت إليه العولمة من تأثيرات ومكانة. وهذا بدا واضحًا في سرعة تنوع أشكال وسائل الإعلام، وتكيفها مع التطور الجديد، انطلاقا مما تركته الثورة التكنولوجية من بصمات واضحة على مراحل تجميع المادة الإعلامية وإظهارها ومعالجتها وإنتاجها ثم بثها وتوزيعها، حتى شملت كيفية ونوعية الاستماع والتعامل مع وسائط الإعلام الجديد[2] .

ويشبه بعض الباحثين التغييرات والتأثيرات التي أحدثتها الانترنت في حياة الناس وثقافتهم، بتلك التي أحدثها فيهم التلفون في مطلع القرن العشرين، والتلفزيون في مرحلة الخمسينيات والستينيات. ويذهب بعضهم في تشبيهه لقوة هذه التغييرات إلى أبعد من ذلك؛ إذ يعادل بينها وبين التغييرات التي أحدثتها الحروف الهجائية في مسيرة المجتمع الإنساني. ونظراً للثقافة الجديدة التي أدخلتها الانترنت على المجتمعات بخصائصها الفريدة فإن بعض المتخصصين في العلوم الاجتماعية يطلقون عليها مصطلحاً جديداً هو " ثقافة الانترنت" لتمييزها عن الثقافة بمفهومها السائد وخصائصها المعروفة لدى هؤلاء المتخصصين[3].

ورغم أن كل وسيلة من وسائل الاتصال والإعلام التي أوجدها الإنسان عبر مسيرته، أحدثت ضجة في حينها

، واستقطبت اهتماماً خاصاً بها، وأدخلت تغييرات غير مألوفة من قبل، إلا أن التغييرات والتأثيرات التي أوجدتها الانترنت في حياة الناس غير مسبوقة، وبخاصةٍ في المجال الثقافي والاجتماعي؛ إذ أوجدت الانترنت، بحكم تركيبتها الفريدة وطريقة عملها المتميز، ثقافة من نوعٍ خاص تختلف عن المفهوم التقليدي للثقافة[4].

وإذا ما تطرقنا إلى أهمية البعد السياسي في الانترنت، يمكن القول أن هذه الشبكة الالكترونية بما تتضمنه من وسائط إعلامية جديدة وفرت للأشخاص والهيئات فرصة التعبير عن مواقفهم وتصوراتهم في شتى القضايا، وإيصال أصواتهم إلى القادة السياسيين وغيرهم، بالإضافة إلى أنها ضخت معطيات ضخمة من المعلومات تمكنهم من إجراء موازنات حول القضايا التي تهمهم. وهذه المعطيات تعتبر المادة الخام التي تستخدمها المنظمات والأفراد على حد سواء في التعبير عن مواقفهم تجاه ما يطرح من قضايا ومستجدات، والاستدلال بها في حالة تبني موقف مغاير لموقف آخر[5].

كذلك؛ هنالك من يرى أن الإنترنت باتت أداة المعارضة العربية للتعبير عن وجهة نظرها ضد تسلط الأنظمة العربية ومحاولتها الهيمنة الإعلامية، وكبت حرية الرأي والتعبير، وهي أداة للمقاومة، ومن ثم " نستطيع أن نطلق على هذه المعارضة إعلام المقاومة، أو الإعلام المقاوم . فمثل هذه الظاهرة لها تأثيرات كبيرة واسعة في العالم العربي، وليس كما يمكن أن يقال إنها معارضة نخبوية "[6].

كما ولم يقتصر استخدام الانترنت على الجمهور، بل أن النخب السياسية استخدمت هذه التقنية كوسيلة مباشرة للاتصال والتأثير لتشكيل الرأي العام، مما حدا بقادة المجتمع إلى السعي للسيطرة على وسائل الإعلام إدراكاً منهم لأهميته، والاستحواذ على الإعلام في اهتماماتهم. إلى جانب ما للإعلام من دورٍ في تزويد السلطة بالمعلومات وتفسيرها وتأويلها عن الأحداث، وبناء وهيكلية المجتمع، والحقائق السياسية والرأي العام، وسواها .

وانطلاقاً من هذا المدخل العام عن الانترنت باعتبارها تقنية تكنولوجية فريدة من حيث الاختراع والوسائل والاستخدامات، نتجه للحديث، وبعجالةٍ، عن واقع الانترنت على الصعيدين الدولي و العربي، لنتطرق بعد ذلك إلى مدى انتشار هذه التقنية الحديثة في المشهد الفلسطيني.

أولاً: الانترنت على الصعيد العالمي

بلغ عدد مستخدمي الانترنت بالعالم في ديسمبر 2007 مليار و319 مليون شخص، لتحتل الصين الدولة الأولى في عدد المستخدمين بواقع 221 مليون مستخدم في فبراير 2008 [8] . وفي مطلع العام 2011 أعلن الاتحاد الدولي للاتصالات أن عدد مستخدمي الانترنت في العالم وصل إلى ملياري مستخدم ، في وقتٍ بلغ عدد المنتسبين لخدمة الهاتف النقال أكثر من خمسة مليارات نسمة.

وذكر الاتحاد أنه في مطلع سنة 2000 بلغ عدد مستخدمي الهواتف النقالة في العالم نصف مليار، بينما بلغ عدد مستخدمي الانترنت 250 مليون. وأشار الاتحاد إلى أن قارة آسيا تأتي في المرتبة الأولى من حيث عدد المستخدمين، فيما تليها قارة أوروبا ثانيا، وأميركا الشمالية ثالثا، ثم أميركا اللاتينية ومنطقة

الكاريبي، تليها أفريقيا وأخيراً استراليا[9].

ووفق الإحصاءات فان معدل النمو في استخدام شبكة الانترنت في العالم ارتفع خلال فترة ست سنوات بمعدل 200،9 % ، ووصلت نسبة السكان في العالم الذين يستخدمون شبكة الانترنت إلى 16،7% من مجموع السكان . هذه الزيادة مردها التحسن في خدمات الانترنت ISPs والتوسع في استخدامات النطاقات العريضة Broadband ، إلى جانب عنصري الحاجة وصناعة المحتوى وإثرائه، فضلاً عن التحولات في البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، خاصة خلال العقدين الماضيين، بما حملهما من تطوراتٍ تكنولوجية كان لقطاعي الاتصال والإعلام نصيب كبير منهما[10].

إلى ذلك فقد ظهرت العديد من الاستطلاعات والأدبيات التي تسلط الضوء على الاختلافات في الوصول للتكنولوجيا عامة والانترنت خاصة ، وكذلك إمكانيات استخدامها ، خاصة وأن الانترنت تتميز بخاصيةٍ استثنائية وفريدة لكونها تجمع العديد من تكنولوجيات المعلومات والاتصالات في أداةٍ واحدة مما يجعلها الأكثر قوة وتأثيرا على الأفراد والمجموعات.

فكثافة انتشار التكنولوجيا في العالم لا يتوافق أو يتواءم مع عدد سكان الدول أو زيادة أفرادها. ففي موقع إحصاءات الانترنت العالمية يمكن متابعة وتطور وازدياد استخدام الانترنت في العالم . يبين الموقع أن آسيا تشكل 56،5% من سكان العالم فيما تشكل فقط 35،8% من مجمل مستخدمي الانترنت في العالم ، بالمقابل فان أميركا الشمالية تشكل 5،1% من سكان العالم فيما تشكل 20،1% من مجمل مستخدمي الانترنت على المستوى العالمي. وأوروبا التي تشكل 12،3% من سكان العالم تمثل 28،3% من إجمالي مستخدمي الانترنت ، وأفريقيا التي تشكل 14،2% من سكان العالم تمثل 3،6% من مجمل مستخدمي الانترنت عالمياً.

كذلك؛ فإن أمريكا الشمالية والدنمارك تتصدران مقدمة العالم في الجاهزية التقنية ، ثم تليها دول غرب أوروبا (سويسرا، السويد، بريطانيا) أما إسرائيل فيأتي ترتيبها في المكانة الـ 22 عالميا، مباشرة بعد اليابان، متصدرة بذلك دول الشرق الأوسط في مجال التقنيات بما فيها الدول العربية والإسلامية، في الوقت الذي تبرز فيه الإمارات التي تحتل المكانة الـ 30 ، بينما ماليزيا تحتل المكانة الـ 37 والسعودية 46 . أما فلسطيني الداخل فالفجوة الرقمية بينهم وبين إسرائيل عالية جداً، ففي الوقت الذي يشكل فيه العرب في داخل إسرائيل خمس المواطنين ، إلا أنهم لا يصلون إلى هذه النسبة في مجال استخدام الحاسوب والانترنت ، فالفجوة الرقمية كبيرة بين المجتمع العربي واليهودي. فالعرب يستخدمون الحاسوب بنسبة 48،2 أما اليهود فبنسبة 71%، أما الاتصال بالانترنت عبر البيت فنسبة العرب 46 % بينما اليهود فهي 85،5 ، أما بخصوص استخدام الانترنت فهي للعرب 63،8 % ولليهود 87،9 %. وإذا نظرنا إلى الدول المجاورة لنا نجد أن الأردن تتصدر المكانة الـ 54 ومصر المرتبة 55 .

تبين المعطيات عالميا الهوة الرقمية الشاسعة بين الدول المتقدمة اقتصاديا والأقل منها تقدما،فعلى الغالب ينظر إلى الفجوة الرقمية كعامل إضافي ينضم إلى الفجوات الاقتصادية والاجتماعية القائمة بين الأفراد والجماعات. وعند الحديث عن الفجوة الرقمية لا بد من تحديد مجموعات المقارنة لهذه الفجوة، وهذه المجموعات قد تكون دولا مختلفة

أو مجموعات عرقية، ذكورا وإناثا، أجيال مختلفة، مجموعات ثقافية، مجموعات بمستوى علمي مختلف وغير ذلك من التقسيمات[11].

ثانياً: الانترنت في العالم العربي

أما بخصوص العالم العربي فقد ظهرت خدمة الانترنت فيه متأخرة عن ظهور الشبكة في الدول الأخرى ، خاصة الغربية منها، حيث برزت في السنوات الأولى من تسعينيات القرن الماضي مجموعة من المواقع العربية التي تتعامل باللغة الانجليزية، ويعتبر موقع الشبكة العربية (Arab Net) من المواقع العربية الأولى التي دخلت عالم الانترنت، والذي تأسس من قبل الشبكة السعودية للأبحاث والتسويق في لندن في أواخر العام 1994، ومن ثم دخلت الكويت هذا المجال عبر الشبكة الكويتية وبعدها توالت مختلف الدول والمؤسسات العربية في الدخول إلى الانترنت[12] .

وشهد عاما (1997 ـ 1998) نمواً كبيراً في مستخدمي الانترنت في الدول العربية، إذ ارتفع من حوالي 150 ألف مستخدم في بداية العام المذكور إلى أكثر من 356 ألف مستخدم في نهاية العام ، وبلغت نسبة النمو 237،5% ، بينما ارتفع عدد المستخدمين العرب إلى أكثر من 700 ألف مستخدم في نهاية عام 1998، أي بزيادة ما يقارب 197 % عن عام 1997[13].

إلى جانب ذلك فإن إحصاءات العام 2006 تشير إلى النمو المتسارع في استخدام شبكة الانترنت في العالم العربي ، حيث قدر عدد مستخدمي الانترنت المتكلمين باللغة العربية حوالي 28 مليونا ونصف المليون، أي حوالي 2،5% من تعداد المستخدمين في العالم، وهي تمثل المرتبة العاشرة في العالم[14] . وقد حقق مستخدمي الانترنت الذين يتكلمون اللغة العربية أكبر وتيرة نمو في العالم كله في الفترة 2000 ـ 2007، حيث بلغت نسبتها 931،8 % ، كما أن حوالي 60% من مستخدمي الانترنت في العالم العربي موجودون في منطقة دول الخليج العربي ، والتي تمثل حوالي 11 % من تعداد سكان العالم العربي. وفي أيلول/ سبتمبر من عام 2009 بلغ إجمالي عدد مستخدمي الإنترنت في العالم العربي 38 مليونا، حيث سجلت دولة الإمارات أعلى معدل انتشار وصل إلى 49.8 % من إجمالي عدد السكان، تلتها قطر بنسبة 34.8 %، والبحرين بنسبة 34،7%[15].

أما في الجانب الثقافي، فالعالم العربي بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت للانفتاح على الثقافات الأجنبية وتحقيق نوع من التوازن بين ما يتلقاه منها وما يساهم به من ثقافاته المحلية، إذ من الصعب رؤية العالم من منظور واحد والتحرك من موقع الدفاع فقط. والى جانب هذين التحديين هناك التحدي السياسي ممثلاً بالأطر الرسمية العربية التي تسعى لإبقاء التحكم على وسائل الإعلام كافة، مخافة ما تسببه حرية الإعلام، سيما المتعلقة بوسائط الإعلام الجديد للأنظمة العربية من تهديد وقلق.

ورغم كل هذه التحديات، فإن الانترنت في العالم العربي تمثل منبراً جديداً، تتيح فرصاً عديدة للمواطن العربي، فهي تساهم في منح العرب أن يقدموا أنفسهم لجمهور عالمي، وان ينشروا ثقافتهم وتراثهم على الصعيد العالمي، إلى جانب ما توفره هذه التقنية الحديثة من تشجيع للنقاش والحوار الحر بين العرب أنفسهم[16] .

فيما يلي قائمة باستخدامات الانترنت والاتصالات العربية لعام 2009 [17] .

الاستخدامات	الكمية والدول
عدد مستخدمي الانترنت العرب	٥٨ مليون مستخدم
عدد التليفونات المحمولة في العالم العربي	١٧٦ مليون
عدد خطوط الهاتف الأرضي بالعالم العربي	٣٤ مليون خط
عدد مستخدمي الفيسبوك في العالم العربي	نحو ١٢ مليون
عدد المدونات العربية	نحو ٦٠٠ ألف ، والناشط منها ١٥٠ ألف تقريباً
أكبر الدول لعدد مقاهي الانترنت	الجزائر ١٦ ألف مقهى ونادي للانترنت
أكثر عدد لمستخدمي الانترنت	مصر :١٥ مليون مستخدم
اقل عدد لمستخدمي الانترنت	موريتانيا : ٦٠ألف مستخدم
أكثر الدول استخداما لموقع الفيسبوك	مصر ، لبنان والجزائر
اكبر عدد لخطوط الهاتف المحمول	الإمارات : ٧،٥ مليون خط
أعلى نسبة لعدد مستخدمي الانترنت مقارنة بعدد السكان	الإمارات: ٢،٨٦ مليون مستخدم بنسبة تزيد على ٥٠٪ من إجمالي السكان
اشد الدول رقابة على الانترنت	السعودية وتونس
اشد الدول قمعا لنشطاء الانترنت	مصر
أفضل الدول تعاطيا مع الانترنت	لبنان، والجزائر
أفضل الدول لخدمات الانترنت	المغرب
أكثر الدول تصنتا على مستخدمي قطاع الاتصالات	لبنان ومصر
أكثر الدول تطرفا في مواقع الانترنت	السعودية
أكثر الدول التي يبث منها مواقع علمانية	المغرب، ولبنان ومصر
أفضل التجارب لتجمعات المدونين ونشطاء الانترنت	المغرب
أكثر الدول استخداما لموقع يوتيوب	مصر

ثالثاً: الانترنت في فلسطين

عرفت فلسطين الصحافة الإلكترونية مبكرًا، إذا ما قورنت ببعض الدول العربية، وذلك لأسباب من ضمنها: توافر الخدمة المتطورة التي تقدمها شركات إسرائيلية كبرى متخصصة في هذا المجال، ومحاولة الفلسطينيين محاكاة الدولة العبرية في استخدامها الشبكة، لاعتقادهم بالدور الذي يمكن أن تلعبه الصحافة على الإنترنت في الصراع الإعلامي والتعريف بالقضية الفلسطينية، ومعاناة الشعب الفلسطيني[18] .

وقد كان الحضور الفلسطيني على شبكة الانترنت معادلاً موضوعيًا للوجود، وللرغبة في تأكيده على أرض الواقع وفي ميدان المواجهة. وقد مثل هذا ـ علاوة على نشر المعلومات والتعريف بالقضية وفضح السياسات الإسرائيلية ـ تحقُّق رغبة

داخلية في مقاومة النفي والإلغاء، ومحاولة الطمس المتكررة من قبل دولة الاحتلال؛ فحلم الدولة الفلسطينية قد تحقق في العالم الافتراضي من خلال انتشار العديد من المواقع الفلسطينية التي تحمل اسمها، وهي مواقع تنوعت ما بين رسمية وغير رسمية، وعنيت بمختلف ميادين الحياة بالداخل والخارج، فكانت الإنترنت نافذة يخترق بها الفلسطينيون الحصار المفروض عليهم من قبل الاحتلال، ويطلون منها على العالم متصلين ومتواصلين[19].

أما عن دخول الإنترنت للأراضي الفلسطينية، فيؤرخه البعض عند منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وقد تم ذلك على يد أكاديميين في الجامعات الفلسطينية، وبالتعاون مع زملائهم من الفلسطينيين في الجامعات الأمريكية، وتحديدًا في عام 1994م حيث تم استحداث أول شركة خاصة لتقديم خدمات الإنترنت، وكذلك استحداث "الشبكة الأكاديمية الفلسطينية"، كمنظمة غير ربحية بدعم من السلطة الوطنية الفلسطينية، لتقديم خدمات الإنترنت في الجامعات، ومراكز البحوث، ومؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية[20].

وقد اقتصرت خدمات الإنترنت في السنوات الأولى على تقديم خدمة البريد الإلكتروني، وذلك عبر ما توفره مؤسسة "بال نت" للجامعات والكليات ومراكز الأبحاث الأكاديمية الفلسطينية في مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية، وبعد ذلك بفترة قصيرة قامت مؤسسة "الإنترنيوز ـ الشرق الأوسط" بمهمة إدخال التكنولوجيا الحديثة في العمل الإعلامي في الأوساط الإعلامية الفلسطينية، وشيئًا فشيئًا ازدادت الخدمات المتاحة من قبل الشركات الفلسطينية المزودة للخدمة. ومع تطور هذه الشركات أصبح هناك المئات من المواقع الإلكترونية الفلسطينية على الشبكة، وأصبح للعديد من المؤسسات الأهلية والخاصة والرسمية والتجارية والإعلامية والأكاديمية مواقع تعبر عن أهدافها وسياساتها، وتعمل على تقديم صورة مّا عن القضية الفلسطينية إلى العالم[21].

ومع حلول عام 1998م كان عدد الشركات الفلسطينية التي تقوم بتزويد خدمة الإنترنت في فلسطين 9 شركات، ثم زاد فوصل عددها إلى 13 شركة مع مطلع عام 2001م في مختلف المحافظات الفلسطينية، وهو الأمر الذي ساهم في زيادة عدد مقاهي الإنترنت ومرتاديها والمشتركين فيها، وبذا تضاعف عدد المؤسسات التي تستفيد من هذه الخدمة بشكل متزايد مع كل يوم. كما أدى ذلك إلى حصول فلسطين على مجال خاص بها على شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت"، والذي سُجّل في الثاني والعشرين من شهر آذار 2000م، وتم تفعيله باليوم التالي[22].

أما القفزة النوعية في عدد المواقع الإعلامية الفلسطينية على الشبكة؛ فكانت مع بدء انتفاضة الأقصى 2000م، وما صاحبها من معارك إعلامية بين وجهة النظر الفلسطينية والإسرائيلية عن أحداث الانتفاضة، فكان من الواضح أن الإنترنت هي الوسيلة الإعلامية الوحيدة التي يمكن من خلالها الوصول لأكبر عدد من الأشخاص في العالم، دون الحاجة لإمكانات أو قدرات عالية، ودون الخوف من السيطرة الغربية على وسائل الإعلام الدولية. فانتفاضة الأقصى ساهمت في دعم استخدام الإنترنت على مجال واسع، والصحافة الإلكترونية في فلسطين على وجه أخص. وتضاعف عندئذٍ عدد المواقع الإخبارية التابعة لفصائل المقاومة، بحيث أصبح لكل فصيل موقع أو أكثر، وكذلك المواقع التي تتبع القطاع الخاص، أو المؤسسات الحقوقية والمراكز الصحافية المستقلة[23].

وتمكنت الانترنت بسرعةٍ كبيرة من احتواء وسائل الإعلام التقليدية الفلسطينية، التي أقرت بهذا بشكلٍ غير مباشر،

حيث عمدت كافة الصحف ومعظم المجلات، ومحطات التلفزة الخاصة، وإذاعة صوت فلسطين إلى فتح نافذة لها عبر شبكة الانترنت، لإدراكها ضرورة السرعة في نقل الأخبار والمعلومات، ومواكبة كل المتغيرات.

لقد أصبحت الانترنت ظاهرة شعبية كبيرة في فلسطين بعد عام 2000، وخاصة بعد دخول تقنيات الـ ADSL، وأدى دمج الشركات الصغيرة التي تتاجر بالانترنت، بشركة " حضارة " التابعة لمجوعة الاتصالات الفلسطينية، إلى تحويلها لسلعة يرغب الجميع باقتنائها . كما وساعد انفجار الوضع السياسي بشكل دراماتيكي منذ انتفاضة الأقصى، ودخول الأراضي الفلسطينية في تجربه ديمقراطية شاركت فيها كافة الأطياف السياسية بما فيها حركة حماس، إلى التوجه إلى ميدان الانترنت لكسر أحادية الخطاب الإعلامي التلفزيوني الممول من الحكومة، والى توجه كافة الأحزاب والفصائل الفلسطينية والتجمعات الجماهيرية لاستخدام الانترنت وما نجم عنه من وسائط إعلامية جديدة لاحقاً.

ومع ضعف شبكات التواصل التقليدية مثل البريد الورقي، والتكلفة المادية والزمنية العالية، ومع المعيقات الكبيرة التي سببها الاحتلال، في فصل المدن الفلسطينية جغرافيا عن بعضها، أصبح استخدام الانترنت أمراً أساسياً في حياة الفلسطينيين، ويكفي التذكير أن تجربة " البوابة الالكترونية " لجامعة بيرزيت قد نشأت وتطورت بعد انقطاع التواصل الجغرافي، بين الطلبة وجامعتهم ، إبان عملية ما يسمى بـ " السور الواقي" التي شنها جيش الاحتلال الإسرائيلي على الضفة الغربية في آذار 2002.

كذلك؛ فقد كان للحراك الاجتماعي والثقافي في فلسطين اهتماماً بالغاً للاستفادة من تقنية الانترنت في تطوير مجاله الخاص. فالخريجون الجدد الباحثون عن العمل(مثالاً) استخدموه لإيجاد فرص عمل خاصة بهم . وباتت صفحات الانترنت مع تطور محركات البحث، ميداناً أساسياً يستخدمه الطلاب في أبحاثهم الأكاديمية، الأمر الذي حدا بالجامعات الفلسطينية إلى تطوير قوانين جديدة تنظم علاقة الطلاب بالانترنت[24].

وعلى الرغم من الوضع الاقتصادي الصعب إلا أن إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني عام 2004 ، أكدت أن استخدام الجمهور الفلسطيني للانترنت والكمبيوتر بازدياد ملحوظ ، وأظهرت نتائج مسح الكمبيوتر والانترنت والهاتف النقال أن (35،7%) من المواطنين بالضفة وغزة من سن(10 سنوات فأكثر) يستخدمون الحاسوب، وأن البيت هو أكثر مكان يُستخدم فيه الحاسوب (47%) وأن (33،3%) يستخدمون الانترنت، و(30%) يمتلكون هواتف نقالة. وبخصوص الاتصال بشبكة الانترنت فقد بينت النتائج أن (9،2%) من الأسر في الأراضي الفلسطينية لديها اتصال بالانترنت . وبينت أن (38،4%) من الأفراد (10 سنوات فأكثر) الذين يستخدمون الانترنت، يستخدمونها في المقام الأول في البيت، وأن (27،5%) يستخدمون الانترنت أكثر الحالات لغرض الاطلاع والمعرفة. كما بلغت نسبة الأفراد (10 سنوات فأكثر)، ويملكون البريد الالكتروني (65،5%)؛ كما وبينت النتائج أن (93،9%) من الأفراد يستخدمون البريد الالكتروني ، يستخدمونه أكثر شيء في المراسلات الشخصية.

وبعد عام تقريبًا أجري استطلاع للرأي[25]، شمل عينة عشوائية حجمها (1040) شخصًا، يمثلون نماذج سكانية من الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية وقطاع غزة فوق سن 18 عامًا، وأكدت نتائج هذا الاستطلاع النموَ المضطرد في استخدام الشبكة الدولية، إذ أظهرت أن 37.6% من الجمهور الفلسطيني يستخدم الإنترنت، منهم 52.1% ذكور

و47.9% إناث. كما أظهر الاستطلاع أن 60.8% يملكون جهاز كومبيوتر في البيت، وأن 41.6% منهم يستخدمون الإنترنت في البيوت، وهي النسبة الأعلى. وحول السبب وراء استخدام الإنترنت – فيما عدا البريد الإلكتروني – أوضح الاستطلاع أن 17.7% من الجمهور يستخدمه لمتابعة الأخبار، و18.8% للمراجع التعليمية، و7.1% للمراجع المهنية، و10.2% للحصول على معلومات تجارية واتصالات، و2.3% للسفر والحصول على معلومات سياحية، و22.5% للدردشة، و4.1% للحصول على الأخبار الرياضية، و13.2% أمور ترفيهية أخرى، و1.3% للحصول على معلومات ومشتريات للمستهلك.

أما النتائج الأولية للمسح الأسري لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في عام 2006م الذي نفذه "الجهاز المركزي للإحصاء"، والذي هدف إلى قياس مجتمع المعلومات والمعرفة الفلسطيني أشار إلى أن نصف الأفراد يعرفون استخدام الإنترنت 9.49%، بينما 4.18% من الأفراد يستخدمون الإنترنت فعلاً. وفيما يتعلق بالهدف الرئيسي من استخدام؛ فقد كانت: الدراسة، والتسلية، والاطلاع على رأس قائمة الأهداف الرئيسية لاستخدامها، حيث بلغت النسبة 3.19%، و5.16%، و4.15% على التوالي، وبينت النتائج أن الغالبية العظمى من الأفراد يستخدمون البريد الإلكتروني لأغراض المراسلات الشخصية 1.93%[26].

ووفقا لاستطلاع رأي آخر أجراه مركز العالم العربي للبحوث والتنمية "أوراد" لرصد الأنماط الحياتية للشباب، والقيم، والاتصالات ومصادر المعلومات، والتوجهات السياسية والاجتماعية، والتوقعات والقضايا الحزبية، وشارك فيه 1200 شاب وشابة، تتراوح أعمارهم بين (16-25 عامًا) في الضفة القطاع والقطاع، فقد أظهر أن 54% من الشباب الفلسطيني يستخدمون الإنترنت.

ومن نتائج المسح الأخرى تظهر النتائج التالية[27]: خُمس المستطلعين 21% يستخدمون الإنترنت يوميًا، كما صرح 19% من المستطلعين بأنهم يستخدمون الإنترنت أكثر من مرة أسبوعيًا، و14% يستخدمونه لمرة واحدة أسبوعيًا. كما أشار المسح إلى أن 51% من الشباب يستخدمون "الماسنجر" للمحادثة عبر الإنترنت، و5% يستخدمون "الفيسبوك". وقد أظهرت النتائج أن 49% من الإناث المستطلعات يستخدمن المواقع الاجتماعية، في حين 73% من الذكور يستخدمونها. كما أن 62% من الذكور يستخدمون الماسنجر، مقابل 40% من الإناث.

وحول مصادر المعلومات السياسية جاءت شبكة الإنترنت بالمرتبة الرابعة، إذ يعتمد 10% من الشباب على الشبكة للحصول على المعلومات السياسية، في حين يعتمد 47% من الشباب المستطلعين على التلفزيون، وعلى الأصدقاء بنسبة 18%، في حين يعتمد 13% من المستطلعين على والديهم في الحصول على المعلومات حول القضايا السياسية. وجاء في المرتبة الخامسة القادة السياسيون بنسبة 7%، والمساجد بنسبة 3% ومعلمو المدارس بنسبة 2%.

وفي إحصاءات الجهاز المركزي الفلسطيني لعام 2007، تبين أن عدد الفلسطينيين المشتركين بالانترنت يقدر بـ (529475) ، منهم (366643) في الضفة الغربية ، و(162833) مشتركا في قطاع غزة ، وإذا علمنا أن الاشتراك الواحد يخدم أسرة واحدة على الأقل، أن لم يكن أكثر، وأن كثيراً من طلبة الجامعات الذين ينتقلون للسكن في مساكن خاصة للطلبة ، يستخدمون مقاهي الانترنت، أو مرافق الجامعات والنوادي ، فان نسبة مستخدمي الانترنت قد

تزيد عن ذلك الرقم كثيراً .

وفيما يلي نستعرض أهم وأبرز مؤشرات مجتمع المعلومات في الأراضي الفلسطينية والواردة في آخر تقرير لمركز الإحصاء الفلسطيني لسنة 2011[28].

48.8% من الأسر لديها جهاز حاسوب في العام 2010، بواقع 49.9% في الضفة الغربية، و46.6% في قطاع غزة، مقارنة مع أكثر من الربع بقليل من الأسر لديها جهاز حاسوب في العام 2004. أما بخصوص الاتصال بالإنترنت، فقد بينت النتائج أن 29.1%من الأسر في الأراضي الفلسطينية لديها اتصال بالإنترنت في العام 2010، مقارنة مع 9.2% من الأسر في العام 2004.

أظهرت البيانات أن 93.8% من الأسر لديها هاتف نقال في الأراضي الفلسطينية في العام 2010، مقارنة مع 72.8% في العام 2004. هذا وقد بلغت نسبة الأسر في الأراضي الفلسطينية التي لديها هاتف ثابت 45.5% في العام 2010، بواقع 48.5% في الضفة الغربية، و39.7% في قطاع غزة، مقارنة مع 40.8% من الأسر في الأراضي الفلسطينية في العام 2004.

أشارت البيانات في العام 2009 إلى أن أكثر من نصف الأفراد (10 سنوات فأكثر)، في الأراضي الفلسطينية يستخدمون الحاسوب، مقارنة مع 35.7% للعام 2004. في حين أشارت البيانات إلى أن حوالي ثلث الأفراد يستخدمون الإنترنت في الأراضي الفلسطينية في العام 2009، بواقع 32.7% في الضفة الغربية، و31.5% في قطاع غزة. وتتفاوت هذه النسبة بين الذكور والإناث حيث بلغت (38.2%، 26.2%) على التوالي، مقارنة مع 11.9% من الأفراد يستخدمون الإنترنت في الأراضي الفلسطينية في العام 2004.

9.1% من الأسر يمتلك أحد أفرادها موقعا على الإنترنت في الأراضي الفلسطينية في العام 2009، مقارنة مع أسرة من كل عشرين كان يمتلك أحد أفرادها موقعا على الإنترنت في العام 2004.

شخصان من كل عشرة لديهم بريد إلكتروني في الأراضي الفلسطينية في العام 2009، مقارنة مع شخص من كل عشرين لديهم بريد إلكتروني في العام 2004.

87.9% من الشباب (15-29) سنة في الأراضي الفلسطينية يستخدمون الحاسوب في العام 2009، مقارنة مع 47.6% في العام 2004. هذا وما زالت الفجوة قائمة بين الذكور والإناث فيما يتعلق باستخدام الحاسوب، اذ بلغت للذكور 91.0% مقابل 84.4% للإناث في العام 2009. 46.7% من الشباب يستخدمون الإنترنت في الأراضي الفلسطينية عام 2009، مقارنة مع 20.3% في العام 2004 . وتتفاوت هذه النسبة بين الذكور والإناث حيث بلغت (53.0%، 40.2%) على التوالي.

87.3% من المستخدمين للإنترنت يستخدمونها بغرض الاطلاع والمعرفة، و68.2% يستخدمونها بغرض الدراسة و60.8% بغرض الاتصال، فيما 75.1% بغرض التسلية والترفيه، في حين بلغت نسبة الشباب الذين يستخدمون الإنترنت بغرض العمل 11.8% في العام 2009.

32.9% من الشباب في الأراضي الفلسطينية يمتلكون بريد إلكتروني مقارنة مع اقل من خمس الشباب يمتلكون

بريد الكتروني في العام 2004.

29.6% من إجمالي المنشآت في الأراضي الفلسطينية استخدمت الحاسوب في العام 2009، مقارنة مع 21.3% في العام 2007. كما بلغت نسبة المنشآت التي تستخدم الإنترنت 20.4% من إجمالي المنشآت في العام 2009، مقارنة مع 12.7% في العام 2007. فيما بلغت نسبة المنشآت التي قامت بمعاملات تجارية إلكترونيا 4.2% من إجمالي المنشآت في العام 2009، مقارنة مع 2.3% في العام 2007.

النمو الكبير الذي يشهده قطاع الانترنت في الأراضي الفلسطينية يعود في المقام الأول إلى صعوبة الاتصالات العادية مع الخارج بالنسبة للمواطن العادي نتيجة للظروف السياسية والأمنية الصعبة، ولذا تصبح الانترنت هي النافذة الوحيدة المتاحة إلى العالم. كما أن صعوبة الانتظام في الدراسة الجامعية بسبب الحصار والاحتلال تدفع الكثيرين لتبادل المواد العلمية والمعلومات عبر الانترنت لمحاولة إكمال الدراسات الجامعية العليا. وإلى جانب ذلك كله فإن الزيادة هذه مردها، أيضاً، إلى ما تقوم به شركة الاتصالات الفلسطينية، وشركات الإنترنت العاملة في فلسطين من خدمات وتسهيلات للمواطنين، وإلى زيادة الوعي بأهمية التواصل الإنساني عبر الشبكة، ومتابعة الأخبار، والاستفادة من كم الخدمات التي تقدمها الشبكة[29].

ومما ساهم في هذا النمو انتشار "مقاهي الانترنت" بشكلٍ واسع ومطرد في الأراضي الفلسطينية، حيث يرتاد الكثير من الشباب الفلسطيني هذه المقاهي تجاوزاً لصعوبة الاستخدام المنزلي لعدم القدرة في شراء أجهزة الحاسوب من جهة، والابتعاد عن الضوضاء الذي قد يحدثه أفراد العائلة من جهة أخرى. هذه المقاهي تحولت في شتى الأراضي الفلسطينية إلى منبرٍ حر مفتوح لجميع الفئات العمرية لشرح المعاناة المستمرة وفضح ما تقوم به قوات الاحتلال الإسرائيلي من ممارسات قمعية وإجراءات عنيفة بحق الفلسطينيين، إلى جانب الابتعاد عن أعين الأهل، خاصة في حال الدخول إلى مواقع يرفضها الأهل انطلاقاً من أنها تتنافى مع قيمهم وتربيتهم[30].

هذه الزيادة المطردة تتلازم مع تميز مستخدمي الإنترنت الفلسطينيين من خلال أن المواقع الإخبارية والسياسية تأتي على رأس اهتماماتهم، وذلك أكثر من أية دولة عربية أخرى، وهو ما يعزوه البعض إلى ظروف الحياة اليومية التي يستحيل فصلها عن الحدث السياسي وتقلباته، ولأسباب تاريخية ترتبط بالقضية الفلسطينية، التي جعلت من الفلسطينيين مُسَيّسين ومنضوين في أحزاب سياسية، ولهم مواقفهم من مجمل الأمور والتطورات.

وبهذا؛ فالانترنت بخصائصها الجديدة غيرت مجرى حياة المجتمعات في جميع الأبعاد الأخلاقية والفكرية والقيمية، كما وعملت على تغيير طرق التفاعل والتواصل بين البشر إلى الحد الذي يمكن اعتبار أن ما أحدثته من تغيرات جوهرية في هذا المجال بمثابة نقطة تحول في تاريخ الثقافة . وبالرغم من أن هذا المنجز التقني غير المسبوق له من الايجابيات الكثيرة إلا أنه في الوقت ذاته يحمل من السلبيات الواجب الانتباه إليها ومواجهتها، خاصة في العالم العربي الذي يبدو أن الانترنت بشبكاتها الاجتماعية المختلفة لم تُوظف بالشكل المطلوب، سيما فيما يختص بتفعيل مقومات حريات التعبير والتفكير والاتصال،وصولاً إلى ممارسة ديمقراطية تشاركيه لا نيابية ذات اتجاهات اصطفافية نخبوية ضيقة.

الهوامش

1 . إن ظهور وانتشار الانترنت لا يستلزم بالضرورة اختفاء التلفزيون أو أن يحل محل الصحف وإن كان سيؤدي إلى حدوث تغييرات جوهرية في طبيعة الإعلام والمعلومات، وسرعة الحصول عليها ونشرها، خاصة أن هناك من يتحدى أنه لا يمكن أن يمر أكثر من عشرين دقيقة على وقوع أي حدث، مهما كان صغيرا في أي مكان من العالم، دون أن يتم نشره على الشبكة الدولية . ويكفي الإشارة هنا إلى أن محرك الأبحاث الشهير Google يرجع بصفة دائمة ومستمرة إلى أربعة آلاف وخمسمائة مصدر من مصادر الأخبار، يستمد منها المعلومات التي يتولى نشرها لحظة تسلمها مع التوضيح طيلة الوقت إلى جميع المصادر التي أوردت تلك المعلومة، وهو ما تعجز عن فعله وسائل الإعلام الأخرى . إلى جانب ذلك كله فان حجم الشبكة العامة للانترنت يستوعب أربعين مليار صفحة وأنه يضاف إلى هذا العدد في كل لحظة عدة آلاف جديدة من الصفحات. انظر: أحمد أبو زيد، التكنولوجيا الرقمية والإعلام الجديد، مصدر سابق، ص145.

2 . مؤيد عبد الجبار الحديثي، العولمة الإعلامية،الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،2002،ط1، ص 67.

3 . حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي،مصدر سابق، ص 17،18 .

4 . لقد كانت السينما هي البداية التاريخية العتيقة لثقافة الصورة، ثم جاء الراديو فالتلفاز، ثم الفيديو، فتقلصت أهمية دور السينما كثيرا جدا ؛ إذ أصبحت لعرض الجديد من الأفلام، ثم جاء بعد ذلك مرحلة القنوات الفضائية المفتوحة ثم الآن الانترنت، بوسائطها الإعلامية المتعددة وأهمها الفيسبوك ودوتير ويوتيوب. كذلك؛ فإن الوسائط الجدية لا تلغي الوسائط القديمة بالضرورة. فعندما ظهرت السينما قالوا أنها ستلغي المسرح، ولكن هذا لم يحدث. وعندما ظهر التلفزيون قالوا إنه سيلغي السينما لكن هذا لم يحدث أيضاً . ويبدو أن المسألة تكمن في أن هناك حاجة إنسانية لكل هذه الوسائط، فلا تلغي الجديدة القديمة، بل يبقى الكل. انظر: عبد الله الفيفي، مستقبل الثقافة العربية في ظل الوسائط الاتصالية الحديثة: كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010، ص 205.

5 . سعود كاتب، تطور الإعلام الجماهيري، الموقع العربي الأول للإعلام الجديد، http://www.ekateb.net/bookcont/ 2007: ch4__16.html

6 . محمد شومان، الإنترنت والتنفيس الإعلامي والسياسي، 2005:http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EB218269-F269-4B15-A1D2-0D71F34A8256.htm

7 Heather Savingy (2002) Puplic Opinion, Political Communication and the Internet , Politics.p.6 1

8 . فيصل أبو عيشة، الإعلام الالكتروني، مصدر سابق، ص 63 .

9 . الاتحاد الدولي للاتصالات ، عدد مستخدمي الانترنت في العالم يتجاوز المليار نسمة عام 2011: http://digital.argaam.com/?p=18091

10 . صالح أبو إصبع، الاتصال الجماهيري، دار البركة، عمان، ط3، 2009، ص 404 . كذلك؛ انظر: سرعة الاتصال بالانترنت على مستوى العالم: حقائق بالأرقام: http://www.tech-wd.com/wd/2010/11/13/the-state-of-the-internet/

11 . أسماء غنايم، الفجوة الرقمية : استخدام الانترنت في المجتمع العربي في إسرائيل ، مجلة أكاديمية ألقاسمي، عدد11، باقة الغربية،2007، ص7،9

12 . فيصل أبو عيشة، الإعلام الالكتروني، مصدر سابق، ص 65.

13 . المصدر نفسه، ص65.

14 هناك تباينا بين استخدام الانترنت وتحديدا وسائط الإعلام الجدة في الدول العربية المختلفة. فمثلا الانترنت تُستخدم في السعودية بمعدلات أعلى مما هي عليه في حزر القمر والعراق . وكذلك يوجد في الإمارات معدلات استخدام أعلى في الهواتف الجوالة، مقارنة ببقية الدول العربية كاليمن مثلا حيث تتدنى هذه المعدلات. هذا قد يكون له تأثيرات في الواقع تلازماً بدرجات الاستخدام. انظر بن سالم حميش، تعليقات الجلسة الثامنة : حضور الثقافة في الوسائط الحديثة: رؤية مستقبلية، كتاب: كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010، ص 237 .

15 . **عطاف الشمري، صحيفة الرياض:** http://www.alriyadh.com/2009/07/02/article441825.html

أن قلة استخدام اللغة العربية في مجال الإنترنت، أدى إلى قلة البرمجيات التي تدعم النشر باللغة العربية مقارنة باللغة الإنجليزية، التي تعتبر اللغة الأكثر انتشارا بين لغات العالم في عالم الإنترنت. أيضا فإن قلة استخدام الشبكة العنكبوتية من المستخدمين العرب يعتبر من الأسباب التي أدت إلى قلة وندرة البرامج التي تدعم النشر باللغة العربية. انظر: مقدمة عن الإنترنت في العالم العربي: *ccisdb.ksu.edu.sa/files/rep1810000.doc*

16 . المصدر ذاته، ص28.

17 . الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، شبكة اجتماعية واحدة ذات رسالة متمردة:الانترنت في العالم العربي، مصدر سابق، ص5.

18 محمود خلوف،استخدامات الصفوة الفلسطينية للصحافة الالكترونية لمتابعة الأحداث الجارية والاشباعات المتحققة(رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة القاهرة، 2006، ص 80.

19 . سعيد أبو معلا، معالجة المواقع الإلكترونية الفلسطينية للأزمات الداخلية – دراسة تحليلية مقارنة بالتطبيق على الأزمة الداخلية بعد الانتخابات التشريعية 2006م"(رسالة ماجستير غير منشورة) ،معهد البحوث التابع للجامعة العربية، القاهرة، ص65 .

20 . المصدر السابق، 67.

21 . محمود عفيفي، الإنترنت الشبكة البينية العالمية للمعلومات"، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، (لندن: إبريل، العدد2 السنة 17، 1997، ص 134.

22 . الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، إحصاءات النقل والاتصالات في الأراضي الفلسطينية، التقرير السنوي 2001.

23 . أمين أبو وردة، أثر المواقع الإلكترونية الإخبارية الفلسطينية على التوجه والانتماء السياسي –طلبة جامعة النجاح الوطنية نموذجًا- (2007-2000" (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، 2008،ص22.

24 . بيالارا ، " السياحة العشوائية عبر الانترنت : دراسة في تفاعل الشباب الفلسطيني على الحيز العام الافتراضي" ، مصدر سابق، ص24. 25.

25 . اعد الاستطلاع نبيل كوكالي، ونشره المركز الفلسطيني لاستطلاع الرأي (PCPO)، وتم تنفيذه خلال الفترة 30 تموز - 3 أيلول 2005، انظر: http://www.pcbs.gov.ps/DesktopDefault.aspx?tabID=1&lang=ar-jo : http://www.pcpo.ps/

26 . الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، تكنولوجيا المعلومات، انظر:
http://www.pcbs.gov.ps/DesktopDefault.aspx?tabID=1&lang=ar-jo

27 . صحيفة القدس، بتاريخ 12 يونيو 2008: http://www.alquds.com/node/80012

28 . صدر التقرير ووزع على وسائل الإعلام المختلفة بتاريخ 2011/05/17.

29 . خالد معالي، اثر الصحافة الالكترونية على التنمية السياسية في فلسطين " الضفة الغربية وقطاع غزة"، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، نابلس، 2008، ص73.

30 . انظر: موقع صحيفة دنيا الوطن،" مقاهي الانترنت في مناطق السلطة منبر حر تفضح ممارسات الاحتلال في العالم":
http://www.alwatanvoice.com/arabic/content/print/151357.html

المبحث السابع

الرقابة والإعلام الجديد

لقد جسَد تأريخ البشرية الصراع من أجل تأكيد وضمان ممارسة الحرية بكل أنواعها، بل إن كل تأريخ الإنسان يمكن أن يُلخص في كفاحه الدائم من أجل الظفر بحريته في مواجهة كل أنواع السيطرة والهيمنة والرقابة والإلغاء. ورغم كل أصناف هذه المواجهة إلا أن البشرية قطعت شوطاً كبيراً من أجل الاعتراف والإقرار بحق الإنسان في الإعلان عن رأيه، أو بحقه في الحصول والانتفاع من المعرفة[1].

وفي خضم هذا الصراع برزت موضوعة حرية الإعلام، كعمل فكري يستكمل البحث في إطار منظومة القيم والأعراف التي تشكلت وتطورت لاحقاً لحماية حق الإنسان في التعبير عن رأيه بعيداً عن هيمنة القوة، واستبداد السلطة، وتعسف الرقابة المسبقة واللاحقة، وكان لا بدَ من البحث في جدلية الحرية والقانون كمقدمة تعرض تطور الاعتراف بالحقوق الأساسية للإنسان في الإعلان عن رأيه من دون خوف أو عقاب، انطلاقاً من حقيقة أن الإنسان لا يمكن أن يكون واعياً وحراً من دون أن يكون جزءاً فاعلاً ومعترفاً به من كينونة المجتمع، وأن ذلك الاعتراف يشكل مقدمة للاعتراف بكل حقوقه اللاحقة وفي مقدمتها الحق في حرية الرأي والتعبير[2].

في هذا المبحث سيتم مناقشة واقع الرقابة على وسائل الإعلام بشكلٍ عام و الإعلام الجديد بوجهٍ خاص، وأثر ذلك على مضمون وتطور هذا الإعلام. في الجزء الأول من المبحث سنتطرق إلى الرقابة الإعلامية، لننتقل بعدها للحديث عن الرقابة وأنواعها ومدى ارتباطها بوسائط الإعلام الجديد، مع إفراد قسم للحديث عن الحالة الفلسطينية بهذا الشأن.

أولاً: الرقابة الإعلامية

تعتبر الرقابة على الإعلام من أبرز صنوف المواجهة التي خاضتها السلطة الرابعة على مر تاريخها. فهذه المفردة (الرقابة) التي طاردت، ولا تزال تطارد العاملين في القطاع الإعلامي تحمل في طياتها معنى قسرياً، يتم وفق إجراءات تعسفية كان يتجسد في السابق بأنواع محددة من الرقابة التي تتم ممارستها من قبل الحكومات على وسائل النشر والإعلام. فالرقيب يقول كلمته في منع كتاب، والرقيب يقطع بمقصه مقالة في جريدة، أو يقطع الجريدة بأسرها عبر منع صدورها أو غلقها أو اعتقال المحرر المسؤول، وهكذا كان الرقيب حارساً للنظام ومسؤولاً عن تنفيذ قوانينه وإجراءاته، وضحيته دائماً هي وسائل الإعلام، خاصة تلك التي تلازمها المعلومة الدقيقة، والحقيقة الكاملة.

وشيئاً فشيئاً اتسع فعل مقص الرقيب الذي كان همه تمثيل السلطة والدفاع عن مصالحها إزاء السلطة

الرابعة، ليتحول اليوم إلى وحش كاسر مشحون بالرغبة في اعتراض وتفكيك كل الرسائل الاتصالية التي وجدت في نظام الشبكة العنكبوتية " الانترنت " . وما كان لهذا النظام الرقابي أن ينشأ أو يتطور، مواصلاً التضييق على حرية الرأي والتعبير لولا الأهداف السياسية والعسكرية والاقتصادية المضمرة خلف أنشطته المختلفة، فقد خرج موضوع الرقابة التقليدية من الغرف الضيقة التي كانت تتولى فحص المواد الإعلامية ، إلى ممارسة أوسع وأشمل تهدف إلى الإحاطة بكل فعل تواصلي، وتتجه نحو فرض هيمنة لم يشهدها العالم سابقاً[3].

وتعددت مشاهد الرقابة على القطاع الإعلامي، فهناك الدساتير والقوانين الضابطة لحرية الرأي والتعبير، بالإضافة إلى مجموعة من التعليمات التي تصدر من الجهات الرسمية المعنية بالشأن السياسي والأمني والإعلامي، معززة بتوافقات وأعراف اجتماعية ضاغطة ، ومسندة بحزمة من الإجراءات الاستثنائية المرافقة، غالباً، للظروف السياسية في كل بلد، وبحسب أجندة مشاكله الداخلية والخارجية[4].

وفي خضم الرقابة الإعلامية التي اجتاحت معظم دول العالم، خاصة تلك الدول التي تحكمها أنظمة غير ديمقراطية أو قيادات عسكرية، تعرضت وسائل الإعلام إلى تضييق كبير، أدى إلى تراجع ملحوظ في عدد الوسائل الإعلامية، وجودة مخرجاتها. هذا التراجع لم يكن سببه هذا النظام أو تلك القيادات فحسب، بل رافقه مؤثرات أخرى، تمثلت في الأنظمة الاستعمارية أو الاحتلالية، وطبيعة بنى المجتمع، والرأسمال الإعلامي والمالي والسياسي، إلى جانب الرقابة الذاتية التي يفرضها الإعلامي على ذاته.

ويعتبر مصطلح الرقابة والإجراءات المرتبطة به، من أكثر المصطلحات حضوراً وتأثيراً في العمل الإعلامي . ويكفي التذكير، هنا، بارتباط هذا المصطلح تاريخياً بقضية هي الأكثر أهمية في تاريخ الإنسانية بشكلٍ عام ووسائل الإعلام بشكلٍ خاص وهي قضية حرية التعبير وحرية الإعلام. لقد أصبحت قضية حرية التعبير وحرية الإعلام حقلاً بحثياً متطوراً ومستقلاً، فاهتم بها المختصون من قطاعات معرفية مختلفة [5] .

فالرقابة بالمعنى العام قد ارتبطت بمفهوم الحرية، والحرية وثيقة الصلة بتاريخ الشعوب في كفاحها من أجل الخلاص من السيطرة والهيمنة الاستعمارية. وغالباً ما يأتي إدراك مفهوم الرقابة متلازماً مع معنى الاستلاب أو القهر. وقد صنف الكثير من حملة رايات النهضة والتجديد الحرية باعتبارها من أهم الدعامات السياسية للدولة الحديثة، ولا تتأسس إلا فيها، ومن ثم فهي وحدها القادرة على أن تخلق مجتمعاً حقيقياً قوياً للوطن[6] .

ويتعدى فعل الرقابة إلى شكل من أشكال القمع اللامتناهي الحدود الذي يصل إلى حد ليس فقط منع مصادر الإعلام من الوصول إلى موقع الحدث، أو تمكنها من توثيقه ونشره، بل إلى قمع الشهود أيضاً، خاصة بعد الموجة المهولة من التطورات التقنية الكبيرة التي أضحت بمتناول كل إنسان ، كما هو حال الكاميرا الفيديوية الرخيصة الثمن ، و أجهزة الهاتف المحمول المزودة بكاميرات للصور الفيديوية وما إلى ذلك من وسائط وتقنيات الإعلام الجديد .

ومن المفارقة أنه في الوقت الذي تطورت فيه قوانين الضبط على حدود حرية التعبير تطور بالتزامن معها الاتساع في مفاهيم وقوانين حرية التعبير والرأي. ورغم أن التقييد القانوني لحرية الرأي ضرورة تنظيمية في

إطار معادلة حماية المجتمع ، إلا أن هذه المعادلة لا يمكن قياس مؤشراتها بدقة وضبط موازنتها ، إذ سرعان ما تصبح قوانين التنظيم ذاتها، والتي غالبا ما تبدأ بمقدمات مسهبة عن قدسية حرية التعبير وأهميتها ، قيوداً على ابسط حقوق الإنسان في إبداء الرأي منفردا أو ضمن جماعة . كما وفي الوقت ذاته تتطور بشكلٍ متوازٍ مواثيق وقوانين حرية الرأي، مع قوانين وإجراءات الرقابة وتقييد تلك الحرية تحت مبررات التنظيم أو الترشيد أو المحافظة على المجتمع، وغيرها من المبررات[7] .

استناداً إلى ما سبق؛ فإن الجدل سيبقى محتدماً حول شأن الرقابة، ولكنه جدل يختفي وراء صفائح مبهمة اغلبها يتوارى عند حدود منظومة القيم الاجتماعية، أو محرمات الأمن الوطني، ومقدسات السيادة والحرية. هذا، يذكرنا بالمعارك الأدبية التي كانت تحتدم حول (الأدب الممنوع) الذي يتصل بالاقتراب من المحرمات والمسكوت عنه اجتماعياً وكيف أن كل طرف يتمسك بأهلية رأيه، موظفاً من أجل ذلك كل ما يستطيع من قوة، ومحاولاً تكييف القانون لصالح دعواه! .

ثانياً: الرقابة والإعلام الجديد

ظلت قضية الرقابة على وسائل الإعلام بدايةً من المطابع ثم الصحف في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، موضوعاً يشغل الباحثين والمهتمين، وهي لا تزال كذلك حتى اليوم. لكن الجديد اليوم في قضية الرقابة على وسائل الإعلام زيادة اهتمام عامة الجماهير بتأثيراتها على حقهم في المعرفة والتعبير، وبالتالي تكتلهم في مواجهتها. أما الأمر الجديد الآخر الأكثر فاعلية وصيرورةً في قضية الرقابة اليوم فهو تطور وسائل الإعلام الجماهيرية موضوعياً ونوعياً بشكلٍ يصعب معه استمرار فعل الرقابة بالأساليب التقليدية المعروفة. وفي الوقت الراهن، وبعد بروز وانتشار التقنيات الحديثة للإعلام الجديد، يعتقد الكثير من المهتمين أن الرقابة أصبحت تفتقد إلى الفعالية والقوة التي كانت تتمتع بها، فاختراقها كجدار حديدي تصبح سهلاً وممكناً، والتحايل عليها أصبح فناً[8] .

وفي الوقت الذي وضعت فيه الدول تشريعات وقوانين للتعامل مع وسائل الإعلام التقليدية بهدف تنظيمها وضمان مراقبتها وإبقائها تحت السيطرة والرقابة الرسمية، فإن الوضع بخصوص وسائط الإعلام الجديد مختلفة في هذا الشأن، وذلك للصعوبة، بل والاستحالة، أحياناً، في مواجهة الطوفان الالكتروني الذي يحلق مستخدميه في عوالم افتراضية تنفلت من قبضة الرقيب أو هيمنة الإقصاء والمطاردة.

وفي ظل الثورة الجديدة للتقنيات الحديثة، التي شهدتها كافة حقول المعرفة، ومنها الحقل الإعلامي، بدأت بعض الأنماط من الرقابة تفقد فاعليتها بسبب التطور التكنولوجي السريع، وازدياد الاهتمام بحقوق الإنسان وحرياته، وبالتالي أصبحت الرقابة في نظر الكثيرين، انتهاكاً لحق التعبير نفسه، ولمبدأ المساواة في التمتع بالحريات المختلفة، وشكلاً من أشكال الاستهتار بأهلية المواطن في اتخاذ القرار وتحديد حاجاته، وتعارضاً مع حكم الذات والحاجات الإنسانية والاجتماعية، بالإضافة إلى اعتبار الرقابة على التعبير أحد العوامل التي

تساعد في توفير بيئة خصبة لنمو الفساد وعدم محاسبة الفاسدين، ومن ثم إعاقة التنمية والتطور.

وفي إطار المشهد الشمولي للصراع المستمر بين القوى العاملة على تأكيد الحق في حرية الرأي والتعبير، وبين قوى الإلغاء والتهميش فإن معطيات التطور التقني والمتسمة بالسرعة والفورية في التواصل، تشير إلى أن مكاسب حرية التعبير تزداد وتتعمق في الواقع، وأن المزيد من الحواجز تتداعى وتنهار..." إن الواقع يتم استنطاقه ونشره أسرع من قدرة المنع والإعاقة. هذا الامتياز يعطي لمبدأ حرية الرأي إمكانية للانتصار على أعدائه" [9] .

إلى ذلك؛ فإنه في الوقت الذي يُحدد فيه المتخصصين ثلاثة أحداث مفصلية في تاريخ قضية حرية التعبير وحرية الإعلام على مستوى العالم؛ بما لها من علاقة بموضوعة الرقابة، فإننا نركز، هنا، على الحدث المفصلي الثالث والمتمثل بثورة تكنولوجيا الاتصال والإعلام، والذي يمكن تقسيمه إلى مرحلتين فاصلتين هما[10]:

المرحلة الأولى: تتضمن بداية التطبيق الفعلي للبث الإذاعي في 1906 وبداية البث التلفزيوني للجمهور في 1939. وشهدت هذه الفترة أيضا إصدار قوانين الاتصال الأولى مثل " قانون السفينة اللاسلكية" عام 1910 وقانون الراديو 1912 ثم قانون الاتصالات في عام 1934. **أما المرحلة الثانية**: تأتي في إطار حدث الثورة التكنولوجيا في مجال الاتصال، وهي المرحلة الأكثر خصوبة وتأثيراً وصيرورة أيضا. وتضمنت بداية تلفزيون الكابل في الأربعينيات من القرن العشرين ، ثم الأقمار الصناعية في خمسينيات ذلك القرن وأخيراً تكنولوجيا الحاسب الآلي وشبكات الانترنت.

ففي المرحلة الثانية أثر الاتصال الفضائي الذي انتشر في تسعينيات القرن العشرين بشكلٍ كبير على سياسات ومضامين الاتصال في العالم بشكلٍ عام وفي العالم العربي بصورةٍ خاصة، ويتمثل ذلك في النقاشات المستمرة حول آثار هذا النوع من الاتصال وما نجم عنه من برامج حوارية ومناقشات بشيءٍ من " الجرأة " و " التطاول " في بعض الأحيان لم يكن معتاداً من قبل . وفي ظل هذا التطور قفز إلى السطح سؤالاً محورياً يتمثل في كيفية تعامل مؤسسات الإعلام والمؤسسات في العالم العربي مع تحدٍ آخر طرأ أيضا في عقد التسعينيات وهو الخطاب الالكتروني الذي لا علاقة له بقانون مطبوعات ونشر أو مواثيق شرف أو هوية وخصوصية . هذا الخطاب عابر للحدود بمعنى الكلمة، وغير مرتفع التكاليف، وقد يكون غير معروف المصدر فلا تعرف في بعض الأحيان مع من تتحدث!! .

وبظل هذا التطور غير المسبوق في وسائل الإعلام والاتصال. والذي ينظر البعض إليه على أنه يمثل مرحلة فارقة ومهمة تشبه إلى حدٍ كبير اكتشاف الطباعة في القرن الخامس عشر . لم يعد مصطلح الرقابة يثير المخاوف والحساسيات التي كان يثيرها فترة وسائل الإعلام التقليدية، كما أصبح الكثير من الإعلاميين، خاصة العاملين في الإعلام الالكتروني يتلذذ بتحدي الرقابة والتغلب عليها. كما أن الرقابة بمفهومها التقليدي وإجراءاتها المتراكمة أصبحت تواجه اوقاتاً عصيبة مع الوسائل الجديدة، بل أصبحت في بعض الأحيان موضوعاً للتندر والتحدي لدى الأشخاص الذين يملكون المعرفة التقنية التي تمكنهم من اختراق جدران الرقابة والتفوق عليها ، وصولاً إلى معلومات ومواقع قررت بعض الجهات الرقابية حجبها [11].

وتواجه وسائل الإعلام الجديدة والجماهير في الوقت الراهن الرقابة وكل أشكالها التقليدية بعدد من الإجراءات والممارسات تتمثل في توفير برامج مجانية لاختراق الرقابة على الشبكة العالمية للمعلومات وتمكين الأفراد العاديين من امتلاكها. كما يذهب الأفراد العاديون ومؤسسات المجتمع المدني والأهلي إلى تأسيس المزيد من المواقع الالكترونية الاجتماعية ونشرها، إلى جانب نشر التقارير المحلية والدولية التي تفضح الرقابة المؤسساتية . يضاف إلى ذلك تطور قدرات المستخدمين العاديين للانترنت والمحترفين منهم في اختراق الرقابة، وتحقيق البشرية لتطورات تقنية متسارعة تعجز الجهود المؤسساتية أحياناً كثيرة عن مسايرتها [12].

كذلك؛ فقد أسهم تمكين أي مواطن لأن يمارس مسؤوليته إعلامياً في عرقلة فرض الرقابة عليه، وبالتالي قدرته على نشر ما وثقه.. بل أن الكثير من المراسلين الصحافيين في مواقع الأحداث، أصبحوا يعتمدون على شبكات فرعية تمثلهم في أنحاء مختلفة من مواقع الأحداث، لينجحوا بالوصول الفوري إلى مواقع الحدث وتسجيله وتوثيقه من أجل إمكانية نشره على أوسع نطاق. " هذه الشبكة لا يمكن مراقبتها عملياً، وفي الوقت ذاته لا يمكن منعها لحظة وجودها عند موقع الحدث " [13] .

ويعتقد البعض أن الانترنت قد ساعدت على تعزيز قوى ومواقف الأفراد والمؤسسات غير الحكومية في الحصول على المعلومات وتمريرها، كما استطاعت هذه الوسيلة الاتصالية الجديدة تحدي أشكال الرقابة التقليدية المفروضة على وسائل الإعلام في مناطق العالم المختلفة ، وبواسطتها تعرفت الجماهير على الكثير من التقارير الرسمية وغير الرسمية غير المسبوقة.

فالحواجز في عصر النشر الالكتروني انكسرت، وتُخطَيت خطوط الرقابة، ولم تبقى هنالك إلا مسؤولية الكاتب والناشر، في توخي الأمانة، والصدق، والحفاظ على الذوق العام ، وحقوق الآخرين الفكرية، والأدبية، والاجتماعية . لم يعد حق الحصول على المعلومة في أيدي من يسميهم " ناعوم تشومسكي" بـ " الأشخاص الجمعيين الخالدين القادرين" . وإذا كانت المادة التاسعة عشرة من الإعلام العالمي لحقوق الإنسان قد نصت على : " لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا: الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقييد بالحدود الجغرافية"، فقد هيأت وسائط الإعلام الحديثة تمتع الإنسان بهذا الحق[14] .

وفي ظل تمتع الإنسان بهذا الحق نجد دولاً ما زالت تكافح تلك " السوق الحرة للأفكار" ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية إما بالهيمنة سعيا لضمان أن تبقى صناعة الاتصالات في أيدٍ أميركية، أو بتسخيرها للمتاجرة بالأفكار والمواقف، أو بتوجيهها إلى الاستهلاك واللهو ونشاطات أخرى تدمر الشخصية [15]. فالذين استبشروا خيراً بالتقنية الفائقة القدرة على التواصل والانتشار " الانترنت،" ، ربما، لم يكونوا يتوقعون إمكانية الوصول إلى أبشع أنواع الرقابة على تلك الوسيلة، بل السيطرة على الطرق الرئيسة لمرور الرسائل فيها . فالولايات المتحدة تمارس اليوم دور الرقيب والجاسوس في الوقت ذاته على الشبكة العنكبوتية الهائلة ، فليس هناك من رسالة تعبر من طرف إلى آخر من دون أن تكون هناك عين وأذن تتطلع نحوها وتفك رموزها ، ومن ثم

تقرر لها العبور، أو تضعها تحت مقصلة الجلاد[16].

ورغم هذا كله؛ ستبقى حدود المعركة مفتوحة بين الرقابة والإعلام ، فليس من وسيلة قادرة على التحكم وإقامة السدود أمام السيل الجارف من الرسائل التي تتدفق عبر الشبكة العنكبوتية وسواها، كما أن عدد مستخدمي الشبكة، وبشكل خاص من الشباب بازدياد مضطرد، وتغري مواقع الكترونية عديدة مثل موقع الفيسبوك الشباب، ومنهم الإعلاميين، للانضمام والتعامل معها من دون حدود، كما أن لشبكة الألياف الضوئية القدرة الهائلة على التواصل بكل الاتجاهات وتوفير الفرصة غير المحدودة لتدفق الرسائل وإدامة التواصل [17] .

وفي السياق ذاته فإن المجتمعات الافتراضية استطاعت أن تقدم مجالا ثقافياً موازياً يساهم في خلخلة السيادة المطلقة لمجالٍ بعينه، فيؤثر عليه ويقض مضجعه ويدفعه أحيانا إلى تقديم تبريرات أو تفسيرات. ففي مواقف بعينها، يعمل هذا المجال كآلية رقابة على المؤسسة الرسمية في الوقت الذي يبدو فيه للبعض أن المؤسسة الرسمية بشتى أشكالها هي التي تمارس دور الرقيب على ذلك المجال الموازي ، لكن حقيقة الأمر أن العكس هو الصحيح . فهذا المجال الموازي يُراقِب بدقة، ويمارس رقابته عبر المواقع والمجموعات على الفيسبوك، والتعليق على المقالات الصحفية، ونشر كل ما هو مسكوت عنه. أي أنه سحب بساط الرقابة من تحت أقدام المؤسسة الرسمية. وهو ما يفسر محاولات فرض قوانين رقابة على الانترنت. معركة رقابة متبادلة، لكنها تنطلق من أرضيات مختلفة لاختلاف أهدافها، في حين تتشابه نقاط الوصول. فالمجال الثقافي الموازي يهدف إلى تصحيح المسار عبر تضمين كل ما هو مهمش ثقافياً سواء في الفنون أو الآداب أو السياسة أو الاقتصاد ، أي أنه يحاول كسر الأحادية النمطية ويسعى إلى هدم التكريس الثقافي لأسماء أو جهات بعينها[18].

ولكن في مقابل ذلك، اتسعت ممارسة متنوعة الأساليب لإحكام السيطرة على وسائل الإعلام ، لعل أكثرها خطورة هي تلك الإجراءات القسرية أو حتى المغلفة بالقوانين تحت حجة (حماية المجتمع) أو (الدفاع عن الآداب العامة والخصوصيات الاجتماعية) ،إذ أن الذي يحدث عملياً هو تطوير سياسة الرقابة من المفهوم القديم إلى معطيات جديدة تتصل بالإنكار والحرمان لحق وسائل الإعلام في الرأي ومتابعة وتغطية الأحداث الساخنة في السياسة والمجتمع والاقتصاد،الخ .

ومع أن التطور التكنولوجي في ميدان الاتصال قد أسهم في تعزيز الحريات الإعلامية، إلا أن وسائل السيطرة والمراقبة قد تطورت أيضاً على مستوى الواقع، بإشكال وصيغ أخرى مختلفة. وعملياً، فان الإعلام لم يخرج من دائرة الرقابة المسبقة أو اللاحقة إلا بحدود معينة ، وفي الوقت ذاته أظهرت أدبيات الدراسات الإعلامية مفاهيم في إطار المسؤولية الأخلاقية الجماعية، وفي حدود الحرية المسؤولة لوسائل الإعلام التي تحقق التوازن بين حرية وسائل الإعلام ومصالح الأفراد والمجتمعات من جهة أخرى[19] .

وفي صورةٍ أخرى، نجد البعض ـ نظراً لعشوائية محتوى الشبكات الاجتماعية، تحديداً ـ ينادي بسن " الضوابط الحمائية " لا سيما أن ما يدور الكترونيا يتعدى ما تتشغل به الرقابة التقليدية، من جملة شاطحة هنا أو عبارة نابية هناك . فالنشر الالكتروني (وفق هؤلاء) حافل بألوان القذف، والتهييج، والتجييش، والتشويه،

وأشكال كثيرة من العدوان على الشخصيات، والجماعات، والقيم العامة، والمبادئ الدينية والوطنية والإنسانية . فإما أن يُعاد النظر جذريا في إشكاليات الرقابة بكل أبعادها، مواكبة للمتغيرات المعاصرة الواسعة الخرق. وبما لا يكبت الحريات، ولا يُسقط الحقوق الفكرية والأخلاقية. وإلا ستظل الرقابة بنهجها القديم عبثاً في عبث [20].

خلاصة القول: الجدل حول الرقابة في الإعلام سيظل متواصلاً، فليس هناك من حسم نهائي يضمن انتصار طرف على الآخر، وإن كان منسوب أو حدة هذه الرقابة تراجعت كثيراً بفعل وسائط الإعلام الجديد.. كل خطوة يتم تحقيقها لصالح تأمين حرية الرأي وتأكيد الحق في التعبير، تواجه بقيدٍ جديد يتم إحكام دائرته.. وهكذا؛ جيل بعد آخر سوف يواجه هذه الإشكالية من دون أفق منظور لحلها... إنها باختصار: جدل الحياة ذاتها.. جدل الحقيقة في مواجهة نقيضها. والبحث عن إعلام من دون رقابة هو نوع من السراب، كما نتحدث عن ديمقراطية من دون " تزوير " .

ثالثاً: الرقابة والإعلام الجديد: أنماط وتقارير

أولاً: أنماط وأنواع الرقابة

تختلف الرقابة بحسب الزاوية التي ينظر إليها منها، فإذا ما نظرنا إليها من حيث التوقيت الذي تتم فيه مباشرتها نجد أنها تنقسم إلى رقابة سابقة على النشر وأخرى لاحقة عليه، وإذا ما نظرنا إليها من حيث التطبيق نجد أنها تنقسم إلى رقابة شاملة وأخرى محدودة، وإذا نظرنا إليها من حيث أسلوب مباشرتها نجد أنها تنقسم إلى رقابة مباشرة وأخرى غير مباشرة[21] .

يقسم الباحثون الرقابة إلى صنفين، صنف له علاقة بوسائل الإعلام التقليدية، والآخر ما له علاقة بوسائط الإعلام الجديد. فبخصوص الصنف الأول فإن أنماط الرقابة تتمثل في[22]:

1. **الرقابة المباشرة:** والتي تعني مراقبة ما يرد في صحيفة من مواد قبل نشرها وقراءتها وتمحيصها، واعتمدت تقليدياً على:

أ. وجود رقيب داخل المؤسسة الإعلامية يقرأ كل الموضوعات ويحدد ما يقدم للجمهور. لكن هذا الشكل التقليدي عفا عليه الزمن ولم يعد موجوداً في الكثير من المؤسسات الإعلامية حول العالم.

ب. الرقابة قبل النشر وقبل التوزيع: وتتمثل في أن يطلع الرقيب على مضمون المادة الإعلامية قبل نشرها، ويقرر منعها أم لا وهي ما تسمى بـ " الرقابة الوقائية"، بهدف حماية الصالح العام.

ت. الرقابة بعد التوزيع : وتعني اطلاع الرقيب على المادة بعد نشرها وتقدير مدى مساسها بالصالح العام وبحقوق الأفراد، وإذا كانت كذلك يمكن في هذه الحالة مساءلة الصحافي الكاتب ورئيس التحرير الذي أجازها ، وهي التي تسمى "بالرقابة العلاجية".

2. **الرقابة غير المباشرة:** وتعني وضع ضوابط عامة يلتزم بها الإعلاميون والكتاب من أجل عدم الإضرار بالصالح العام. وتعتمد على الأساليب الآتية:

أ. تعليمات وتوجيهات حكومية.

ب. تدخل في أسلوب المعالجة الصحفية.

ت. تعرض الإعلاميين لبعض أشكال الضغط المادي (السجن، الطرد من الخدمة، التعذيب) أو الضغط المعنوي (الإغراء، الترهيب، المنع من الكتابة، النقل إلى عمل آخر).

ث. فرض الرقابة بمسميات وتعبيرات مختلفة مثل (الصالح العام، المصلحة الوطنية، الأمن القومي، حماية النظام العام، الخ).

ج. رقابة رئيس التحرير أو المحرر المسؤول.

3. **الرقابة الشاملة والرقابة المحدودة:** الرقابة الشاملة تعني اطلاع الرقيب على كافة المواد الإعلامية المنشورة من سياسية وفنية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، وغيرها، ولا يطبق هذا النوع من الرقابة إلا في الدول الاستبدادية ، أما الرقابة المحدودة فتعني اطلاع الرقيب على كيفية معالجة الصحف لقضية ما في مسألة ما لظروف تتعلق بالصالح العام، وهذه الصورة تطبق في جميع الدول سواء كانت ديمقراطية أم استبدادية في أوقات الأزمات ،عملاً بقاعدة الضرورات تبيح المحظورات

أما بخصوص الأنواع فهي كالآتي:

1. الرقابة الرسمية المؤسساتية : تفرض من خلال قوانين محددة وبواسطة مؤسسات مدنية أو قضائية. وتتضح أنماطها في الرقابة المباشرة وغير المباشرة المشار إليها سابقاً.
2. الرقابة الاجتماعية : تمارسها مؤسسات اجتماعية أو قوى سياسية أو اقتصادية أو أفراد المجتمع العاديون.
3. رقابة ذاتية: تمارسها المؤسسة الإعلامية أو الصحفي نفسه على ذاته، والرقابة الذاتية تمثل أحد أهم أشكال الرقابة خطورة وتأثيراً على المضمون الإعلامي ، وهي نتاج لتراكم ممارسات الرقابة الرسمية- المؤسساتية والرقابة الاجتماعية، وتقسم الرقابة الذاتية إلى رقابة ذاتية سلبية تتأثر بتراكمات الرقابة الرسمية والاجتماعية، ورقابة ذاتية ايجابية تخضع لمهنية الصحفي وضميره وأخلاقيات مهنته

هذا الكلام قد ينطبق أكثر على وسائل الإعلام التقليدية، خاصة المكتوبة، لكن ما يعنينا هنا، هو الرقابة على الانترنت ، سيما على وسائل الإعلام الجديد. فمع تطور وزيادة انتشار هذه الوسيلة الاتصالية الحديثة تعددت الأصوات وتضاربت حول آثارها السلبية وفوائدها الايجابية . لكن كان هناك شبه اتفاق يشير إلى أن الحكومات والمؤسسات الرسمية هي الطرف الذي يتحمل الجزء الأكبر من الأضرار والمعاناة من هذه الوسيلة الجديدة. ذلك أن البعض يعتقد أن الانترنت ساعدت على تعزيز قوى ومواقف الأفراد والمؤسسات غير الحكومية في الحصول على المعلومات وتمريرها. كما استطاعت هذه الوسيلة الحديثة تحدي أشكال الرقابة التقليدية المفروضة على وسائل الإعلام في مناطق العالم المختلفة، وبواسطتها تعرفت الجماهير على الكثير من التقارير

الرسمية وغير الرسمية غير المسبوقة. يضاف إلى ذلك، ما توفره الانترنت اليوم من معلومات بلا حدود للصحفيين والطلاب والباحثين ولشرائح متعددة ومختلفة من الناس.

وفي مقابل كل تلك الايجابيات السابقة الذكر، بدأت المخاوف والأصوات المطالبة بتأمين استخدام هذه الوسيلة تتصاعد. حيث بدأت بعض الدول والاتحادات والمنظمات الدولية منذ نهاية القرن العشرين تطلق العديد من التصورات حول تقنين استخدام الانترنت للتقليل من جرائم استغلاله، كما تم تطبيق أنواع مختلفة من الرقابة لضمان السيطرة على هذه الوسيلة الجديدة [23].

ففي الوقت الذي فشلت فيه المحاولات السابقة لممارسة حق المستقبل في رفض ما يلقيه عليه المرسل، واعتبرها الأميركيون انتهاكا صارخا لحقوقهم الدستورية، فيما يخص حرية التعبير فإنهم لاحقاً ابدوا انزعاجا شديدا لتعرض أطفالهم لمظاهر العنف الترفيهي، في برامج التلفزيون وأفلام السينما، ومواقع الانترنت المنتشرة التي تعرض مناظر الجنس الفاضح. وكان لا بد من البحث عن وسائل تكنولوجية عملية لحماية الصغار باحتجاز الرسائل الإعلامية غير المرغوب فيها، مع عدم الوقوع في فخ الرقابة على المعلومات. وكان الحل الوسط فيما يعرف بشريحة " العنف الترفيهي" التي اخترعها الكنديون، وأقرها من فوره الكونجرس الأميركي، وتبعه في ذلك البرلمان الأوروبي [24].

وكلمة الرقابة تحمل العديد من المرادفات منها ما هو ديني أو أخلاقي أو سياسي، وإذا نظرنا إلى الشقّ المتصل بالسياسة فهو أكبر الموضوعات التي لاقت الكثير من الجدل فهناك فريق يؤيد حجب المواقع السياسية، وآخر يرفض مجرد الحديث عن الأمر باعتباره خطًا أحمر لا يجوز تخطيه أو الاقتراب منه. يرى الفريق المؤيد أن هناك مَن يجعل من مواقع الإنترنت بوقًا لنشر أفكار متطرفة وهدّامة للمجتمع وللدولة التي ينتمي إليها، على النقيض يأتي الفريق الآخر المعارض الذي يجد في الرقابة على الإنترنت نوعًا من أنواع الكبت وممارسة الديكتاتورية وتكميم الأفواه. كلا الفريقين على صواب ولكن هذا الصواب تحدده الدولة نفسها فهناك حكومات تضطر للجوء إلى الرقابة حفاظًا على أمنها القومي والبناء الاجتماعي لها، وهناك أخرى تستغل "الأمن القومي" كشماعة تعلق عليها أي قرار تصدره لحجب موقع وغلق آخر، وفي هذه الحالة تتحول الرقابة إلى وسيلة كَبْت بالفعل، وهو ما يختلف من دولة لأخرى [25].

يُقسم الباحثين أنماط أو أنواع الرقابة على الانترنت في العالم العربي، إلى رقابة اقتصادية، ورقابة تكنولوجية، ورقابة عقابية. فالرقابة الاقتصادية تتمثل في احتكار تقديم خدمات الانترنت، وارتفاع تكلفة الاتصال بالانترنت حيث تشير الكثير من التقارير الدولية بوضوح إلى هذا النوع من الرقابة معتبرة هذه الكلفة في بعض الدول العربية أحد أهم القيود والمعوقات التي تحد من حرية استخدام هذه الوسيلة الجديدة في هذه الدول. ارتفاع ثمن الاستخدام لشبكة الانترنت وتوابعها نجده غالباً في الدول غير الديمقراطية التي ترى في هذا الارتفاع وسيلة للتقليل من المشاركة في عالم التقنية وبالتالي الاقتراب أو الولوج في عالم العزلة وبالتالي عدم المشاركة في مناهضة سياسات هذه الأنظمة وإجراءاتها ضد المجتمع وأطيافه المختلفة.

أما الرقابة التكنولوجية فتتمثل في تفعيل برامج التصنيف والفلترة لمنع وصول المستخدمين إلى المواقع غير المرغوب فيها، وحجب بعض المواقع حجباً تاماً وعدم إتاحتها للمستخدمين من الأصل، مثل حجب المواقع التابعة لأحزاب أو قوى سياسية، أو مواقع إباحية أو غيرها. ومن الأمثلة على ذلك تقدم مسئولون في الحكومة الروسية باقتراح لإصدار قوانين صارمة لمراقبة مستخدمي الإنترنت في البلاد والبالغ عددهم 29 مليونًا، وإخضاع شبكة الإنترنت لذات القوانين الصارمة والرقابة التي تخضع لها وسائل الإعلام التقليدية. ومن شأن التعديل الجديد منح السلطات الصلاحية الكاملة لإجبار الشركات المزودة بخدمات الإنترنت في روسيا لحظر مواقع تحتوي على "محتوى خاص بالمتطرفين"، وإغلاق المواقع المحلية التي تحتوي على مثل هذه المواد.

وكذلك الحال بالنسبة لبريطانيا التي تعتزم تحت مظلّة مكافحة الإرهاب إصدار مشروع قانون يتيح إنشاء قاعدة ضخمة للبيانات الحكومية لتخزين رسائل البريد الإلكتروني ومعلومات الإنترنت والمكالمات الهاتفية والرسائل النصية لجميع المقيمين، بحجة مساعدة أجهزة الأمن في مكافحة الجريمة والإرهاب. الاقتراح الجديد الذي طرحته وزارة الداخلية البريطانية يتضمن قيام مقدمي خدمات الإنترنت وشركات الاتصالات بتسليم سجلات تحتوي على مليارات من رسائل البريد الإلكتروني وكذلك سجلات استخدام الإنترنت والمكالمات الهاتفية عبر الشبكة الدولية.

كما ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الخطّ عندما طالب رئيس لجنة الأمن القومي والشئون الحكومية في مجلس الشيوخ، شركةَ غوغل بحذف مقاطع الفيديو التي أنتجتها منظمات تصنفها الولايات المتحدة كمنظمات إرهابية ويبثّها موقع يوتيوب الشهير الذي تمتلكه الشركة على الإنترنت.[26]

وبخصوص الرقابة العقابية فإنها تتمثل في كل أشكال العقاب أو التهديد به، الذي تستخدمه السلطات المعنية ضد مستخدمي الانترنت، مثل: عمليات القبض والاعتقال والتقديم للمحاكمة والغرامة، التعدي البدني والنفسي، تشديد الرقابة على مقاهي الانترنت والمدونات ومواقع الفيسبوك وسواها. والأمثلة على هذا النوع من الرقابة نجد تجليات له في الجزء القادم.

ثانياً: الرقابة على الانترنت في التقارير الدولية

إلى ذلك؛ فإن العديد من المؤسسات الدولية تولي أهمية كبيرة لحرية الإعلام والتعبير لذا؛ فهي تقوم سنوياً بإصدار تقارير حول إجراءات الدول وممارساتها في رقابة وسائل الإعلام التقليدية منها والحديثة . وفي هذا الخصوص نشير إلى أهم هذه المؤسسات وهي مؤسسة " **مراسلون بلا حدود**" التي أصبحت تُصدر سنويا تقريراً عن حرية الصحافة بفقرةٍ إضافية عن حرية الانترنت وتحدد ما إذا كانت الدولة من صائدي حرية الصحافة أم لا؟ ، وإذا كانت من أعداء حرية الانترنت أم لا؟.

ونود، هنا، المقارنة بخصوص ما جاء في تقارير المؤسسة بين أعوام(2009. 2011) مع التركيز على العالم

العربي. ففي (تقرير 2009 [27]) صنف التقرير الدول العربية في مجال حرية الانترنت إلى ثلاث فئات هي:

. دول عربية بوصفها عدوةً لحرية الانترنت هي: مصر، تونس، سوريا، السعودية.

. دولة عربية بوصفها غير عدوة لحرية الانترنت هي: الكويت، لبنان، المغرب، قطر، عمان، اليمن، العراق، الصومال، فلسطين، ليبيا، موريتانيا.

. دول عربية بوصفها تحت المراقبة بشأن حرية الانترنت هي: البحرين، والإمارات. ولم يحدد التقرير موقف بعض الدول العربية من الانترنت مثل الأردن والجزائر، كما لم يصنف التقرير دولاً عربية أخرى تحت أي فئة من الفئات السابقة وهي جزر القمر والسودان وجيبوتي.

وذكر تقرير المؤسسة أن أسوأ الدول التي تنتهك حرية التعبير على الانترنت في العام 2009 هي : بورما، الصين، كوريا الشمالية، كوبا، مصر، إيران، أوزبكستان، سوريا، تونس، تركمانستان، فيتنام. وتشمل قائمة المؤسسة للدول التي تفرض رقابة من نوع ما على الانترنت ستين دولة العام 2009، أي ضعف عدد العام الذي سبقه. وذكرت المؤسسة أنه بين الدول " قيد المراقبة" عددًا من الديمقراطيات مثل استراليا "بسبب عزم الحكومة على اعتماد نظام متطور لمراقبة الانترنت، وكوريا الجنوبية حيث تحكم قوانين شديدة الصرامة نشاطات رواد الانترنت. وذكر تقرير المؤسسة أن موقع " فيسبوك" تحول إلى موقع تجمع للناشطين الذين يحظر عليهم النزول إلى الشارع". وأخذ التقرير على روسيا الاعتقالات والملاحقات التي تطاول أصحاب مدونات الكترونية وإغلاق مواقع توصف بأنها "متطرفة" غير أنها ليست كذلك على الدوام.

وأشار التقرير إلى أن " دعاية النظام تزداد حضورًا على شبكة الانترنت، وثمة خطر حقيقي بان يتحول الانترنت إلى أداة سيطرة سياسية". وندد التقرير بإغلاق تركيا آلاف المواقع منها موقع يوتيوب، ما تسبب بإدراجها على قائمة الدول قيد المراقبة. واعتبرت المنظمة بعض الدول على قدر خاص من التطور في ما يتعلق بتقنيات السيطرة على استخدامات الانترنت، وفي طليعتها الصين وتونس.

أما بخصوص (تقرير 2010 [28]) فقد أشارت " مراسلون بلا حدود" إلى أنه تم في العالم توقيف 152 مدوّناً ومواطناً إلكترونياً، والاعتداء على 52 مدوّناً ومواطناً إلكترونياً، وتضرر 62 دولة من الرقابة المفروضة على الإنترنت. وأعرب التقرير عن قلقه من أن عدداً من الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي ما زالت تخسر المراكز في التصنيف العالمي. وإن لم يستدرك الاتحاد الأوروبي الوضع، فقد يخسر مكانته كرائد عالمي في مجال احترام حقوق الإنسان (وفق التقرير).

وبين التقرير أن من الدول العربية التي تعرضت إلى الإعلام ووسائله المختلفة المغرب وتونس التي انتقلت من المرتبة 154 إلى المرتبة 164 . ولا يزال البلد مستمراً في تراجعه في أسفل التصنيف العالمي نتيجة لسياسة القمع التلقائي التي تنفذها السلطات التونسية ضد أي شخص يعبّر عن فكرة مخالفة للنظام. ولا يختلف الوضع في سوريا واليمن حيث تتقلّص مساحة حرية الصحافة إلى حد كبير. ولا تزال عمليات الاحتجاز التعسفي مستمرة تماماً و التعذيب.

كما وشهدت البحرين (حسب التقرير) تراجعاً في مرتبتها في التصنيف من 119 إلى 144. ويمكن تفسير هذا التراجع بازدياد عدد الاعتقالات والمحاكمات، خصوصا تلك الموجهة ضد المدونين ومستخدمي الإنترنت. كما سجّلت الكويت أيضاً انخفاضاً ملحوظاً في التصنيف بخسارتها 27 مرتبة، فإذا بها تنتقل من المرتبة 60 إلى المرتبة 87 بسبب ضراوة السلطات على التنكيل بالمحامي والمدوّن محمد عبد القادر الجاسم المسجون مرتين إثر رفع قضايا من قبل شخصيات مقرّبة من النظام ضده.

كذلك؛ أشار التقرير إلى ممارسات إسرائيل القمعية بحق الصحافيين الفلسطينيين، والصحافيين الأجانب، فضلاً عن إشارته إلى الصراع بين حركتي حماس وفتح وما سببه من تعريض الصحافيين لاعتداءات ومضايقات واعتقالات وغيرها كان لها أثر سلبي على المضامين الإعلامية داخلياً وخارجياً. وفي العام 2010 واصلت مؤسسة مراسلون بلا حدود التحقيق في مقتل المواطن المصري خالد سعيد في مصر [29].

وخلص التقرير للقول: " لا تزال أعداد الاعتقالات والاعتداءات المنفّذة ضد مواطنين مستخدمي الإنترنت مستقرة نسبياً في العام 2010، ما يبيّن أن الضغوط الممارسة على المدونين والرقابة المفروضة على الإنترنت أصبحت شائعة. وباتت الرقابة تتخذ أشكالاً جديدة: دعاية على الويب أكثر عدوانية وتكثيف للاعتداءات الإلكترونية المستخدمة لإسكات المتصفّحين المزعجين، وأن الرقابة لم تعد حكراً على الأنظمة القمعية بمعنى أن الديمقراطيات تصدر أيضاً مشاريع قوانين مقلقة في مجال الحرية على الإنترنت" .

أما تقرير عام (2011[30]) فقد ذكر أن حوالي 60 بلداً يمارس الرقابة بدرجات مختلفة أو مضايقة مستخدمي الإنترنت. ولا يزال 119 شخصاً يقبعون وراء القضبان لأنهم لجأوا إلى الإنترنت للتعبير عن آرائهم. وأشار التقرير إلى أنه في الذي أدت فيه الشبكات الاجتماعية دوراً حاسماً في الثورتين التونسية والمصرية[31]، حاولت المزيد من الحكومات التلاعب بالمعلومات المتداولة على الشبكة وإزالة المحتويات الانتقادية. وأوضح التقرير أن الأنظمة القمعية لا توفر جهداً لتسيطر على المحتويات، بدءاً بالرقابة ووصولاً إلى قمع الناشطين على الويب ومروراً بتكثيف الدعاية. ويرى تقرير مؤسسة مراسلون بلا حدود أن شبكة الإنترنت ستبقى في المقام الأول أداة تُستخدم في السرّاء والضرّاء، ففي معظم البلدان المنعزلة، توفر هذه الشبكة مساحة من الحرية لا وجود لها في غيابها، ومن شأن قدرتها على نشر المعلومات أن تزعج الحكام المستبدّين وتبطل مفاعيل أساليب الرقابة التقليدية، ومثلما يستخدمها المعارضون فإن السلطات تلجأ إليها لنقل دعايتها الرسمية وتعزيز مراقبتها لأفراد الشعب وسيطرتها عليهم. وتنهي المؤسسة تقريرها لعام 2011 بالقول:" لم تعد الإستراتيجية الجديدة التي تتبنّاها الأنظمة الاستبدادية تقوم على الحجب المتشدد بقدر ما باتت تعوّل على التلاعب والدعاية الإلكترونية، صحيحٌ إن دولاً مثل الصين والمملكة العربية السعودية وإيران لا تزال تطبّق ترشيحاً صارماً تميل إلى تعزيزه في أوقات الشدة، ولكن مستخدميها ماضون في تعلم التحايل على الرقابة" .

في هذا الإطار نود الإشارة، كذلك، إلى تقرير أخر أصدرته مؤسسة "أوبن نت إنيشياتف" أجرت فيه مسحًا تبين أن الرقابة على الإنترنت قد شهدت زيادة كبيرة خلال السنوات الخمس الأخيرة، وقد أظهر التقرير أن

25 دولة من بين 41 دولة، تمارس الرقابة على الإنترنت. وبين الدول الـ 25 التي تفرض رقابة على الإنترنت، يمنع بعضها (إيران والصين والسعودية) مجموعة واسعة من المواضيع، فيما تحظر دول أخرى موضوعًا محددًا.

وأوضح التقرير أن هناك ستّ دول تركز على الرقابة السياسية مثل بورما والصين وإيران وسوريا وتونس وفيتنام، كما تمارس أربع دول (السعودية وإيران وتونس واليمن رقابتها على مواضيع اجتماعية، وتستهدف خمس دول (بورما والصين وباكستان وكوريا الجنوبية) مواقع المنشقين والمتطرفين[32].

كنتيجةٍ عامة لما سبق نشير إلى أنه من المهم قراءة التقارير الدولية عن حرية الانترنت بعناية والانتباه إلى ملاحظاتها ومصادر معلوماتها وخلفيات تقييمها، كما أنه من المهم، أيضاً، الاستفادة من بعض ملاحظات التقارير والمبادرات الدولية المتعلقة بحرية الانترنت، ذلك أن الرقابة التي تطاردها الجماهير والمنظمات الدولية لا تستهدف المحظور السياسي وحده، إنما تستهدف جميع المحظورات . وبالتالي فإن فعل الرقابة الذي اعتقد أنه يتضاءل باستمرار في عهد وسائل الإعلام الجديدة قد تعود قطاعات كبيرة من الجماهير للمطالبة به في المستقبل لحماية اطر اجتماعية وثقافية معينة.

رابعاً: الرقابة والإعلام الجديد في فلسطين

في الوقت الذي يتصاعد فيه الاهتمام بوسائط الإعلام الجديد في فلسطين، خاصة بمواقع التفاعل والتواصل الاجتماعي، وفي مقدمتها " الفيسبوك" نجد في المقابل محدودية الاهتمام بمجاراة أو مواكبة هذا النمو فيما يتعلق بوضع إطار قانوني أو ميثاق شرف أخلاقي ينظم هذا القطاع انطلاقاً من مبدأ أخلاقيات المهنة وليس انطلاقاً من مدخل الرقابة وأنواعها الذي قد يعيدنا مرة أخرى إلى مربع " الرقابة الرسمية" وغيرها المتبعة بحق وسائل الإعلام التقليدية.

ولغاية الآن لا توجد في فلسطين أي قوانين أو نصوص تشريعية تتعلق بالقواعد المنظمة للنشر على الانترنت، أو قواعد خاصة تنظم العمل داخل مقاهي الانترنت ، كما أنه لا توجد أي تقارير حول فرض أي نوع من أنواع الرقابة الرسمية على محتوى الشبكة ، أو الأنشطة التي يتم ممارستها عبر الانترنت . هذه الحرية التي تتمتع بها شبكة الانترنت داخل الأراضي الفلسطينية لا علاقة لها بحرية الرأي والتعبير، ولكنها تعود لأسبابٍ تقنية في المقام الأول، حيث يصعب مراقبة الشبكة لعدم وجود سلطة كاملة للفلسطينيين عليها، وهذه الحقيقة تبدو أكثر وضوحاً عند المقارنة مع أوضاع الإعلام التقليدي داخل الأراضي الفلسطينية.

صعوبة قيام السلطة الفلسطينية بفرض أي رقابة على شبكة الانترنت تنطلق من سيطرة وتحكم الاحتلال الإسرائيلي بالنقاط الرئيسة لشبكة الانترنت، وهو الأمر الذي يسمح للمواطن الفلسطيني بتجاوز أي محاولات للحظر تحاول السلطة أن تفرضها.

فمصدر اتصال الشركات الفلسطينية بالإنترنت كان وما زال من ثلاث شركات إسرائيلية كبرى، هي: **شركة نت فيجن**: والتي تتصل بالإنترنت من خلال نقطتي اتصال في حيفا وتل أبيب، عبر خطوط فايبر أوبتك تحت

البحر، حتى ولاية نيوجيرسي وولاية نيويورك في أمريكا، **وشركة باراك**: وتتصل بالإنترنت من خلال نقطتي اتصال في تل أبيب ورأس العين متصلين عبر خطيّ فايبر أوبتك تحت البحر أحدهما بولاية نيوجيرسي، والآخر بلندن. **وشركة إنترنت جولد**: وهي متصلة أيضا بخطوط فايبر أوبتك تحت البحر من خلال نقطتين في "رمات جان" ورأس العين متصلتين بولايتي نيوجيرسي وبوسطن بأمريكا[33] .

ورغم ذلك إلا أن هنالك محولات وممارسات من أشكال الرقابة على الانترنت سواء في فلسطين أو غيرها من الدول العربية، حيث تبين الصحافية والمدونة أسماء الغول إن الرقابة المتطورة يُقصد بها أن تقوم الحكومة بوضع برامج تجسس متطورة في العالم الافتراضي كي تتصيد المعارضين من المدوّنين، أو تلاحق" لآي بي" الخاص بجهاز حاسوب المدون أو المستخدم لصفحة الفيسبوك وغيرها . وتذكر الغول جملة من أشكال الرقابة على شبكة الانترنت فتقول:" حين يقوم رجل الأمن بمراقبتك بذاته، فمثلاً- أحد العاملين في " كوفي نت" في غزة قال لي إن رجل الأمن يجلس بجانبه كل فترة ويجعله يفتح على الجهاز الرئيسي شاشة بعض المستخدمين ليعرف ماذا يكتبون، أو يضع الأمن كاميرا كما يحدث في الأردن التي تمنع 48 موقعاً في الوزارات والمؤسسات الحكومية بحجة عدم إهدار الوقت رغم أن أغلبها مواقع إخبارية، أو يكون الجالس على الحاسوب بجانبك هو رجل أمن كما يحدث في تونس" .

وتضيف :" هناك طرق التجسس الأخرى كأن يكون من ضمن أصدقائك على الفيسبوك ثلاثة أو أربعة يقدمون صورك وتعليقاتك بشكل مجاني، وهناك في قطاع غزة بعض المعتقلين " الفيسبوكيين" بتهمة التعرض للذات الإلهية والنقاش في الدين، ويتم الإفراج عنهم غالباً في اليوم ذاته بعد التحقيق معهم، كذلك في الضفة الغربية اعتقلت الأجهزة الأمنية هناك صحافياً يعمل لدى تلفزيون (القدس) لأنه وضع صوراً ساخرة للرئيس محمود عباس على بروفايله على الفيسبوك". وأشارت الغول إلى أن الوضع بين الضفة الغربية وقطاع غزة كأنه مرآة، فبينما تقوم الحكومة في قطاع غزة باعتقال الليبراليين والتحقيق معهم، كذلك تفعل حكومة الضفة مع الإسلاميين من صحافيين وكتاب، وتنصب لهم المحاكمات العسكرية. ورأت الغول أنه رغم أشكال الرقابة المختلفة على وسائل الإعلام التقليدية إلا أن الرقابة ضعفت كثيرا أمام وسائل الإعلام الجديد خاصة إذا كان المستخدمين لا يستعملون أسماءهم الحقيقية "[34].

وفي الحالة الفلسطينية هنالك بعض الأمثلة على تدخلات أو ضغوط السلطات السياسية والأمنية بالتدخل في العالم الافتراضي والتأثير في رسالته ومادته . ومن هذه الأمثلة طلب حركة "حماس" من شركة الاتصالات الفلسطينية "بال تل" حجب الدخول إلى مواقع الإنترنت الإباحية في قطاع غزة. وقالت وزارة الاتصالات التابعة لحماس: إن شركة الاتصالات "بال تل" وافقت على منع مستخدمي الإنترنت في الشريط الساحلي الخاضع لسيطرة حماس من مشاهدة المواقع الإباحية بدءًا من هذا الشهر.[35]

إلى جانب هذه الحالة هنالك حالة أخرى تتمثل في قضية مراسل فضائية " القدس" في بيت لحم ممدوح

حمامرة والتي تتلخص باستقباله على صفحته في " الفيسبوك " صورة تظهر الرئيس محمود عباس وشخصية مأمون بيك، التي ظهرت في المسلسل الشهيرة باب الحارة ، وكتب على الصورة "وجهان لعملة واحدة"، وهذا ما أعطى جهاز المخابرات في الضفة ذريعة اختطافه وتوجيه التهم السابقة له. وخلال وجود حمامرة لدى المخابرات ذهب بعض عناصرها لبيته وقاموا بمصادرة جهاز الكومبيوتر.وقد دام اعتقال حمامرة لدى جهاز المخابرات 55 يوماً[36].

والى جانب الحالتين السابقتين قامت السلطة الوطنية بحجب موقع دنيا الوطن في الضفة الغربية و التابع لدنيا الوطن. وقد تم حجب الموقع الذي ينشر فيه ما يزيد عن 2000 كاتب فلسطيني وعربي من كافة أنحاء العالم يعبرون عن رأيهم في كافة القضايا السياسية والثقافية الفلسطينية والعربية والدولية منذ تأسيس دنيا الوطن قبل 7 سنوات. ورأى القائمون على موقع دنيا الوطن أنه لا مبرراً لحجب دنيا الرأي، مطالبين في الوقت ذاته من الرئيس أبو مازن إصدار تعليماته للجهات المختصة برفع الحجب تعزيزا للديمقراطية وحرية الرأي والرأي الآخر. جدير أن نذكر هنا أن الموقع عاد للعمل والنشر[37].

مثل هذه الحالات وغيرها قد تتعدد أشكالها وتتصاعد وتيرتها وفق الحالة التي تشهدها الساحة الفلسطينية، مع الإشارة هنا إلى أهمية رصد ومتابعة وتحليل مثل هذه الحالات وغيرها التي لها آثار سلبية كأداة ضغط على وسائل الإعلام الجديد، والتأثير السلبي على مضمونها ورسالتها وتوجهاتها.

ورغم كل ذلك إلا أن هذه الرقابة تم الإطاحة بها في كثيرٍ من الأحيان بفضل الآليات والإمكانات المتاحة التي وفرتها تقنيات ووسائط الإعلام الجديد، بحيث تمكن الإعلاميين الفلسطينيين، كغيرهم من إعلامي العالم، من مواجهة الرقابة الإعلامية، والتخفيف، قدر الممكن من هذه الرقابة التي لها سلبيات مثيرة، قد تكون أسوأها الرقابة الذاتية التي تؤدي في الغالب إلى هشاشة مخرجات المضمون الإعلامي وسطحيتها، والذهاب به بعيداً عن قضايا مجتمعية هامة وأساسية.

وبالفعل؛ فقد استطاع العديد من الإعلاميين الفلسطينيين القفز عن الرقابة ومواجهتها عبر مثل هذه الآليات التقنية وغيرها من الأدوات المطعمة بالتحايل والفراسة وحسن الإدارة. تقول نائلة خليل:" الخيبة من عدم النشر قاسية جداً، خاصة عندما تقتنع بأن المادة مهمة، ولكن، دائماً هناك طرق أخرى للنشر، فما لا يُنشر على الورق ينشر على الانترنت، والآن يمكن لكل صحافي وصحافية أن تؤسس مدونتها الخاصة، وما يرفض من المؤسسة الإعلامية ينشر في المدونة[38] .

أما الصحافي حسن دنديس فيؤكد : " إن الرقابة التقليدية أصبحت تتهاوى أمام تيار التقنيات الإعلامية الجديدة، حيث لا يمكن لأية رقابة مؤسساتية، سواء الأمنية أو السياسية أن تطارد أو تصطاد أية معلومة في الفضاء الإعلامي، وهذا ما جعل المدونين وغيرهم ينشرون ويبثون، بالكتابة أو بالصورة أو بالصوت، قضايا حساسة وهامة، من شأنها إسقاط حكومات عربية في حال توافرت الديمقراطية في مكونات الأنظمة السياسة والمجتمع عموماً[39] .

وفي السياق ذاته يرى المصور والإعلامي عوض عوض أن المصور والصحافي الفلسطيني ساهم، من خلال نشر

الصور النوعية الخاصة بالقضية الفلسطينية، بإضعاف الرقابة، منوهاً أن التقنيات الحديثة في الإعلام ساعدت في تراجع الرقابة الذاتية وتفكيك خيوط كثيرة للرقابة التقليدية التي تسعى إلى ديمومة الهيمنة والإلغاء والتعتيم[40].

إلى ذلك؛ فإنه نظراً لخصوصية الحالة الفلسطينية فإن لوسائط الإعلام الجديدة أهمية قصوى في التأثير الايجابي لنصرة قضايا الشعب الفلسطيني وإسماعها لمختلف شعوب العالم. هذا الأمر يتأتى من خلال تحييد الإعلام عن السياسة حتى يبقى حراً وفاعلاً وقادراً على خلق وتعميق الرواية الخاصة بالفلسطينيين(شعباً وأرضاً وحضارة). فالإعلام الجديد يمثل للقضية الفلسطينية أحد أدوات الفعل المقاوم لا سيما في حال تم توظيفه بالشكل المهني والاحترافي. كل ذلك يمكن تحقيقه بوجود إعلاميين واعين لمهنتهم ولقضيتهم، دون أن يكبلوا أنفسهم بالرقابة الذاتية التي تمثل معيقاً رئيساً في تطبيق الحرية ومبادئها[41] .

وبهذا؛ يمكن التأكيد أن الرقابة بكافة أشكالها، خصوصاً الرسمية منها أخذت تتراجع إلى حد الاختباء والاختفاء ليس في المشهد الفلسطيني فحسب، بل والعربي والعالمي عموماً. فسوط الرقيب والرقابة لم يعد قادراً على الفعل والمطاردة إزاء أولئك الذين ارتضوا أن يكونوا جزءاً من عالم الشبكات الافتراضية؛ يقولون ما يشاءون، معبرين عن آراؤهم ومواقفهم وهمومهم وآمالهم بكل حريةٍ سواء أكان ذلك بأسمائهم الحقيقية أو بأسماءٍ وهمية.

وإجمالاً لكل ما سبق يمكن القول: إن فشل الأنظمة السياسة في العالم العربي في تنفيذ تعهداتها بشأن الديمقراطية ينعكس على مستوى حرية الإعلام. هذا الفشل يرتبط، أيضاً، بإخفاقات أخرى في تحقيق التنمية الإعلامية والاستجابة للتغير المتسارع في عصر المعلومات . وعلى رغم أن الحكومات العربية تتعرض لضغوط عالمية شديدة لإطلاق الحريات، فإن السلطات العربية لن تمنح حرية التعبير، لا للصحافيين ولا للمواطنين.

في ظل هذا التقييد الحكومي والرقابة الرسمية على الإعلام العربي فإن شبكة الاتصالات المتطورة عالمياً، وفي قلبها الانترنت وما نجم عنها من وسائط إعلامية حديثة أهمها شبكات التواصل الاجتماعي، والتي أبرزها الفيسبوك ستقوم بدورٍ متزايد في تشكيل الإعلام العربي والحيز العام العربي . فالإعلام الجديد في العالم العربي وبخاصة وسائطه الجديدة يأتي بجرعاتٍ يومية من منتجات إعلامية بعيدة عن مقص الرقابة، تساهم بتشكيل الرأي العام الذي، بدوره، يدفع الحكومات العربية إلى التجاوب. إمكانية وصول الجمهور العربي إلى المعلومات الكاملة والدقيقة ستحدث، بلا شك، رقابة وحدة وهيمنة السلطات السياسية والدينية والاقتصادية، مؤدية بالتالي إلى مجتمعاتٍ عربية أكثر انفتاحاً وتطوراً.

الهوامش

1 . إن تأريخ الإنسانية ومنذ تأسيس أول التجمعات السكانية وأنظمة الحكم يكشف لنا أن ملاحقة الفلاسفة والفقهاء والمفكرين والإعلاميين وغيرهم، وحرق كتبهم، ومطاردة أصواتهم وآرائهم لم ولن تفلح دوماً، بل ساهمت في زيادة الاهتمام بنتاجهم الفكري وحصولهم على الشهرة والانتشار والتأثير. وفي مقابل ذلك فقد نالت فكرة "الرقابة" امتيازاً على مر التاريخ باعتبارها عملاً مشروعا يحمي مصالح المجتمع، ويدافع عن المخاطر التي تهددها. إذن "الحرية المنضبطة والضابطة" هي التي يجب أن تسود في كافة حقول الحياة الإنسانية والمادية. بدون ذلك لن نحصل على حرية أو تطور بقدر حصولنا على الفوضى والصراع المفتوح. للمزيد: انظر: صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص37.

2 . كلما كانت مفردة الحرية ملازمة للوعي الإنساني فان حرية التعبير والرأي هي اللازمة المعبرة عن ذلك الوعي، وبالإمكان القول إنه في كل مرة (يفكر) إنسان ما فهو حر أو يتحرر ، والتاريخ الإنساني، بكل الصراعات التي شهدها هو في الواقع صراع من أجل أن يملك الإنسان حق أن (يفكر) أو أن (يعبر) عن آرائه ومعتقداته ، وكل أنماط الاستبداد التي مورست كانت في الواقع تتجه إلى نفي ذلك الحق ومصادرته وإلغائه. للمزيد انظر: ألبير بابيه، تاريخ الفكر الحر، ترجمة عاطف علبي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1996، ص5.

3 . محمود الفطافطة، الرقابة الذاتية في الصحافة الفلسطينية : عوامل التكوين وأدوات التفكيك، تسامح، عدد 32، السنة التاسعة، 2011، رام الله، ص91.

4 . محمود الفطافطة، تأثير الانتهاكات على الرقابة الذاتية لدى الإعلاميين الفلسطينيين، المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية "مدى"، رام الله، 2010، ص5.

5 . ينبه بعض الباحثين إلى ضرورة الاهتمام بقضية حرية التعبير ودراستها بشكلٍ متكامل ومترابط، فتدرس حرية الصحافة مثلا إلى جانب فهم ودراسة الحريات الاجتماعية والسياسية والدينية في المجتمع الواحد. ويبرر أولئك الباحثين هذا الاتجاه الترابطي لرغبتهم في تعزيز وتقوية دراسة هذه القضية، حيث إن دراستها بشكلٍ مستقل في مجالات محددة إضعاف لها. انظر: عبد الله بن خميس الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1، 2010 ، ص 169

6 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص 109.

7 . من مرحلة الإعلام الشفهي عبر التاريخ إلى مرحلة الإعلام الخطي بعد اكتشاف الحروف والكتابة ، وصولا إلى مرحلة الإعلام الطباعي ثم الإعلام الالكتروني القائم على استخدام التقنيات التواصلية الحديثة مثل الراديو والتلفزيون والانترنت، فإن الإعلام وفي كل مرحلة كان له قوانينه ومحدداته، وأمام كل نمط من وسائل الاتصال نوع من الرقابة ، وكان هنالك أسلوبا من المنع والمصادرة ، ولم يشهد التاريخ الإنساني تصالحا أو مهادنة بين الطرفين، بل أن قوانين المراقبة تتسع مع تنوع الأساليب والوسائل الإعلامية، فالرقيب مطلع القرن الماضي، على الصحافة اليومية المطبوعة ، هو غيره الرقيب اليوم على المدونات الإعلامية على شبكة الانترنت . ولكن نمو المجتمعات واتساع دائرة المشاركة في الرأي والقرار، وبناء منظمات حقوق الإنسان والمجتمع المدني، إلى جانب المنظمات الصحافية المهنية وإصدار القوانين الحامية للحريات والأداء الإعلامي، جميعها كانت عاملا إضافيا في تعطيل أو تخفيف آثار الرقابة المباشرة، وعمليا فقد انتهى عصر الإعلام التابع لمصادر محددة وغالبه حكومية، وأضحي اليوم ينتشر بين منابر حكومية ، وأخرى لمؤسسات خاصة أو لمنظمات المجتمع المدني ، وثالثة للأفراد أو من الذين وجدوا من الشبكة الالكترونية الواسعة التي توفرت عبر الانترنت وخدماتها ممثلة بالشبكات الاجتماعية ، ميداناً واسعاً للإفلات من دائرة الرقابة والتحكم. للمزيد، انظر: صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص 46.

8 . عبد الله الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، مصدر سابق، ص169.

9 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص36.

10 . الحدث الأول يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، عندما اخترع الألماني يوحنا جوتنبرج الطباعة بالحروف المعدنية . حيث ضاعف هذا الحدث من دور الكنيسة الرقابي في الغرب، وأصبح عليها الإسراع بصياغة قوانين وشروط جديدة تتماشى مع سرعة الطباعة الميكانيكية الجديدة . وقد انتبه القائمون على السلطة في الغرب أن الكتب المطبوعة يمكن أن تستخدم وسيلة لنقل أفكار متعارضة ومن هنا بدأت المطابع تخضع لقوانين قوية . فعلى سبيل المثال، حدد هنري الثامن ملك انجلترا في 1529 قائمة بالكتب الممنوعة ونظاما لترخيص المطبوعات. أما الحدث الثاني، فتمثل في الإشارات الأولى في الدساتير والقوانين عن حريات التعبير والصحافة. ففي 1789 صدر لأول مرة ميثاق حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا غداة الثورة الفرنسية. حيث أشار ذلك الميثاق لأول مرة إلى أن " التداول الحر للأفكار والآراء هو أحد حقوق الإنسان المهمة، فيجوز لكل مواطن أن يتكلم ويكتب ويطبع بصورةٍ حرة، مع مسئولياته عن سوء استعمال هذه الحرية، في الحالات التي يحددها القانون". هذه الإشارة النصية الأولى لحرية التعبير مثلت روح المادة رقم 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 1948 . انظر: عبد الله الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، مصدر سابق، ص169. 170.

11 . محمود الفطافطة، تأثير الانتهاكات على الرقابة الذاتية لدى الإعلاميين الفلسطينيين، مصدر سابق، ص 52 .

12 . عبد الله الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، مصدر سابق، ص169.

13 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص39.

14 .عبد الله الفيفي، مستقبل الثقافة العربية في ظل الوسائط الاتصالية الحديثة، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010 ، ص 220.

15 . إن تحكم الولايات المتحدة الأميركية من خلال " الإيكان" ذات المرجعية القانونية والمرتبطة بوزارة التجارة الأميركية) مفاصل شبكة الانترنت)، أضحت مكمن نزاع كبير بين دولة " اخترعت " الانترنت ووضعته في المجال العام وفق مقاييسها (لدرجة قدرتها نظرياً على منع وصول أية دولة تريد الارتباط)، وبين مجموعات دول (أوروبية تحديداً، بالإضافة إلى الهند والصين والبرازيل وجنوب أفريقيا وغيرها) لم تعد ترى من مسوغ لتحكم دولة من الدول (حتى وان كانت الولايات المتحدة) في شبكة أضحت مع الزمن " ملكا كونيا مشتركا" بامتياز. ولكن واقع الحال السائد يشي بان أميركا لم يعد لها الكلمة الفصل التي كانت تحتكرها في بداية الشبكة ، لا سيما في ظل ظروف جديدة بدأت بعض المجموعات تفكر في " الاستقلال" عن الشبكة الأصل وإنشاء شبكة خاصة بها. وفي الحالة العربية فقد دعا تقرير أعده خبراء المجلس القومي للثقافة والإعلام بمصر إلى الإسراع في إنشاء انترنت عربية وتزويدها بالمعلومات المتجددة بدلا من الاعتماد على الشركات العالمية والى التوسع في هذه الشبكة لتصبح بلغات عالمية تسمح للشركات والمؤسسات الدولية باستخدامها . وكذلك طالب التقرير بإحداث تكامل معلوماتي عربي يقوم على حشد الإمكانات والمشاركة في الموارد المعلوماتية لمواجهة التكتلات العملاقة والتصدي للنزعة الاحتكارية خاصة في مجال صناعة البرمجيات وذلك بإصدار تشريع عربي يعالج جميع المشكلات المتصلة بالمعلومات وبثها واستخدامها.

للمزيد : راجع وثائق القمة في موقع الأمم المتحدة على شبكة الانترنت: قمة المعلومات التي عقدت في تونس 2005 ، وكذلك: يحيى اليحياوي، العرب وشبكات المعرفة دراسة في الموقع والواقع، دار الطليعة بيروت ط1، 2007، ص40 . بخصوص تقرير المجلس القومي فيمكن الرجوع إلى: سامية غرارة، واقع صناعة البرمجيات العربية، 2008/8/10: http://www.aitnews.com/

16 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص39.

17 . (جريدة الحياة، لندن، 2009/4/12، ص17.

18 . إن التعليقات لها بالغ التأثير على الترويج لفكرة ما أو إلصاق تهم أو نزعها أو تغيير دفة الحدث تماما. وعلى قدر أهميتها أحيانا في البوح بما يختلج في النفوس المكبوتة والتعبير عن الآراء والمواقف والأفكار إلا أنها في معظمها تتضمن إما اتهامات مرسلة أو تجريح عام وشخصي أو صراخ هستيري لا يعني أي شيء سوى الشعور بالغضب وعدم التحقق واليأس الكامل . هذا التناقض حدا بالمستخدم من الهمس إلى العلن ومرة أخرى من العلن إلى الاختفاء، حيث أن العديد من أصحاب النصوص الأصلية يسعون إلى إعادة إغلاق النص مرة أخرى، ليسود الهمس. وهو الفعل المضاد الذي يجعل المجال الثقافي الموازي ليس إلا إعادة إنتاج للواقع الثقافي المادي. انظر:

19 . صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، مصدر سابق، ص46.

20 . رغم أن فعل الرقابة يتضاءل باستمرار في عهد وسائل الإعلام الجديدة إلا أن قطاعات كبيرة من الجماهير وبعض المؤسسات في العالم قد تعود للمطالبة به في المستقبل لحماية اطر اجتماعية وثقافية معينة، فالمطالب بإنهاء الرقابة كليةً على وسائل الإعلام، ربما لا يدرك حقيقة ذلك، حيث أن الحرية المفتوحة تخلق مخاطر مفتوحة وهائلة، خاصة في زمن الفضائيات وعصر الانترنت وما يستجد من أدوات واختراعات مذهلة في عملها، وخطيرة في نتائجها ،إن لم يحسن توظيفها. انظر: عبد الله الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، مصدر سابق، ص179.

21 . المصدر نفسه، (الكندي، 2010، 173).

22 .توفيق شومر، الرقابة الذاتية عند الصحفيين الفلسطينيين"، الحوار المتمدن:استرجع بتاريخ 2010/7/6 من:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=145797

23 . تستخدم الولايات المتحدة الأميركية نظام " ايشلون و هو نظام للمراقبة والتنصت والتعرض للمعلومات صممته أميركا في أثناء الحرب الباردة، لكنه لم يعرف الشهرة الحالية إلا بعدما تطورت التكنولوجيا وأضحت " مطواعة " لأكثر من وظيفة. هذا النظام يوظف العديد من الأقمار الصناعية الدولية والجهوية (انتلسات،عربسات، وغيرها)، تلتقط جميع أنواع المعلومات المتداولة عالميا (عبر الهاتف والفاكس والتلكس والبريد الالكتروني وغيرها)، وتعالج في محطات ضخمة في أميركا وغيرها من الدول ثم تتمركز في أيدي " وكالة الأمن القومي " (NSA) التي تتحكم في نظام التشفير ووسائل الإبحار في المعلومات المحصل عليها. إنها تضمن سرية المعلومات القومية، لكنها تستبيح معلومات الآخرين. انظر: يحيى اليحياوي، العرب وشبكات المعرفة دراسة في الموقع والواقع، مصدر سابق، ص52.

24 . توضع هذه الشريحة الالكترونية داخل التلفزيون، أو في صندوق الكتروني متصل به، وتقرأ هذه الشريحة كود التحذير الذي يحدد درجة العنف ومدى الإباحية وما شابه. وقد ألزم القانون ضرورة وضع هذه الشريحة على كل الأفلام والمواد التلفزيونية والمعلومات التي يتم تبادلها عبر الانترنت وأجهزة الإعلام. انظر: نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص396.

25 . عبد المنعم ، خليفة، رقابة الإنترنت صمام أمان أم تقييد للحريات، انظر: 24 مايو 2008: http://islamtoday.net/nawafeth/

htm.12737-artshow-50

26 . يُشار إلى أن توجيهات وكالات مكافحة الإرهاب التابعة للاتحاد الأوروبي تتيح لشركات الاتصالات الاحتفاظ بتسجيلات للمكالمات الهاتفية والرسائل النصية لفترة تصل إلى 12 شهرًا. انظر: المصدر نفسه.

27 . http://www.aitnews.com/news/12281.html

28 . http://arabia.reporters-sans-frontieres.org/article.php3?id_article=31876

29 تعرض من قبل شرطيين مصريين إلى الضرب المبرح مما أدى إلى وفاته في الشارع بعد أن ألقيا القبض عليه في مقهى إلكتروني. وقد تم تداول معلومات تفيد بربط هذه القضية بنشر خالد سعيد شريط فيديو على الإنترنت يفضح تورّط الشرطة في قضية مخدرات. ومع أن التشريح الرسمي أوضح أن الوفاة ناتجة من جرعة زائدة من المخدرات، ولكن الصور التي التقطت لجسده تكذّب هذه الرواية وتؤكد نظرية القتل. للمزيد، انظر:

30 . http://www.ifex.org/international/2011/03/15/cyber_censure/ar/

31 . ورغم أن تونس ومصر قد سحبتا من لائحة أعداء الإنترنت إثر سقوط النظامين، إلا أن هذين البلدين لا يزالان تحت المراقبة تماماً كما ليبيا. الهدف من وراء هذا الإجراء هو تعزيز مكتسبات الثورة كما إنه لا بد من ضمان الحريات الجديدة.

32 . عبد المنعم ، خليفة، رقابة الإنترنت صمام أمان أم تقييد للحريات، مصدر سابق.

33 . سعيد أبو معلا، مصدر سابق، ص67.

34 . أسماء الغول، بين البدائية والتطور: الرقابة على الانترنت – حالة التدوين في غزة والضفة كنموذج، موقع حرية التعبير في خطر:
http://freedomofexpressionunderfire.org/226

35 . http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=126438&pg=2

36 . http://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=696680&page=2

37 . http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2009/04/15/137014.html

38 . نائلة خليل(جريدة الأيام)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/4/28

39 . حسن دندس(صحافي مستقل)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/5/4

40 . عوض عوض (رئيس المجلس الإداري لنقابة الصحافيين الفلسطينيين)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/4/23

41 . فارس محمود (دكتوراه في الهندسة الالكترونية والشبكات المعلوماتية) مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/5/15

المبحث الثامن

الإعلام الجديد والثورات العربية

في الوقت الذي يستمر فيه تقدم تكنولوجيا المعلومات وازدياد كثافة التدفق المعلوماتي وتعقد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العالم وشعور الأفراد المتزايد بكيانهم الذاتي وفاعليتهم كأفراد في بناء مجتمعاتهم تغيرت النظرة إلى تلك المعلومات والتكنولوجيات، وظهر موقف جديد يعبر عن عهد جديد أكثر ايجابية، حيث لا يكتفي فيه الأفراد والجماعات والمؤسسات بالحصول على المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أهدافهم الخاصة ولكنهم يتولون بأنفسهم (صنع) وابتكار معلومات جديدة والعمل على تداولها، ودعوة الآخرين لمناقشتها في حرية ووضوح دون فرض أي قيود لضمان سرية المعلومات وحمايتها .

هذا الموقف الجديد أصبح يُطلق عليه اسم " عصر المشاركة " Age Of Participation الذي تزداد فيه دوائر الاتصال والتبادل اتساعا بغير حدود أو قيود، وتضم ملايين البشر الذين يشاركون معاً في مناقشة المشكلات وإيجاد حلول لها، بل وإثارة مسائل وقضايا جديدة عن طريق الشبكات الدولية، وأهمها الشبكة العنكبوتية " الانترنت "[1].

وليس من شكٍ في أن المشاركة هي الاستجابة المنطقية للأوضاع والتحديات السائدة في العالم الآن ، ولذا تبدو للكثيرين على أنها حق أخلاقي وأدبي للجميع، وبخاصة بعد انتشار الانترنت وسهولة التواصل والحصول على المعلومات وزيادة الإقبال على مواقع التفاعل الاجتماعي، ليس كوسيلة للتعبير عن الرأي ولكن أيضا كأداة وعامل في إرساء قواعد التفاهم واحترام الثقافات والقيم المختلفة المتباينة والتوفيق بين المصالح المتعارضة وتوطيد العلاقات وإيجاد نسق من الضوابط، وعوامل المواءمة، فضلاً عن إبراز التفرد والتنوع الخلاق.

في هذه الحدود يمكن اعتبار عصر المشاركة نهاية ليس فقط لعصر التحكم في المعلومات، ومنعها عن الآخرين إلا بشروطٍ معينة كما تقضي بذلك سياسة الملكية الفكرية المرتبطة بعصر المعلومات، ولكن أيضا مؤشراً على قرب نهاية أشكال التحكم والتسلط، نتيجة للتحولات التي تطرأ الآن على مختلف النظم الإنسانية وإعادة النظر في جميع التنظيمات الاجتماعية والسياسية . فالمشاركة مفهوم يعكس في بعض أبعاده التمرد ورفض كثير من الأوضاع القائمة التي تستند إلى مبدأ التسلط في كثير من جوانب الحياة ابتداءً من التنظيم العائلي في كثيرٍ من المجتمعات إلى علاقات العمل في المجال الاقتصادي إلى البعد الإنساني في النظم السياسية التسلطية ، وغير ذلك من الأوضاع التي تركز سلطة اتخاذ القرارات المؤثرة في حياة ومصير الآخرين في أيدي فئة محدودة من الأشخاص[2] .

تحول التكنولوجيا الرقمية - بما أنتجته من تطورٍ في وسائط الاتصال والإعلام الجديد - من حقلٍ للمعلومات

يتيح حرية الرأي والتعبير والتفكير إلى حقلٍ للمشاركة والتواصل والتفاعل في الميدان ينقلنا للحديث عن الحالة العربية التي تميزت بعض ثوراتها الأخيرة بتجسيد " مفهوم المشاركة " ، مؤدياً لدرجةٍ عالية من تحققه عبر إزالة نظامي الحكم في كلٍ من تونس ومصر، في الوقت الذي ما زالت فيه بعض الثورات تستعر في كل من ليبيا واليمن وسوريا، إلى جانب " الهبات" التي تبرز هنا وهناك فتخبو حيناً وتلتهب أحياناً رافعة في معظمها شعاراً واحداً وهدفاً محدداً أصبح كـ " الأيقونة " لدى الشعوب العربية وهو : " **الشعب يريد إسقاط النظام** ".

وانطلاقاً من هذه الأرضية سيناقش هذا المبحث دور وأثر مواقع التواصل الاجتماعي، خاصة الفيسبوك في إشعال واستمرار ونجاح هذه الثورات، مع التركيز على ثورتي مصر وتونس، مع الإشارة هنا إلى أن الحديث في هذه المسألة متشابك وممتد، لذا سنتقيد بما تفرضه الحتمية البحثية من معالجة جذرية بعيداً عن الاستطراد الذي قد يجنبنا الهدف المرصود. وقبل الخوض في جوف هذه المسألة نود التعريج، قليلاً، على دور الشبكات الاجتماعية في التواصل والفعل الاجتماعي كقاعدةٍ ننطلق منها نحو تناول وتحليل الموضوع قيد المعالجة.

مما لا شك فيه أن دور هذه الشبكات ، ومن بينها " الفيسبوك " في نحت الوعي المعاصر بديل معقول من التواصل الإنساني المباشر . وقد أثبتت الكثير من الوقائع والدراسات مدى تأثير هذه الشبكات في وعي الإنسان وتصرفاته. ولعل السبب الأول في ذلك يعود إلى التفاعل مع الآخرين، والاطلاع السريع على الأحداث العالمية والتدخل في الأزمات السياسية ، بحيث شكلت وسائط الإعلام الجديدة عامل ضغط كبير في أحداث كثيرة، منها انتخابات الولايات المتحدة في نهاية عام 2008، والاحتجاجات التي أعقبت انتخابات إيران في العام 2009، وكذلك في حرب غزة في أواخر العام 2008، إضافة إلى أزمة الرئاسة المصرية لفترة ما بعد حكم الرئيس حسني مبارك[3].

ويُلحظ دور هذه الشبكات في حركات الاحتجاج؛ ففي حدود 18 ثانية على الانترنت، يتحول الغاضب بعد ذلك إلى مشارك مجاني لا يتحمل كلفة المشاركة والنزول إلى الشارع.. وفعلاً بدأ الأمر بارزا جدا في الأحداث التي أعقبت الانتخابات الرئاسية الإيرانية، وطرحت سؤالا مهما حول دور الشبكات الاجتماعية في نقل الحدث وتوصيفه، حتى أن البعض طرح سؤالا حول دور هذه الشبكات في تغيير الأنظمة وتحديد شكل العالم الجديد. هذا التأثير الإعلامي اعترف به كبار المسؤولين في الدول المتقدمة، منهم مثلا، رئيس وزراء بريطانيا الأسبق " غوردون براون" الذي رأى " أن السياسة الخارجية ستتغير يفضل الانترنت، واصفا حقبة الانترنت بأنها أكثر صخباً من أي ثورة اقتصادية أو اجتماعية "، واعتبر أن " الثورة المعلوماتية قد تساهم في منع الإبادة الجماعية لأن أي معلومة ستخرج إلى العلن بسرعة فإن الرأي العام سيحرك ". وفي أحداث العنف الإيرانية التي تلت نتائج الانتخابات واحتجت فيها المعارضة على إعلان فوز الرئيس احمدي نجاد بولاية ثانية ، تحولت الشبكات الاجتماعية إلى إعلام قوي، أبطاله أو نجومه مواطنون عاديون بدلا من المراسلين الذين منعتهم السلطات الإيرانية من العمل[4].

استخدام هذه التقنيات الإعلامية الجديدة طرحت في العالم عموماً وفي الوطن العربي على وجه الخصوص

فكرة مفادها أن مظهراً جديداً من " الناشطية" **Activism** قد يمثل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المدني والمواطنين، وأسلوبا مختلفا في تحديد الناشطية السياسية، وذلك مع نشوء الفضاء الافتراضي والتواصل الالكتروني، وهناك ثمة أشكال متنامية من الاحتجاجات الاجتماعية التي ينظمها على المستوى المحلي مواطنون ساخطون قد يسدون الطرق بصورة عفوية احتجاجا على شح المياه أو على حوادث الطرق التي أودت بحياة أفراد من الجماعات التي يعيشون ضمنها .

ويعتبر عامل الجيل الخاص بالوسطاء الاجتماعيين حاسما في تحديد لغات جديدة للنزاع ، قد تُعطي الانطباع للوهلة الأولى بأنها غير مسيسة، هذه اللغة الجديدة تُبرز أولاً صوت كاتبي المدونات ومستخدمي الفيسبوك اليافعين والذين يمثلون جيلا أصغر مختلفا مقارنة بالناشطين. المفكرين الأكبر سناً في الحركات المختلفة ، كما تتميز لغة هؤلاء الشباب بصبغة تهكمية لاذعة وقاتمة وكئيبة، وبمواقف ساخرة تصور ببراعة مشاعر الإحباط في مواجهة النظام والخطاب التقليدي لأحزاب المعارضة . وتحمل اللغة المذكورة تأثيرات واضحة ناجمة عن استخدام شبكة الانترنت، مع الإشارة هنا إلى أن تراكيب الجمل والتنوع في أسلوب صياغة الأفكار والموضوعات، إضافة إلى استخدام الصور، تكشف جميعها انعطافا في طريقة نقل الرسائل، والتجديد في طريق الاحتجاج والتظاهر[5] .

هذه " الناشطية " التي تنتقل من العالم الافتراضي إلى ميدان الواقع نجد لها تحليلاً نظرياً لدى " مانويل كاستيلز" ، حيث نجد أن ملاحظات كاستيلز النظرية بشأن إعادة صوغ الرأسمالية العالمية (من خلال نزع الضوابط عن الصناعة وتحرير التجارة) مع التأثير الذي يسري في كل مكان للفضاء الافتراضي، تتجسد ضمن محددات المجتمع الشبكي . يطلق كاستيلز على هذا الوضع اسم " الرأسمالية المعلوماتية" ، وتبدو المعلومات المعالجة الكترونيا وكأنها تنتج تعديلا على التشغيل، وعلى النتائج في تلك الصيرورات. ومن هنا ، فإن التواصل الالكتروني لا ينتج فقط أشكالا جديدة من التفاعل، بل ينتج أيضا تنوعا متعددا في المبادئ والقيم التي يمكن (تصنيفها) ضمن نص حاسوبي سمعي- بصري رقمي .

وهكذا تُصبح المعلومة هي العامل الأساس للتنظيم الاجتماعي . وأهم ما في عمل كاستيلز هو ملاحظاته التي نشأت عبر مجتمع الشبكات، فيشير إلى أن التوترات التي تتولد بين " الذات " و" الشبكة "، أي التوترات الموجودة في العالم الافتراضي والعالم الواقعي ، تعتبر بالغة الأهمية لتفسير الحركات الاجتماعية الناشئة التي تأثرت بالثقافة المضادة خلال سبعينيات القرن العشرين . استنادا إلى أفكار كاستيلز فإن الأمر سيكون بالغا في توضيح ما يحدث الآن في البلاد العربية من ثورات واحتجاجات على الأنظمة الحاكمة. فالتوترات الموجودة بين العالمين الافتراضي والواقعي، ومشاعر الغربة المتولدة عن تلاشي التقاليد المحلية ،وشروط العمل غير المستقرة، وما إلى ذلك من انتشار الفساد والاستبداد، جميعا تؤدي إلى إجبار الأفراد على الإتيان بصيغ مبتكرة للهوية . وهنا تبدو الثقافة عاملا حاسما في الدعوة إلى التغيير. كما يمثل ظهور لغة جديدة مُرمزة ومختصرة تُستخدم في الرسائل القصيرة والبريد الالكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي المختلفة أساساً فيما يذهب إليه كاستيلز

بخصوص أثر التواصل الشبكي في التفاعل والتأثير الواقعي[6].

هذه " الناشطية " أخذت تتصاعد شيئاً فشيئاً من حيث الكم والنوعية والأهداف المطلبية في العالم العربي، منسوجة في عموميتها بخيط وعي المواطنين، خاصة الشباب منهم الذين تمكنوا من تنظيم أنفسهم بداية حول مطالب محسوسة تتصل بزيادة أسعار المواد الغذائية، والمطالبة برفع الأجور، وبتحسين ظروف العمل، لتصل في النهاية إلى الهدف الأكبر المتمثل بإسقاط النظام السياسي بكليته وهذا ما تم تحقيقيه في تونس ومن ثم في مصر لتستيقظ الشعوب العربية على فجرٍ جديد يحمل أسلوباً جديداً وشكلاً غير مسبوق من التعبير عن الاحتجاج الاجتماعي والسياسي تشكل التكنولوجيا المتجسدة في وسائط الإعلام الجديدة، وأبرزها الفيسبوك أحد أهم أدواته، في الوقت الذي لعب فيه الشباب العربي الدور الرئيس والفاعل في تحقيق هذا الهدف[7].

لقد شكل الشبان العمود الفقري للثورة الشعبية في مصر وتونس والذين جاءوا من أوساط الطبقة الوسطى، التي تعرضت لعملية إفقار ممنهجة، والتي تملك أيضا ـ نتيجة تعلمها ـ قابلية عالية للتأثير بما يدور من حولها وفي العالم ، وقد جاءت أيضا بلغة وأدوات العصر، أي أجهزة الاتصال الحديثة، ولا شك أن استخدام الوسائل التكنولوجية في التعبير والتواصل ينسجم تماما مع روح العصر وأدواته، حيث ثمة علاقة عضوية بين أدوات العصر وأشكال التعبير السياسي[8] .

فعلى سبيل المثال نشأت القومية في أوروبا وازدهرت بعد اكتشاف وتعميم الطباعة والمطبعة، وثورة البلاشفة في روسيا ارتبطت بصحيفة البرافدا، والأحزاب العربية ارتبطت بالمنشور السري، والقومية العربية الناصرية اقترنت بصوت العرب والراديو ، والثورة الإيرانية ارتبطت بالكاسيت، وحركات الإسلام السياسي استخدمت المنابر والمساجد وفي مرحلة لاحقة استخدمت أشرطة الفيديو المسجلة عبر الفضائيات وشبكة الانترنت، واليوم في مصر وتونس وغيرها من البلاد العربية لعبت صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، والرسائل النصية، وكاميرات الهاتف المحمول، دورا حاسما في تبادل المعلومات وفي تجميع وتنظيم الشباب الذين أشعلوا الشرارة الأولى[9] .

وفي ظل توافر وسائط الإعلام الحديثة في العالم العربي وازدياد الاهتمام بها، تزامناً مع تعمق واتساع منظومة الاستبداد والفساد في مفاصل النظام السياسي قفزت هذه الوسائط لتشكل وسيلة هامة من وسائل تحقيق التفاعل في نقد الممارسات السلبية للأنظمة العربية، وخلق رأي عام عربي ضد كل تلك السلبيات. وكان من أهم هذه الوسائط " الفيسبوك " الذي نجح في أن يتوج هذه التفاعلات بخلق تحركات شعبية واسعة المدى طالبت بالتغيير ونجح بعضها في تحقيق مطالبها، وبفضل هذا كله تمكن الموقع الاجتماعي من أن يحقق ثقلا كبيرا قي قيمته كأداة لا يستهان بها في هذا الصدد، إضافة إلى ما حظي به من سمعة طيبة جعلت إحدى المواطنين المصريين الذي أنجب طفلة خلال أحداث الثورة في مصر يسميها " فيس بوك"، تيمناً بالثورة، ولكون الفيسبوك إحدى أدوات تحريكها الأساسية[10].

وفي الحالة العربية فإن استخدام الفيسبوك قد يصل لأن سكون حالة من الحراك الفكري والسياسي، ومن

النقاش الفكري حول الأوضاع الاجتماعية، والنقد اللاذع لممارسات سياسية سلبية ومظاهر للفساد، تمتد من مجرد كتابة رأي والتعليق عليه، إلى تعليق روابط من الصحف والقنوات التلفزيونية حول أخبار محددة أو قضايا معينة تثير اهتمام المستخدمين، وتكوين مجموعات رأي معينة بشأن اجتماعي معين أو سياسي ، بحيث يتم تفعيل نوع من الحوار القوي حول الموضوع ، أو إنشاء مجموعات يكون هدفها الضغط على أصحاب القرار تجاه موضوع من الموضوعات لمطلب شعبي أو فئوي[11].

وكان لافتا أن " الفيسبوك" بقدر ما كان أحد المصادر الأساسية للمعلومات حول الإحداث في تونس منذ اندلعت ثورتها وتتبع الحركات الشعبية والمواجهات مع قوات الأمن وصولا لإسقاط بن علي، فإنه سرعان ما تحول إلى مصدر لمساعدة الثوار المصريين في تحركاتهم خلال الأيام الأولى للثورة، وذلك عبر النصائح التي كان يقدمها لهم الثوار في تونس عن كيفية مواجهة الشرطة والتعامل مع المدرعات والغازات المسيلة للدموع مما منح هذا الموقع الاجتماعي إمكانية جديدة في التواصل الثوري بين مجتمعين فصلت بين ثورتيهما أسابيع قليلة وحقق كل منهما تقريبا النتائج نفسها في إزالة نظامين مستبدين عن السلطة، وبالتحديد 23 يوماً في تونس، و18 يوماً في مصر.

ورغم قيام النظامين المصري والتونسي قبل سقوطهما بقطع خدمات الانترنت والاتصالات خلال الثورة إلا أن الثوار والمواطنين استطاعوا بطرق عدة إيصال أخبارهم وصوت شعبيهما إلى العالم، حيث لعب الإعلام الشعبي دورا كبيرا في تكوين رأي عام عالمي عما يحدث في تونس ومصر، وفي توثيق وقائع قتل المتظاهرين على يد البلطجية ورجال الأمن في مصر، وفي تونس من قبلها، ثم في البحرين واليمن وليبيا وسوريا في وقتٍ لاحق.

وبعد سقوط النظامين لم يكتف الثوار والمتظاهرين بذلك، بل تحول الفيسبوك إلى وسيلة رقابة شعبية لمتابعة مطالب ائتلاف شباب الثورة، وملاحقة الفساد، وفلول النظام السابق، والضغط على السلطة العسكرية المؤقتة لمحاكمة رموز الفساد. وتجلت هذه الظاهرة في تونس قبل مصر ممثلة في تزايد وتسارع إنشاء المجموعات الافتراضية على الانترنت، مثلما كان الشأن في تونس: مثل مجموعة " الثورة التونسية" ، ثم " تونس اليوم" ، و" مليون توقيع لأجل دولة برلمانية تونسية" ، " ثورة الياسمين" ، " تونس بعد الثورة" ، وعشرات المجموعات غيرها بعضها باللغة الفرنسية. وعلى الطريق نفسها سارت جماعات الرقابة الشعبية على " الفيسبوك " في مصر حيث شهدت الأيام الأولى للثورة وبعدها نشأة مجموعات عدة منها : " شبكة الرصد السياسي" ، " التجمع المصري لحماية ودعم ثورة الشباب" ، أحرار للنهاية" ، " مصر دولة مدنية " وغيرها.

وقد ظهرت العديد من المجموعات التي تناصر الثورات العربية من قبل شعوب دول أخرى ومنها مثلا : " كويتيون من أجل مصر" ، و" ندعم المجلس الوطني الانتقالي في ليبيا " الذي أنشئ بواسطة مجموعات من التونسيين في الأساس ، و" مصريون وندعم ثورة ليبيا " ، " أنقذوا ليبيا" ، " اللجنة المصرية لدعم ثورة اليمن" . بالإضافة لعددٍ آخر كبير من المجموعات التي أنشئت لدعم انتفاضات وتحركات شعبية أخرى في العالم العربي وبينها البحرين وسوريا وسواها[12].

ويبدو أن " الفيسبوك" أثر بقوة في الذهنية العربية وخصوصا لدى النخب حيث قام المجلس الرئاسي العسكري في مصر بإنشاء صفحة على الفيسبوك للتواصل مع المواطنين وخصوصا الشباب، حيث يقوم فيها بنشر كل البيانات الرسمية وتوضيح الحقائق حول أي موضوع من الموضوعات المطروحة على الساحة.

الظاهرة الأخيرة التي كشفتها الشبكة الافتراضية ممثلة في توتير والفيسبوك والفضاء الافتراضي إجمالا، وقد كانت متوقعة ضرورية، هي شروع الشباب الثوار في البحث عن وسائل إعلامية تعبر عنهم، بعيداً عن أدوات الإعلام الرسمية الحكومية والخاصة التي بدت في ملاحقاتها للأحداث عاجزة ، أو متلكئة، غير قادرة على الاستيعاب، تنتمي لعصر الشيخوخة الفكرية والسياسية أكثر بكثير من الحيوية والنزاهة التي تعبر عنها الثورة، وهكذا ظهرت أولى الصحف الالكترونية التي أنشأها الشباب باسم " الثوار" والتي تأسست تأكيداً على فكرة استمرار الثورة حتى تحقق كل مطالبها وللتعبير عن إبداعات الثورة، والأفكار التي يمتلكها الشباب من صانعي الثورة، وما يودون التعبير عنه، إضافة إلى فضح كل ممارسات الفساد التي خلفها النظام السابق، وكذلك نشر والدعوة إلى العمل الأهلي الخاص بتثقيف المجتمع وزيادة وعيه والتي انطلقت جميعها من الواقع الافتراضي[13] .

وهكذا يبدو الواقع الافتراضي معبراً بصدق عن اكبر حراك سياسي واجتماعي تمر به المنطقة العربية منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، ويقدم شهادة حية على ما يحدث اليوم في أرجاء واسعة من المنطقة العربية فيما يبدو كأنه صحوة كبرى تولد اليوم صراعا صحيا بين أتباع الماضي وأنصار المستقبل، وهو التعريف العملي لفكرة الثورة في التاريخ. وكذلك؛ هو دليل مهم على بدء العرب، ربما للمرة الأولى في استخدام التقنيات الحديثة بشكلٍ ايجابي وفعال، بدلا من الاكتفاء بالاستهلاك السلبي الذي ميز السلوك العربي في مجمله لعدة عقود، وهو تطور له دلالة مهمة في كونه يشكل تحولا في فكر وذهنية الشخصية العربية لصالح النهضة والدخول إلى عالم الحرية والتعبير الحر عن الرأي، بما يعنيه ذلك من تحيز لقيم الحداثة والدخول إلى عصر جديد أكثر رقياً وبحثاً عن العدالة والجمال الأخلاقي والمجتمعي معاً.

الهوامش

1 . المبدأ الذي يدعو إلى المشاركة يتعارض تماما مع سياسة فرض الرقابة على التفكير والتدخل في حق التعبير وحرية تبادل المعلومات، كما أنه يرفض التحكم في إدارة العلاقات داخل المجتمع والتي من شأنها إبعاد الناس عن فهم الواقع وحقيقة الأوضاع التي تمس حياتهم . وكلما اتسع نطاق المشاركة زادت فرصة الاختيار السليم المؤثر في صنع المستقبل، بما يتلاءم مع رغبات المجتمعات وتطلعاتها . للمزيد، انظر: احمد أبو زيد، عصر المشاركة، مجلة العربي، عدد 613، ديسمبر 2009، ص 30 ـ 34.

2 . ربما كانت حركة الطلاب عام 1968 خير تعبير ـ داخل دائرة محدودة ـ عن هذا التمرد ورفض الحكم والمطالبة بالمشاركة والتطلع إلى المستقبل. وليس من شك في أن المجتمع الإنساني يتعرض الآن لكثيرٍ من الصدمات التي تهز كيان العلاقات والقيم والنظم التقليدية المتوارثة، ولكنها هزات تعتبر مقدمات للتخلص من الركود والجمود تمهيدا لتحقيق التقدم ونشأة مجتمع مختلف يقوم على المشاركة وليس على التسلط. هذا كله يرجع بدرجةٍ كبيرة إلى التدفق المعلوماتي، وسقوط الحواجز بين الأفكار والآراء ووجهات النظر المتباينة إلى جانب تأثير العولمة بالرغم من كل ما يُؤخذ عليها من سلبيات . فالتدفق المعلوماتي والانفتاح على الآخرين وتطور ما يُعرف الآن باسم " المصادر المفتوحة " Open Sources " تساعد كلها على توطيد أقدام عصر المشاركة وما سوف يترتب عليه من قيام عالم جديد قد يبدو طوباويا صعب المنال ، ولكن المشاركة هي الوسيلة الوحيدة لتبادل الاحترام والاعتراف بالآخر وإزالة المخاوف والتغلب على الصراعات وهو ما يصبو إليه الكثيرون. المصدر السابق، ص32.

3 . فاضل البدراني، الأخلاقيات والإعلام، مصدر سابق، ص64.

4 . المصدر نفسه، ص65.

5 . منى أباظة، حركات احتجاج غير مسيسة: انعطاف جديد في الثقافة العامة في مصر، دراسة في كتاب : حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2010، ص 181.

6 . إن إضافة الرسائل السياسة إلى الصور المعبرة أصبحت متاحة لجمهورٍ أوسع . فإذا دخلنا صفحة الفيسبوك الخاصة بحركة السادس من إبريل سوف نفاجأ بالقوة التي تحملها الصور والشعارات الداعية إلى الإضراب، والملصقات والرسوم الساخرة والمعادية للحكومة . هذا ما يذكرنا بطريقة ما، بالحركة الشبابية الأوروبية عام 1968 التي أنتجت عددا كبيرا من الرسوم الساخرة المعادية للمؤسسات والشرطة والسلطة، التي انتهى بها الأمر بعد بضعة عقود إلى أن تُباع إلى السياح في باريس . كما تكشف الصور والشعارات والرسوم المذكورة استخدام الحمال الفني المفعم بالحيوية لكشف الظلم والتعبير عن الاحتجاج، فالكتابات والملصقات في الحالة العربية عموما جميعا تحث على التمرد وعلى الاحتجاج ضد الوضع الحالي. انظر ، منة أباظة، مصدر سابق، ص183.

7 .على مدى عقود من الزمن وصف فيها المحللون شباب الأمة العربية بكل ما في قاموس اللامسئولية من مفردات، حيث جعلوه مسئولا عما في جسد الحاضر من علل، ومُتهما بما في وجه المستقبل من فشل ، ثم جاءت أيام الشباب التونسي والمصري لتدحض كل ما التصق بالجيل العربي الجديد، فلم تكن أيام هذه الثورات مجرد تغيير للسلطة الحاكمة في مصر وتونس، بل أصبحت في قراءتها الشاملة " ثورة عصر" ، علينا جميعا أن نتمعن فيها ونتأمل فلسفتها وأدواتها وتأثيراتها على العالم . للمزيد، انظر: سليمان العسكري، صورة عصر، مجلة العربي، العدد 629، ابريل 2011، ص8 ـ 13.

8 . عبد الغني سلامه، النظام العربي الجديد بعد ثورتي تونس ومصر، مجلة تسامح، عدد 32، السنة التاسعة، نيسان 2011، رام الله، ص26.

9 . حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام الفلسطينية، 2009/11/24 .

10 . بعد أسابيع قليلة من بدء الثورات الشعبية التي اندلعت شرارتها في تونس وانتقلت منها إلى مصر ثم اليمن وليبيا وسوريا وغيرها من دول المنطقة العربية ، أعلن المسئولون عن الموقع الاجتماعي الأكثر شهرة في العالم اليوم " الفيسبوك" عن ارتفاع قيمة الموقع إلى 65 مليار دولار، محققاً رقماً قياسياً في القيمة. انظر: إبراهيم فرغلي، الفيسبوك العربي .. من الثورة إلى الرقابة الشعبية، مجلة العربي، عدد 630، مايو 2011، ص 142 ـ 147.

11 . المصدر نفسه، ص 143.

12 . المصدر ذاته، ص145

13 . المصدر السابق، ص147.

المبحث التاسع

الفيسبوك في فلسطين

ينظر الكثيرون من الجمهور العربي والفلسطيني على وجه الخصوص إلى وسائل الإعلام التقليدية على أنها وسائل لا تُلبي حاجاته، خصوصا بعد أن لاحظ على صفحات الصحف وشاشات التلفزة وموجات الإذاعة، وبشكلٍ متكرر، أن رواية الأخبار قد تُشوه وتُحرف إما لتحاشي إفساد العلاقات مع المعلنين، أو لحماية مصالح وديمومة هذه الوسائل التقليدية، سيما بعد أن غدا جزءاً منها من سلسلة المصالح الاقتصادية التي تتجاوز أهداف الوسائل ذاتها[1].

وفي ظل بروز وانتشار شبكات التواصل الاجتماعي على الانترنت بالتزامن مع " فتور" أو تراجع علاقة هذه الوسائل مع القارئ أو المشاهد أو المستمع العربي، أصبحت العيون والعقول ترتحل نحو " الفيسبوك " و" تويتر" و " يوتيوب " وغيرها من تقنيات الإعلام الحديث التي كسرت أحادية الاتجاه لتخلق تبادلاً في الإرسال والاستقبال، مانحة التعبير عما يجول في عالم المواطن العربي الذي حُرم لزمنٍ طويل من أكسجين الحرية، ليجدها في عالم افتراضي، محاولاً بعد ذلك حقنها بأرض الميدان لينجح في تثبيتها بمصر وتونس، وجاهداً في استزراعها في اليمن وليبيا وسوريا، دون أن ينسى أو يتناسى تمريرها لبلادٍ أخرى، أهمها فلسطين التي لا تزال ترزح تحت احتلال يطارد صوت الحقيقية بالدم والنار والإقصاء[2].

لقد أسهم التطور التقني الجديد في تغيير ملامح الحياة بشكلٍ ملموس في كثير من المجتمعات البشرية، ومنها المجتمع الفلسطيني، وباتت مواقع التواصل الاجتماعي تستقطب أعدادا متزايدة من المتصفحين، لا سيما موقع " فيسبوك " ، بهدف التواصل والتعبير عن أنفسهم وأرائهم ومشاعرهم بشكلٍ صريح في كثير من الأحيان، وبلغ من انتشاره وفاعليته أن ظهر عنه كتاب أصبح المادة الأولية لفيلم سينمائي عرض في أميركا أواخر 2010[3].

في إطار هذه الخلفية لا بد من طرح أسئلة ستساهم الإجابة عنها في معرفة ما إذا كان الفيسبوك يشكل أداة ناجعة لحرية الرأي والتعبير في الحالة الفلسطينية ؟ وما هو مضمون المحتوى المنشور على مواقع الفيسبوك الفلسطينية، سواء أكانت فردية أو مجموعات؟ ، والى أي مدى استطاعت هذه المواقع تحويل التواصل الافتراضي إلى فعل مادي على الأرض صانعاً " فتيلة " التأثير ومشعلاً شرارة التغيير؟.

أولاً: الظاهرة والمعطيات

يرجع عدد من الباحثين ظاهرة انتشار الشبكات الاجتماعية، خاصة " الفيسبوك " في الوطن العربي إلى

سببين[4]:

السبب الأول: اجتماعي ويتمثل في أزمة اختلال القيم في المجتمعات العربية، وخصوصاً في تقلبها بين التقليد والحداثة من ناحية، ومن ناحية أخرى في التحول من "اقتصادات اشتراكية" إلى اقتصادات رأسمالية وما صاحب ذلك من حراك اجتماعي صاعد وهابط لعديد من الطبقات الاجتماعية، أو التحول من اقتصادات بدائية إلى اقتصادات نفطية ، وما أدى إليه ذلك من انقلابات في مجال القيم الاجتماعية، ومن تغير هائل في مواضع الطبقات الاجتماعية. كل هذه الظواهر التي أدت إلى موجات قلق شديد لدى أجيال الشباب العربي هي السبب الأول وراء شيوع ظاهرة المدونات والفيسبوك وغيرها للتعبير عن الذات.

أما السبب الثاني فيتمثل في أزمة المشاركة السياسية في المجتمعات العربية كافة، مع تفاوت طبعا بين مجتمعات شمولية وسلطوية وأخرى شبه ليبرالية. فأزمة غياب التعددية السياسية وشيوع مناخ القهر والتضييق على الحريات العامة وسد السبل أمام النشاط السياسي الحر أدت كلها إلى بروز هذه المواقع الالكترونية الافتراضية باعتبارها منبراً للمعارضة والمهشمين؛ يمارسون فيها حريتهم الكاملة في نقد سياسات الأنظمة العربية.

ولم تكن فلسطين بعيدة عن رياح هذه الظاهرة التقنية الحديثة المتمثلة بمواقع الشبكات الاجتماعية، حيث كانت فلسطين السباقة في انتشار شبكة الانترنت بين أقطار العالم العربي. وقبل التطرق إلى أهم هذه المواقع الافتراضية، مع التركيز على " الفيسبوك " سنتطرق إلى بعض الإحصاءات والنسب المتعلقة بها، مع الإشارة هنا إلى الصعوبة في تحديد عدد الصفحات أو المشاركين كأفراد أو مجموعات على الفيسبوك وغيرها من المواقع في فلسطين[5].

ولقلة المعطيات الرسمية أو المسحية حولها نورد في هذا الإطار نتائج بعض النسب والإحصاءات التي تضمنها استطلاع أجرته (الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا " [6]) على عينة مقدارها 301 شاب وشابة من عمر 13 وحتى 30 سنة ، من الضفة والقطاع ، وتبين فيها أن ما نسبته 89% من العينة يستخدمون " الفيسبوك " بشكلٍ فاعل، حيث يبلغ متوسط الأصدقاء 188 صديقا ، بينما لم تزد نسبة مستخدمي الـ " توتير " عن ألـ 5% وأن عدد المشتركين الفاعلين هم 4 فقط ، أي بنسبة 1% فقط[7]. أما بالنسبة لموقع " ماي سبيس" ، فقد بلغت نسبة مستخدميه من مجموع العينة 12% بواقع 35 مستخدماً، نصفهم فاعلون على الموقع. أما بخصوص المدونات فقد أشار 8% من المستطلعة آراؤهم إلى أنهم يملكون بالفعل مدونات، وأنهم يدرجون ما معدله موضوعين في الأسبوع الواحد، وهي نسبة قليلة جدا إذا ما قيست بالبداية المبكرة لظهور المدونات.

ويفيد الاستطلاع أن الشباب الفلسطيني يستخدم مواقع التواصل الاجتماعي للترفيه أولاً، ثم مواقع الأغاني والألعاب والتسلية، ثم لأغراض عملية وبحثية، مثل مواقع البحث والبريد الالكتروني والوظائف، ولقراءة الأخبار ثالثاً، وأن نسبة من يعتبر الانترنت المصدر الأول للمعلومة هي 81%. كما ويشير الاستطلاع إلى أن معظم

الشباب الفلسطيني يستخدمون الفيسبوك مع جهلهم بمواقع الحيز الافتراضي الأخرى كالتوتير والماي سبيس، مع ضعف واضح في التواصل مع المدونات.

كذلك؛ هنالك استطلاع آخر أجراه مركز شؤون المرأة على عينة في غزة تبين أن 84% من المبحوثين/ات لديهم حساب في إحدى شبكات التواصل الاجتماعي حيث بلغت نسبة الذكور 52% أما نسبة الإناث فكانت48% إناث. وقد احتل موقع الفيسبوك المرتبة الأولى في الاستخدام فكانت نسبة 81.2% من المبحوثين مشتركة في الموقع كما أوضح 17.4% أن لديهم حساب على اليوتيوب . كذلك صرح 7.9% من عينة الاستطلاع وجود حساب لديهم على موقع تويتر.

كما وتحد الأسرة بنسبة 39% من استخدام الفتاة للانترنت، وتحد الأسرة بنسبة 11% من استخدام الشاب للانترنت.**كما وبين الاستطلاع** أن 40 % من الشباب/ات المستطلعة آراؤهم يستخدمون أسماء مستعارة خلال المشاركة والتفاعل في شبكة التواصل الاجتماعي وكانت الفروق أعلى لصالح الإناث حيث جاءت نسبة الإناث اللواتي يستخدمن أسماء مستعارة 58 %، بينما الذكور 41 %، ويستخدم نسبة 14 % من المشاركين في الاستطلاع الانترنت بطريقة سرية حيث تفوقت نسبة الذكور على الإناث كالتالي: 55%ذكور، 45%إناث.

أما بالنسبة للنساء و شبكة التواصل الاجتماعي فكانت نسبة المؤيدين لاستخدام النساء للانترنت72% من الشباب/ات المستطلعة آراؤهم، (42 % ذكور، 58 % إناث).وبالسؤال عن وجهة نظر الشباب/ات حول درجة استثمار النساء لشبكة التواصل الاجتماعي للتعبير عن معاناتهن وافق 60% من الشباب/ات على أن المرأة العربية تستفيد و توظف الشبكة للتعبير عن معاناتها.

أما بالنسبة للمرأة الفلسطينية فقد انخفضت نسبة التأييد 34% معبرة عن ضعف استثمار المرأة الفلسطينية للشبكة مقارنة بالمرأة العربية.واتخذ ما نسبته 56% من الشباب/ات الموقف المؤيد لدور شبكة التواصل الاجتماعي في طرح قضايا المرأة العربية و الكشف عن معاناتها في حين كانت نسبة الآراء الموافقة اقل 35% اتجاه أهمية الدور الذي تلعبه الشبكة في طرح قضايا تخص المرأة الفلسطينية.

واتجهت نسبة مشابهة من الشباب/ات 53% نحو الموافقة على أن شبكة التواصل الاجتماعي تساعد في رفع مستوى وعي المرأة تجاه قضاياها و المطالبة بحقوقها (44% ذكور، 56% إناث).من جهة أخرى عبرت نسبة محدودة 21 %من الشباب/ات عن الرضا حول محتوى شبكة التواصل الاجتماعي في تلبية اهتمامات و احتياجات المرأة الفلسطينية.

يشار إلى أن الدراسة الاستكشافية شملت ما يقارب 180 مشارك من مختلف فئات المجتمع ومؤسساته، وتراوحت الأعمار ما بين 18و 35 سنة.

إلى ذلك؛ وفي سردٍ موجز سنتطرق إلى المدونات الفلسطينية ومن ثم إلى " اليوتيوب" ، لننتقل بعد ذلك للحديث عن الفيسبوك، لنتعرف من خلال الأدبيات والمقابلات الحية مع عدد من الصحافيين والناشطين

الالكترونيين على مدى ما قدمه هذا الموقع الاجتماعي من مساحة أو حيز في حرية الرأي والتعبير في المشهد الفلسطيني. ونختم هذا المبحث بالتطرق إلى الحراك الشبابي الفلسطيني ودور الفيسبوك في تحريكه والتأثير في مساره.

يوجد في الفضاء الافتراضي عدد كبير من المدونات الفلسطينية التي كان لها الفضل في طرح القضايا المتعلقة بظروف الحياة في فلسطين بشكل غير تقليدي، ومنحت النضال التحرري للفلسطينيين طابعاً إنسانيا، فعلى سبيل المثال لعبت هذه المدونات دوراً لافتاً في محاولة كشف أثر الحصار وواقعه على قطاع غزة ، فتعامل المدونون مع هذه المدونات كأداة إعلامية فعالة من أجل طرح قضيتهم، ونقل معاناتهم للعالم للمطالبة برفع الحصار المفروض على القطاع، وفضح الانتهاكات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين وحشد الدعم المعنوي لهم.

وفي موازاة المدونات التي كانت تكشف وتظهر ممارسات إسرائيل وانتهاكاتها بحق الفلسطينيين، برزت مدونات لمدونين ينتمون لحركتي حماس وفتح تم توظيفها لكيل الاتهامات وزيادة الاحتقان بين الطرفين، في حين ظهر نوع آخر من المدونات لصحافيين ومثقفين وشباب غير محسوبين على طرفي الاقتتال، قاموا بانتقاد الطرفين وحذروا من استمرار الانقسام وتداعياته على القضية الفلسطينية .

أما بخصوص اليوتيوب فقد انطلقت هذه التقنية في فلسطين مؤخرا بهدف الاستفادة من الإقبال المتزايد على مشاهدة مواد الفيديو عبر الانترنت . وعلى الرغم من أن عدد المواد المحملة عليه قليل، إلا أن عدد زوارها متزايد وبعضهم يقوم بتحميلها وإعادة نشرها على مواقع أخرى، وتحظى المواد المصورة لاعتداءات جيش الاحتلال الإسرائيلي بأكثرية الزيارات[8] . ولكن اللافت أن هذا الموقع يورط نفسه باستخدام لغة التخوين بكثرة، فنجد أن عدد المواد التي تتحدث عن جرائم الاحتلال يقل عن عدد تلك التي تتحدث عما يصفه الموقع بخيانة الرئيس عباس، ولو بحثت داخل الموقع عن اسم الرئيس عباس ستجد على الأقل 10 مواد على الأقل تحمل عنوان (الخائن عباس) ، فضلا عن أن الموقع أعاد أخطاء تلفزيون الأقصى، ونشر مواد فيديو تستخدم الرسوم المتحركة المحببة لدى الأطفال في التحريض بشكل سافر ضد حركة " فتح " وبعض قياداتها[9]. وفي المقابل فإن المواقع الالكترونية التابعة لفتح ومنها موقع اليوتيوب تسير في اتجاه سلبي تجاه المصالحة، وتشكل جزءاً من الإعلام ألتصعيدي الذي يغذي الانقسام، وهذه المواقع أكثر عددا وانتشارا من تلك المواقع الايجابية[10] .

ثانياً: الصراع في العالم الافتراضي

نود التطرق بدايةً إلى الفيسبوك وما لهذا الموقع من دور في الحرب الافتراضية التي تندلع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، على صفحات الموقع الإلكتروني، وقد بدأت في عام 2007، عندما أقدم الموقع على إسقاط اسم فلسطين من قائمة البلدان التي يختارها المشاركون في الموقع عند تسجيل مشاركتهم (بعدما كان الاسم موجودًا أساسا)، وحُرم بالتالي آلاف الفلسطينيين من أعضاء الشبكة من تحديد فلسطين موقعًا لهم ضمن معلوماتهم التعريفية، وفجر ذلك جدلاً على مستوى عالمي في ساحة افتراضية، يوازي الجدل الدائر فوق الأرض.

وقد أطلق هذا الإجراء، الذي أثار غضب الفلسطينيين وأنصارهم، شرارة الجدل حول فلسطين نفسها، حيث تبادلوا حربهم الكلامية طيلة عام تقريبا في ظل وجود زوار لا يعتقدون أن فلسطين بلد، أو أنها يجب أن تكون كذلك، فيما يراها آخرون تهديدًا لوجود إسرائيل، فيما البعض ينشط ويستنكر ويندد بالسياسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وقد اجمع آلاف الأعضاء في الشبكة الفلسطينية، على أن رفع اسم فلسطين من القائمة هو انتهاك لسياسة " الفيسبوك" نفسها التي تمنع وجود أي موقع يحتوي على قذف أو افتراء، أو خرق أو انتهاك، أو بذاءة أو تحريض، أو عنصرية أو تمييز عرقي. وهذا ما دفعهم للانخراط بقوة في معركة استرداد "موقعهم الجغرافي"، بإعادة إدراج اسم فلسطين على القائمة، وأطلقوا حملة احتجاج، عبرت عنها عريضة تطالب المشاركين والمعارضين لموقف " الفيسبوك" التوقيع عليها. وأثمرت الحملة إعادة اسم فلسطين إلى القائمة[11] .

كما شهد " الفيسبوك " انطلاق عشرات المجموعات الخاصة، ضمت عشرات الآلاف من الأعضاء، وخلقت نقاشًا وجدلا كبيريْن، من ضمنها على سبيل المثال: "جمهورية فلسطين الإلكترونية ، ومجموعة " مليون توقيع لنعلن أن إسرائيل دولة إرهاب"، و" مجموعة مقاطعة إسرائيل وبضائعها"، ومجموعة " كسر حصار غزة الظالم"، ومجموعة "دعوة للحوار الفلسطيني الفلسطيني" و" يلا ننهي الاحتلال"، و" كفى للانقسام" وغيرها كثير.

أدرك الإسرائيليون مخاطر استخدام جنودهم " للفيسبوك"، وهو ما دفع بوزارة الدفاع الإسرائيلية لأن تضع لائحة جديدة من القوانين، تهدف إلى منع الجنود والموظفين في الوزارة من نشر معلومات وصور مصنفة سريًا على مواقع التعارف حيث حددت الوزارة أن تهديدًا أمنيًا جديدًا تواجهه إسرائيل، بعد ظهور صور لطيارين إسرائيليين، بزيهم العسكري وفي منشأتهم العسكرية، حيث تم التحقيق مع مائة جندي بخصوص عمليات التصوير غير المسموحة للمواقع العسكرية ونشرها على الإنترنت، لاعتقادهم أن الناشطين في فلسطين ولبنان يراقبون هذه المواقع للحصول منها على معلومات تخص وزارة الدفاع الإسرائيلية. وتسمح القوانين الجديدة للجنود بالانضمام إلى مواقع التعارف، ما داموا لا يعرّفون بأنفسهم بصفتهم جنودًا في الجيش، وما داموا لا يكشفون عن أي معلومات حول وظائفهم. ولكن هذا لم يمنع وزارة الدفاع الإسرائيلية من مواصلة مراقبة شبكات التعارف على الإنترنت، للتأكد من عدم خرق القوانين [12] .

كذلك؛ فإن إسرائيل أنشأت وحدة للحرب على الفيسبوك والإعلام الجديد خلال حملتها على غزة 2008-2009. " واذكر إنني كنت في الولايات المتحدة في تلك الفترة وإننا حاولنا أن نواجه النشاط الإسرائيلي المدعوم ماليا وبشريا وتقنيا من الحكومة ولكنهم كانوا يسبقوننا بخطوة دائما، فلما كنا نغير الجملة الأساسية STATUS إلى (متضامنون مع غزة) مثلا، طور الإسرائيليون تطبيقا على الفيسبوك اسمه Qassam Counter يقوم بمخاطبة آلاف المستخدمين الكترونيا وبشكلٍ عاجل كلما سقط صاروخ " قسام" في النقب، وطلبوا من المتضامنين معهم أن يحملوا هذا التطبيق على صفحاتهم وبالتالي وصولوا إلى ملايين البشر عبر

الشبكات الفردية لمحملي التطبيق. وهذا مثال واضح على استخدام الفيسبوك في الدعاية، واذكر أيضا أن القنصل الإسرائيلي في نيويورك كان يعقد مؤتمرات صحفية عبر تويتر أثناء الحرب...وهذا مثال آخر" [13].

ثالثاً: المقابلات الشخصية

إذا كان المجتمع الفلسطيني، أسوة بالشعوب العربية قد ألف الهمس والنميمة في المجالس المغلقة فإن مجتمعات الانترنت المتخيلة أخذته لتحلق به في عالمها الافتراضي ليقول ما يريد دون أن يفعل ما يريد. هذه الفرضية يرفضها البعض انطلاقاً مما يحدث في وطننا العربي من ثوراتٍ كان لشبكات الانترنت الاجتماعية دورٌ محركٌ في إشعالها وتنظيمها وانجاز قسطٍ من أهدافها.

وبين دعاة الفرضية الأولى ومعتنقي الثانية تتقاطع الحقيقة القائلة بأن هذا التطور التقني الجديد أسهم في تغيير ملامح الحياة بشكلٍ ملموس في كثير من المجتمعات البشرية. ورغم تعدد هذه الشبكات مثل المدونات والمنتديات وماي سبيس وتوتير ويوتيوب إلا أن موقع "الفيسبوك" أصبح يستقطب أعداداً هائلة من المستخدمين بهدف التواصل والتعبير عن أنفسهم وآرائهم ومشاعرهم بشكلٍ صريح في كثيرٍ من الأحيان، وبلغ من انتشاره وفاعليته أن ظهر عنه كتاب أصبح المادة الأولية لفيلم سينمائي عُرض في أميركا في أواخر 2010.

وفق هذا الإطار العام لا بد من طرح جملة أسئلة خاصة، ستساهم الإجابة عليها في تقوية شعاع صورة السؤال المحوري وهو: هل يشكل "الفيسبوك " أداة ناجعة لحرية الرأي والتعبير في الحالة الفلسطينية؟ والى جانب هذا السؤال الرئيس نضع سؤالين فرعيين؛ أولهما: ما هو مضمون المحتوى المنشور على مواقع الفيسبوك الفلسطينية، سواء كانت فردية أو مجموعات تشاركية؟. وثانيهما: إلى أي مدى استطاعت هذه المواقع من تحويل التواصل الافتراضي إلى فعلٍ مادي على الأرض صانعاً " فتيلة " التأثير ومشعلاً لشرارة التغيير؟.

يقول أستاذ الإعلام في جامعة بيرزيت (د. **وليد الشرفا** [14]) أن "الفيسبوك " يمكن وصفه بـ" السهل الممتنع" ، فهو قادر على تحفيز مستخدميه عبر العالم الافتراضي وتشكيل مجموعات متخيلة، تتخذ قرارات ومواقف من شأنها تشكيل رأي عام ضاغط نحو المشاركة في صنع القرار، مضيفاً:" أن هذه الشبكة الاتصالية الجديدة لها القدرة على مواجهة الحالات البائسة والساكنة في عدد من المجتمعات، وإثارة الأسئلة المتخمة بعناقيد التحديات ومواجهتها. هذه الوظيفة العامة للفيسبوك وفق رأي الشرفا لها خصوصيتها في الحالة الفلسطينية، لأنها حالة مرتبكة، والأحزاب السياسية فيها قوية، وتتمسك بكثير من خيوط المجتمع والسياسة، وبالتالي فإن تأثير الفيسبوك يبقى ضعيفاً في العالم الواقعي وإن شهد حراكاً وتوسعاً في العالم الافتراضي. دليل الشرفا على ذلك يتمثل في هشاشة الحشد الذي نظمه شباب الخامس عشر من آذار في كل من القطاع وغزة، فضلاً عن هيمنة الأمني والحزبي على مفرداته التي لم تستطع إنتاج مقومات لمسيرة مرجوة، أو نتائج مطلوبة.

أما (**عبد الرحيم عبد الله** [15]) أستاذ صحافة الانترنت في جامعة بيرزيت فيرى أن حرية الرأي والتعبير لا تتعلق بحرية الجعجعة. هي ليست حرية الصياح الذي يضيع في الهواء. هي أساسا أداة توازن سياسي تضمن

أن يشترك الجميع في حكم المجال العام وأن يساهموا في الحياة العامة. والإعلام الليبرالي الغربي وبالأخص في الولايات المتحدة، وتقلده في ذلك الجزيرة وبعض وسائل الإعلام العربية، يتميز بالإثارة sensationalism والغرائزية. وذلك لا يؤسس لحوار مدني ولا لمجال عام فاعل، وعلى العكس فالإعلام الجديد يتيح بقوة للحوار أن يزدهر. وبخصوص فلسطين يذكر عبد الله أنه لم يؤسس الإعلام الجديد، وتحديدا أكثر وسائل الإعلام الجديد انتشارا في بلادنا وهو الفيسبوك، لحوارٍ مدني حقيقي بعد، بل ما زال يدور في فلك الإعلام التقليدي ولا يؤسس لنص أصيل- إلا ما ندر. وهذا طبيعي جدا، واستطيع أن أفسر ذلك (والكلام لعبد الله) بأن هناك نوعين من المستخدمين للفيسبوك هما: مفكرين thinkers ومرشحين linkers ومن الطبيعي أن يسود النوع الثاني من الاستخدام linking في البدايات. والمشكلة في هذا النمط هو الاجترار حيث يعيد الإعلام الجديد اجترار ما يقدمه الإعلام التقليدي.

ويضيف :" المجال الأوسع للإعلام الجديد في تنمية حرية الرأي والتعبير يتعلق بالنمط الأول من الاستخدام وهو الإنتاج الأصيل للإعلام الجديد... ويمكن ملاحظة إبداعات عربية (مجموعة 6 ابريل المصرية مثلا) فلسطينية (نمط thinkers من مستخدمي الفيسبوك الفلسطينيين هما صالح دوابشة وسائد كرزون من رام الله). ألحظ بدايات شابة والبشائر تتسارع.. ولكن ألحظ أيضا أن الصحفيين هم أسوأ من يستخدم الفيسبوك في فلسطين حيث يحولونه لجلسة استعراض للذات المهنية... ولا يحاولون إلا ما ندر تقديم نص فيسبوكي يفهم الإعلام الجديد وما يقتضيه" .

ويخلص عبد الله للقول:" نجح الفلسطينيون إلى حد ما في الاستفادة من خواص النشر على الفيسبوك (كمنصة نشر بديلة) ولكنهم لم ينجحوا في تطويعه لأن يكون مجالا عاما ومحفزا للنقاش المدني... وهذان الأمران ضروريان كما أرى لتوسيع آفاق حرية الرأي والتعبير ولا استغناء لأحدهما عن الآخر".

بدوره يرى الخبير في أبحاث المعلوماتية (د. **خالد ربايعة**[16]) أن التقنيات الجديدة للانترنت، وأهمها "الفيسبوك" خلقت فضاءً رحباً مكن الشباب العربي والفلسطيني من إيصال رسائلهم إلى الجماهير والتفاعل معهم بطريقةٍ تفاعلية فورية، منوهاً إلى أن هذه التقنيات أصبحت تمثل عائقاً ورقيباً للحكومات التسلطية، عائقاً أمام استبدادها، ورقيباً على تحركاتها وقراراتها. وفي مقابل كل ذلك الاستحسان للانترنت ووسائطه، يؤكد ربايعة "أنه يجب أن نكون واقعيين في أن الانترنت ليس الحل أو الأداة السحرية التي كانت الشعوب بانتظارها للخروج على الظلم والخلاص من القهر والفقر والولوج إلى عالم الحرية والانعتاق، فالمهم في تحريك الجماهير في الثورات (كما يقول) هو الفعل الجماهيري الحقيقي الفاعل في الميدان وليس الكتابة على جدران الفيسبوك، وإن كان ذلك مهماً".

كذلك؛ يعتقد) د. **فريد أبو ضهير**[17]) أن هناك إجماعا لدى الدارسين والمراقبين على أن الإنترنت بشكلٍ عام، والفيسبوك بشكلٍ خاص، فتح آفاقا واسعة أمام الجمهور للتعبير عن آرائهم، وجسد حقيقة فكرة حرية التعبير. وبالطبع، فإن هذه التقنية أصبحت ساحة مفتوحة بشكلٍ خاص للشباب الذين يستخدمون الإنترنت

بشكل أكبر بكثير من كبار السن . بل إنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم، لدرجة أن أعدادا منهم باتت مدمنة على هذه التقنية، وبخاصة بعد أن فتح المجال أمامهم لاستخدام الهواتف النقالة في متابعة الانترنت، ومتابعة الفيسبوك خاصة.

فالحوارات التي تجري على الفيسبوك، والتي يعتبرها بعض الناس لا جدوى لها، قادت (وفق أبو ضهير) إلى ثورات، وأدت إلى تعميق الفهم للواقع الذي يعيشه المواطن. وأخذ الشباب يتحدثون من خلال الفيسبوك عن مشاكلهم، ويطرحون أفكارهم بصراحة وجرأة. وأخذوا يفتحون صفحات خاصة بالقضايا المشتركة، مثل قضايا الأسرى واللاجئين وغيرها. ويرى د. أبو ضهير أن تقدير الساسة لخطورة الفيسبوك هو تقدير خاطئ. وقد " قلت منذ سنوات بأن أي تطور في الاتصال يتبعه عادة تطور اجتماعي وسياسي". وهذه حقيقة تاريخية. ولذلك، فإن القفزة الهائلة التي أحدثتها الوسائل الحديثة، وبخاصة الفيسبوك والـ تويتر وغيرها، سيكون لها ما بعدها. وها نحن نشهد ثورات عربية كان لهذه التقنيات أثرٌ كبير في اندلاعها.

من جانبه يرى (د. **عبد الناصر النجار**[18]) أن الفيسبوك يساهم في حرية الرأي والتعبير في الوقت الذي يحمل فيه من السلبيات والمخاطر الواجب على المستخدمين، خصوصاً شريحة الناشئة والشباب الانتباه لها، مثل الإدمان على الاستخدام، والصور السيئة والألفاظ البذيئة وغيرها. وينوه د. النجار إلى أن الفيسبوك لم يكن أداة تقنية ناجحة في تحريك الشباب الفلسطيني لتحقيق مطالبهم أو الأهداف التي يودون تجسيدها على ارض الواقع.

أما الباحثة والإعلامية (**بثينة حمدان**[19]) فترى أن " الفيسبوك " أداة إعلامية واتصالية غاية في الأهمية، وإن لازمتها بعض السلبيات والمحاذير، لكون أي تقنية تحمل وجهين في وظيفتها سلبي وآخر ايجابي. وتبين أن النساء والشابات الفلسطينيات لم ينجحن بعد في توظيف "الفيسبوك " للتعريف بواقعهن والدفاع عن حقوقهن، منوهة إلى عجز تلك النساء في تشكيل مجموعات منظمة على الفيسبوك، فضلاً عن أن مضمون المواد المنشورة في هذا الحيز الافتراضي ليس بالمستوى المطلوب خاصة فيما يتعلق بحقوقهن المرتبطة بالمجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية.

مقابل ذلك؛ يذهب الباحث والصحافي(**صالح مشارقة** [20]) للتأكيد على أنه رغم أهمية الإعلام الجديد ووسائطه المختلفة إلا أن المغالاة في استقبال هذه التقنيات على أنها المخلصة من خنق الحريات ومطاردة حرية الرأي والتعبير اعتقاد يجانبه المنطق، منوهاً إلى أن المهم هو تلازم القول في العالم الافتراضي بالعمل على ارض الواقع.وفي السياق ذاته يرى الصحافي (**منتصر حمدان**[21]) أن "الفيسبوك " يعلب دوراً مهما في تعزيز حرية الرأي والتعبير في فلسطين رغم وجود إشكالات لها علاقة بالمهنية والموضوعية خاصة فيما يتعلق بسرد المعلومات غير الدقيقة، مشيرا إلى أن الفيسبوك يعطي المجال لعرض المعلومات بطريقة عشوائية تفتقر إلى التدقيق، الأمر الذي يضع علامات استفهام حقيقية حول هذا الدور.

وفي الإطار ذاته يرى الناشط الشبابي (**عدنان الشعراوي**[22]) أن " الفيسبوك " يشكل متنفساً الكترونياً

للجمهور الفلسطيني، وأن له العديد من الايجابيات ، تتمثل في مواجهة القيود الاجتماعية كالتقاليد والعادات الغريبة عن الدين والعقل، والانفكاك عن هيمنة الاحتلال وممارساته عبر الاتصال مع العالم الخارجي، سواء الأهل والأصدقاء أو المناصرين للفلسطينيين وقضيتهم، خاصة مع شباب الثورات العربية، علاوة على تسويق المستخدم لشخصه من خلال كتاباته، ومن ثم تقييم كينونته الذاتية من خلال الردود والتعليقات والمشاركة في المجموعات الافتراضية المختلفة.

هذا بشأن المستخدمين من الجمهور، أما بخصوص الجانب الرسمي فيبين الصحفي(**يوسف الشايب**[23]) أن السياسيين الفلسطينيين، خاصة قيادات من حركة فتح ومن أعضاء الحكومة وعلى رأسهم رئيس الوزراء د. سلام فياض يولون " الفيسبوك" أهمية ملحوظة، ففياض لديه صفحة تضم أكثر من 25 ألف مشترك، منوهاً إلى أن الساسة يعملون على توظيف هذه التقنية كأداة إعلام وعلاقات عامة، ووسيلة لاستشفاف واستمزاج آراء الشارع و" تحسس" مطالبهم وتوجهاتهم. ويذكر أن مضمون محتوى مواقع الفيسبوك الفلسطينية تشتمل على البعد الاجتماعي من حيث التواصل، والوطني السياسي ، مثل التطرق إلى قضايا الأسرى، والقدس، واللاجئين، والاستيطان، والجدار، والشباب، والبطالة، إلى جانب التركيز على مواجهة الاحتلال وإنهاء الانقسام. والبعد الثالث (وفق الشايب) يتمثل في البعد الترفيهي، من خلال الألعاب الالكترونية والتفاعلية ، والبعد الإعلاني عبر الترويج لسلع ومنتجات أو حدث سياسي أو ثقافي، علاوة على المحتويات التي تتطرق إلى انتهاكات حقوق الإنسان وتهديد حرية الرأي والتعبير.

من جانبه يقول الشاعر (**فارس سباعنة**[24]) أن "الفيسبوك" هو مساحة الحوار التي كانت تنقص مجتمعاتنا العربية على الصعيدين السياسي والاجتماعي، والحوار هو الوسيلة الفضلى لتطوير وعي يرقى إلى مستوى الممارسة الديمقراطية التي تمكن الشعوب من رؤية الأفق السياسي ـ القانوني والدستوري لدى حكوماتهم، والتحرر من الخديعة التي عاشها آباؤنا سنينا، فلا أبالغ حين أقول إن "الفيسبوك" حرر أفكار الكثيرين من نظرية المؤامرة، وحجّم الآراء اليمينية المتطرفة، حتى إنه بدأ يتغلغل إلى لغة مستخدميه في حياتهم العادية، كما رفع من مستوى الخطاب المؤدب واللبق في التعامل مع الآخرين وانتقاء الألفاظ الجيدة عند الحديث".

وفي جزء آخر؛ يذكر(**سمير حجازي** [25]) الناطق باسم ائتلاف شباب فلسطين أن معظم الذين يعبرون عن آراءهم بصدق وجرأة على مواقع ومجموعات الفيسبوك الفلسطينية اختاروا أسماءً مستعارة تجنباً للمراقبة والمواجهة مع السلطات القائمة سواء في القطاع أو في الضفة، مبيناً في الوقت ذاته أن كثير من مجموعات الفيسبوك مخترقة ومراقبة من أجهزة الأمن وبعضها تم حجبه أو سرقته. ويوضح حجازي أن مضمون الأهداف والشعارات المتداولة على مواقع ومجموعات الفيسبوك تتركز على قضايا أربع، هي : الدعوة إلى انتخابات رئاسية وتشريعية ومحلية، المطالبة بإنهاء الاحتلال والانقسام، تنظيم الحملات وتفعيل الجهود لمناصرة وعودة اللاجئين، إلى جانب العمل على صون حقوق الإنسان وحرية الرأي والتعبير. وبين أن اخطر ما واجه التواصل الافتراضي

على مواقع الفيسبوك الفلسطينية، تعدد الشعارات مع تباين الأهداف والجهود على الأرض، إلى جانب اختراقها، وتدخل الايدولوجيا والأمن في توظيفها ، سواء في العالم الافتراضي أو العالم الواقعي.

وفي السياق ذاته يقول الناشط الالكتروني (**محمد أبو علان**[26])إن حالة الانقسام والاستقطاب ساقت نفسها على مختلف جوانب الحياة الفلسطينية ومنها بشكلٍ أساسي الجانب الإعلامي، وخلقت هذه الحالة الفلسطينية ثلاثة توجهات فيما يتعلق بالإعلام الفلسطيني، إعلام مؤيد وداعم لحركة "حماس" وحكومتها في قطاع غزة، وإعلام داعم للسلطة الوطنية الفلسطينية وحركة فتح في الضفة الغربية، ونوع ثالث من الإعلام يسمي نفسه بالمحايد، إلا أن حياديته المطلقة حولته لناقل للحدث وليس ذات تأثير في الرأي العام المحلي مما أفقده قيمته ودوره الإعلامي الحقيقي.هذه الأجواء(حسب أبو علان) ساهمت بشكل بارز في ظهور ظاهرة المدونات في المجتمع الفلسطيني، وارتفع عدد الفلسطينيين المستخدمين للشبكات الاجتماعية مثل "الفيسبوك" و " توتيتر" مع سيطرة أكثر "للفيسبوك" كونه أسهل في الاستخدام، ويتيح مساحة أوسع للنقاش والحوار وتبادل الأفكار.

وبشأن أثر الإعلام الجديد على حرية الرأي والتعبير فلسطينياً فإن أولى تأثيراته(وفق أبو علان) أنه كسر وبشكل مطلق قدرة المؤسسة الرسمية في تضيق الخناق على حرية الرأي والتعبير، وأفقد الإعلام البديل قدرة وسائل الإعلام الرسمية من أن تكون القناة والمصدر الوحيد لاستقاء المعلومة والخبر. كما وأن الأثر الأهم لوسائل الإعلام البديل الطاقة التفاعلية التي خلقتها بين المستخدمين لهذه الوسائل مما ساعدهم في التكتل والتعامل كجسم موحد وقوي في مواجهة المؤسسة الرسمية إن كان ذلك على المستوى السياسي أو المستوى الإعلامي. والى جانب كل ذلك؛ فإنه كان لوسائل الإعلام البديل دور أكثر في تعزيز حرية الرأي والتعبير، وحماية هذا الحق عبر سرعة التوثيق والنشر لأية انتهاكات لحقوق الإنسان بشكل عام، ولحرية الرأي والتعبير بشكل خاص.

أما الصحافي والباحث قي قضايا الإعلام (**وليد بطراوي**[27]) فيرى أن الإعلام التقليدي ، وبالرغم من التعددية وحرية التعبير المتفاوتة من بلد لآخر، إلا انه ما زال يخضع لرقابة في أدناها رقابة ذاتية، ويحسب ألف حساب للسلطات الحاكمة، وللنظام، وللمعلن والممول والشيخ والعائلة والقبيلة والحزب السياسي، وغيرهم من أصحاب النفوذ السياسي والتجاري والاجتماعي، وذلك لان الإعلام التقليدي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمنظومة سياسية واجتماعية وتجارية. إلا أن الإعلام الجديد، لا يرتبط بمثل هذه المصالح ولا يخضع لذلك النوع من الرقابة المباشرة وغير المباشرة. فعلى سبيل المثال، إذا أراد شخص نشر مقال أو خبر في صحفية، ورفضت هذه الصحيفة النشر لأسباب متعلقة بالرقابة فانك تجد هذه المقالة تنشر وبكل بساطة على شبكة الانترنت. فالإعلام الحديث كسر جميع مقصات الرقابة، ولهذا نراه منتشرا بشكلٍ كبير في المجتمعات غير الديمقراطية.

ويعتقد بطراوي أن تأثير الإعلام الجديد على حرية الرأي والتعبير في فلسطين ايجابي ، لأنه شجع الكثير من الصحافيين على الخروج من الصندوق المغلق، وزاد من إمكانية التعبير وحريته، وخلق مساحات أوسع لتعبير الكثير من الفئات عن رأيهم، وبالتالي دفع الإعلام إلى محاولة اللحاق ومتابعة ما يجري ولم يعد بالإمكان التعتيم على بعض القضايا التي قد يتجاهلها الإعلام التقليدي. ويذكر أن التحدي الأكبر الذي يقف أمام الإعلام الجديد

هو المهنية والالتزام بمعايير الجودة العالمية للكتابة الصحفية. فليس كل من يستخدم الإعلام الجديد هو صحافي، وبالتالي لا يخضع مادته للمعايير المهنية وأهمها الدقة.

أما الحقوقي والشاعر (**سميح محسن**[28]) فيؤكد أن وسائل الإعلام الجديد فتحت آفاقاً جديدة أمام حرية الرأي والتعبير، خاصة أن الرقابة على تلك الوسائل تكون أقل صرامة من المتبعة على التقليدية، مشيراً إلى أن الأصل في حرية الرأي والتعبير هو إشاعة الحق وفرض القيود هو الاستثناء، إلا أن انفتاح الإعلام في إطار الوسائل الجديدة قد يترك آثارا سلبية على حرية الرأي والتعبير من حيث عدم مراعاة المستخدمين للقيود التي وضعها القانون الدولي لحقوق الإنسان فيما يتعلق بخصوصيات النشر، وفيما يختص بالدعوة إلى الحروب والعنف والعنصرية واللاتسامح والإقصاء وغيرها.

وفيما يتعلق بدور الإعلام الجديد في الانقسام الداخلي الفلسطيني أوضح محسن أن هذا الإعلام ساهم بشكلٍ سلبي في تغذية الصراع الداخلي من خلال تعابير ومصطلحات تغذي الانقسام والكراهية والاحتقان بين طرفي الصراع حيث وصل التحريض أحيانا إلى الدعوة للقتل، مطالبا في الوقت ذاته بضرورة وجود رقابة ذاتية من الشخص الذي يستخدم وسائل الإعلام الجديد ، إذ لا بد من التحلي بمسؤوليات قانونية واجتماعية ومهنية ووطنية.

وفي زاوية أخرى يعتقد (**نبهان خريشة** [29]) أن " الفيسبوك " له تأثير ايجابي على حرية الرأي والتعبير في فلسطين ولكن في إطار فئة الشباب والمراهقين تحديداً، مبيناً أن " الفيسبوك " في الحالة الفلسطينية والعربية في بعضها ليس فعل بل هو تصريف للفعل، بمعنى أننا نصرف أفعال ذات مضمون غربي ، فهي أداة لدى الغرب ونريدها نحن كهدف لنا، وهذا خطأ. ويذكر أن من سلبيات الفيسبوك هو المضمون والمحتوى المكثف من التحريض والمتنوع الأشكال، والإدمان على استخدامه، والانعزال عن الواقع المجتمعي، إلى جانب اللهجات الشعبية التي يتداولها الكثير من مستخدميه والتي تضعف كثيراً من مكانة ومستقبل اللغة العربية.

وبهذا؛ فإن وسائط الإعلام الجديد، وفي مقدمتها " الفيسبوك" تتولى الآن إعادة تشكيل العقل الإنساني وطرق تفكيره وتوسيع نطاق الاتصال والتواصل والتأثر والتأثير، كما أن " الفيسبوك" أصبحت تمثل في بعض أبعادها مشروعات هادفة ودعوة للتغيير الاجتماعي والفعل العام المشترك وتوحيد الجهود، وبالتالي فهي تعمل على حدوث ثورة جديدة في العالم عن طريق استقطابها لتلك الملايين العديدة من البشر الذين لم يكن لهم سوى دور هامشي في الحياة فأصبحوا يناقشون مشكلات المجتمع والإنسان والعالم بأسره ويتبادلون في ذلك مختلف الآراء والخبرات ويؤلفون قوة فعالة من الرأي العام العالمي، قادرة على تغيير النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنفرد بصياغتها النخبة أو الصفوة . هذا المشهد العام لا يختلف في فلسطين وإن كان تأثير " الفيسبوك" واقعياً ليس بمستواه المطلوب، بينما في فضاءه الافتراضي فهو واسع، وسيتسع كلما " فرخت " القضايا، وتعقدت الأمور.

رابعاً: المرأة الفلسطينية والفيسبوك

في ظل الحديث المتواصل عن هذه الشبكات من حيث أثرها في حرية التعبير وتأثيرها في حركة التغيير في العالم العربي تبرز إلى السطح حزمة أسئلة تتعلق بمدى دور وعلاقة المرأة العربية والفلسطينية على وجه التحديد بهذه الوسائط. هذه الأسئلة تبدأ من سؤال محوري هو: ما علاقة المرأة الفلسطينية بتقنيات هذا الإعلام؟ ، مروراً بتساؤل آخر مؤداه : ما طبيعة هذا الدور ومحتواه؟، وصولاً إلى معرفة مخرجات هذا الدور من خلال تلمس حجم تفاعل هذه المرأة في العالم الافتراضي وارتباط ذلك بمدى فاعليتها في العالم الواقعي.

في البداية؛ نود الإقرار أنه بعد الاطلاع على عددٍ كبير من الأدبيات المتعلقة بالإعلام الجديد ، خاصة المنشورة عربياً، تبين عدم وجود دراسة علمية تتناول أو تحلل دور وعلاقة المرأة الفلسطينية بمواقع التواصل الاجتماعي لهذا الإعلام؛ لذا فإنه من الضروري على العاملين في الحقل البحثي الإسراع في إعداد دراسات، وصفية أو مسحية متعلقة بهذا الشأن.

وبغياب وجود مثل هذه الأدبيات فإن المعيار الذي يستند إليه الباحث في قياس مدى صحة أجوبته يتمثل في العودة إلى الحيز العام الافتراضي ، واستمزاج آراء ومواقف عدد من النساء المستخدمات لهذه التقنية، فضلاً عن بعض المعطيات التي جادت بها مقالة مختصرة أو دراسة غير منشورة. ولكي نصل إلى إجابة مقاربة لسؤال المقال المحوري وما تفرع عنه من تساؤلات فقد قمنا بالرجوع إلى الأدوات الثلاث، لعلنا " ننجح" في إزالة الغطاء عن مساحة، ولو يسيرة، من أرضية هذه الأسئلة. وبالدخول إلى جوف الموضوع ، نشير، أولاً، إلى أن المرأة الفلسطينية، خاصة الشريحة الشابة منها والمتعلمة والمقيمة في المدن هي الأكثر استخداماً لتقنيات الإعلام الجديد، نظراً لتوافر الحواسيب من جهة، وارتفاع نسب التعليم ودرجة الانفتاح الاجتماعي من جهة أخرى.

أما بخصوص حجم الاستخدام، فإن عدد الذكور المستخدمين لشبكات التواصل الاجتماعي أكثر مما لدى الإناث، لأسبابٍ أهمها: تحرك الشباب الأوسع حرية، وتمكنهم من الحصول على أجهزة الكمبيوتر بسهولة، فضلاً عن الأبعاد الاجتماعية المرتبطة بالإناث في حال استخدامهن للكمبيوتر. هذه الأبعاد الاجتماعية هي التي تؤسس لأنواع شتى من الرقابة على الإناث المستخدمات لمثل هذه الوسائط الالكترونية. وبقراءةٍ سريعة لآراء بعض المستخدمات نجد أن معظمهن يشعرن بأنواع مختلفة من الرقابات أثناء دخولهن واستخدامهن " الفيسبوك"، أهمها :الرقابة الذاتية ،الرقابة الاجتماعية ،الرقابة الأمنية ،الرقابة السياسية ، الرقابة الأخلاقية، إضافة إلى الرقابة الدينية. أخطر وأوسع هذه الرقابات هي الرقابة الذاتية، بحيث لا يستطعن(وفق قولهن) أن يتصرفن بحريةٍ كاملة في الكتابة ونشر الصّور وكتابة التعليقات بمعزل عن محيطهن الذي يضع محظورات كثيرة[30].

وفي صورة أخرى ترى دراسة غير منشورة لصالح مشارقة أن الفضاء الالكتروني الجديد كما يتم إنتاجه وكما هو حالياً، هو اقرب إلى كل أنواع علاقات القوة التقليدية، فيه أقوياء مسيطرون وفيه ضعفاء تابعون، رغم كل ما يساق من حديث عن تحرر ووصول وانفتاح علاقات بين الأفراد. وما يدلل على ذلك (وفق مشارقة) ما ظهر في مساحات التحليل لدراسته والتي أشارت إلى خوف المستخدمات من رقابات تقليدية، ومن استعارة المستخدمات

لصور الممثلات بدل صورهن الحقيقية، إضافة إلى خضوع كافة السلوكات والعلاقات إلى تصنيف مبني على الجنس في المواعدات والمراسلات والألعاب والتسليات التي تعطي هذا الواقع طابعه الأعم والأشمل. ويوضح :"أن تفوق الجانب العائلي على الاستخدام يشير إلى عودة الطابع التقليدي لادوار النساء الرعائية والامومية"[31] .

وبغض النظر عن هذه الصورة؛ فإن المجال الافتراضي عبر الوسائط الاجتماعية التي وفرها الانترنت يمكن النساء من توظيف هذه التقنيات المستحدثة في كسر أو خلخلة " الهيمنة الذكورية" على عالم النساء في الحيز الواقعي. نجاح ذلك مرتبط بكيفية هذا التوظيف سواءً من خلال تكوين المجموعات الالكترونية أو مضمون ما يُنشر فيها، فضلاً عن الغايات المستهدفة من الاستخدام. وفي حالة الإجابة على النقطة الأولى، نرى أن النساء الفلسطينيات لم يستطعن لغاية الآن تكوين روابط أو مجموعات الكترونية للتواصل الاجتماعي، تكون لهن أدوات للدفاع عن حقوقهن والتعبير عن رأيهن والتعريف بقضاياهن. هذا يتطلب من النساء، سواءً عبر المؤسسات أو "مجموعات الصداقة والمعارف" من التقاط أهمية هذه الشبكات وتوظيفها نحو واقعٍ أفضل ومستقبل أشرق.

أما بخصوص المضمون؛ فإن الانطباع أو الحكم الأولي يبين أن المستخدمات الفلسطينيات لمواقع التواصل الاجتماعي لم يركزن كثيراً على حقوقهن أو التعريف بواقعهن وطموحاتهن، بل نجد أن مواد الترفيه والتسلية ومجالات الفن والموضة وموائد الطعام والسياحة تأخذ حيزاً واسعاً من هذا العالم الافتراضي. هذا الحيز يُبقي ولو قسطاً يسيراً من التعبير عن الرأي وعن مطالب تقع تحت خانة الحقوق السياسية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية وغيرها، وإن كانت لم تصل بعد إلى نماذج لنساءٍ عربيات، مثلما كان الحال مع الشابة المصرية " إسراء عبد الفتاح" التي نجحت في إنشاء مجموعة الكترونية للتضامن مع عمال مدينة " المحلة " المصرية الذين كانوا سيتظاهرون في 6 ابريل 2008 ، ولم تكن هي شخصياً تتوقع أثراً كبيراً من المجموعة ولكن ما حدث أن اشترك أكثر من 70 ألف شخص في هذه المجموعة ، وكان لها أثرٌ كبير إلى حد اعتقال المدونة إسراء لأسبوعين[32].

وبشأن غايات الاستخدام، فإن قصور النقطتين الأوليتين يحسم مضمون وبوصلة هذه الغايات. فهذه التقنيات الالكترونية، كغيرها من الأدوات، لها وظيفة تخدم، وأخرى تهدم، وبالتالي؛ فإن شكل الاستخدام هو الذي يحدد مضمون النتيجة. وقبل أن نقفل باب هذا المقال نود الإجابة على مفردتي (التفاعل والفاعلية) اللتين يحملهما العنوان. فبشأن التفاعل فإن المستخدمات الفلسطينيات للمواقع الاجتماعية، خاصة الفيسبوك لم تصل إلى المستوى المطلوب، وإن كان المستقبل يشي بالأفضل، أما بشأن الفاعلية فإن اكتفاء المستخدمات بحجرة الاتصال والتعارف الافتراضية دون التواصل مع العالم الواقعي عبر التعبير المادي والملموس عن مطالبهن فإن الفاعلية ستبقى بعيدة المنال، والتغيير سيظل يراوح في خانة التباطؤ والضعف.

يبقى أن نقول : إذا كانت المرأة الفلسطينية، كسواها من النساء العربيات يعتقدن أن دورهن محدود وحقوقهن مهضومة بسبب الهيمنة الذكورية، فإن استمرار الاعتقاد في عالم هذه الوسائط الالكترونية يفقد شيئاً من صدقيته وواقعيته. ربما تكون لهذه الهيمنة دور معيق في تقدم النساء،ولكن إرادة المرأة ومبادرتها وكسر " تابو" الخوف في المطالبة بحقوقها، إلى جانب العمل الجاد والجماعي لتغيير منظومات تشريعية واجتماعية

وسياسية يرينها مجحفة لهن، فضلاً عن توظيف التقنيات الجديدة للإعلام، جميعها ، كفيلة بتحقيق ما تصبو إليه المرأة، ولو كان بالتدرج، والمواجهة، الناعمة حيناً والصلبة أحياناً.

خامساً: الحراك الشبابي الفلسطيني

في الوقت الذي يرى فيه البعض أن الحراك الشبابي الفلسطيني كان له الأثر والتأثير البالغين في الحياة السياسية الفلسطينية عبر الضغط على الفريقين المتصارعين فتح وحماس نحو دفعهم لإبرامهم اتفاق المصالحة في القاهرة نجد آخرون يؤكدون أن هذا الحراك كان مشتتاً في الأهداف ومرتبكاً في تحديد الصلاحيات، وضعيفاً في الكم والنوعية، فضلاً عن أن عوامل الضغط لتحقيق هذا الاتفاق لم تكن فلسطينية بل بفعل الثورات العربية، سيما المصرية والسورية منها.

فبخصوص الفريق الأول يذكر الكاتب والناشط على الانترنت (**زكريا محمد** [33]) أن الحراك الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي وفي مقدمتها " الفيسبوك " هو تجديد لروح الحركة الوطنية الفلسطينية ، التي أصابها التكلس، وأصبح من الضروري أن تستعيد روحها وطاقتها. ويضيف :" ما يقوم به الشباب هو البداية لاستعادة شباب الحركة الوطنية الفلسطينية، رافضا الرأي القائل أن حراك الشباب مقتصر على العالم الافتراضي والدليل على ذلك ما حدث من مسيرات في 15 آذار. ويوضح محمد أن هؤلاء الشباب لا يعيشون في العالم الافتراضي، بل يستفيدون منه فقط، ويستخدمونه للنزول على الأرض، مشيراً إلى أن المبادرات الشبابية على " الفيسبوك " ، تتحرك في كل الاتجاهات، حيث أن هناك مجموعات ضد النشاط الاستيطاني، وأخرى مع البيئة، وثالثة مع حقوق الإنسان، وغيرها من المجموعات التي تركز أو تهتم بالعديد من القضايا المهمة جداً.

ويتفق مع رأي محمد الناشط الاجتماعي الصحافي (**توفيق العيسى** [34]) الذي يؤكد أن الحراك الشبابي قد نجح في تحريك الحالة الفلسطينية الساكنة والمتصارعة نتيجة الانقسام بين أكبر فصيلين، والذي له تأثيرات سلبية على القضية الفلسطينية وحقوق شعبها، منوهاً إلى أن الحراك الشبابي سيتواصل بصورةٍ أو بأخرى رغم إنهاء الانقسام لأن الشباب الفلسطيني لهم أهداف وتطلعات ويشاركون بفاعلية وقوة من أجل تحرير وطنهم والعيش فيه بكرامة وحرية.

وعلى عكس ما يذهب إليه محمد نجد المحاضر في صحافة الانترنت في جامعة بيرزيت (**عبد الرحيم عبد الله**[35]) يؤكد على أن تجربة الشباب الفلسطيني في خلق حراك سياسي ومجتمعي على صفحات " الفيسبوك" غير ناجحة، وتكاد تكون غير ملموسة على الأرض، مدللاً على ذلك في غياب " خطة تحرك حقيقية للشباب على الأرض". وبشأن نجاح الحراك الشبابي العربي بواسطة الفيسبوك دون الفلسطيني يعلق عبد الله على ذلك قائلا : إذا نظرنا إلى هذه التجارب العربية التي حققت نجاحا عبر استخدامها أدوات التواصل الاجتماعي مثل مصر، فلأن هذه الوسائل كانت أداة تجميع ، وذلك يعود لأن حراك الشباب كان انعكاسا لحالة نشاط حقيقية على الأرض، وجاء استخدامهم لهذه التقنيات من الدعوات وتجميع الجهود، ومراكمة للخبرات على العكس مما

هو حاصل فلسطينياً.

ويرى عبد الله أن مؤسسات المجتمع المدني والسياسيين والأحزاب أجهضوا إلى حدٍ كبير هدف وقيمة استخدام أدوات التواصل المجتمعي " عندما قفزوا عليها ، كل بطريقته "، مبيناً أن مؤسسات المجتمع المدني تعاملت مع أدوات التواصل الاجتماعي على طريقتها في البرامج والمشاريع الممولة، فبدأت تنظم دورات مدفوعة الأجر تعلم الشباب كيف ينشئون مدونة وكيف يكونون فاعلين على " الفيسبوك " وهذا ما أدى إلى أن تكون هذه المهمة وظيفية ومجرد مشاريع مالية ومبرمجة، دون أن تكون قائمه على جميع أشكال التواصل الاجتماعي التي تعتمد على المبادرة والإبداع والانتماء[36].

وفيما يتعلق بعزوف الشباب عن الانخراط الفعال في الحراك الشبابي مثلما حصل في عددٍ من البلدان العربية فإن مدير منتدى مؤسسات المجتمع المدني الفلسطيني الالكتروني (**رامي مهداوي** [37]) يجملها في التالي:

تعدد الرؤى بين المجموعات الشبابية، ما دفع كل مجموعة تعمل لصالح فكرتها الأساسية، سواء بالمطالبة بإنهاء الانقسام، أو إنهاء الاحتلال، أو انتخاب مجلس وطني جديد.

المجموعات الشبابية لم تطرح أدوات فعالة، سواء لانتهاء الانقسام أو إنهاء الاحتلال ، ومنها من دعا إلى انتخابات مجلس وطني، فيما وجه شباب اللوم إلى " فتح " وآخرون إلى " حماس".

تجاهل الموظفين العاملين في القطاعين العام والخاص للحراك، وفي المقابل حاولت مؤسسات المجتمع المدني استثمار الحراك لصالحها.

الخوف من القمع الأمني في قطاع غزة الذي كان واضحاً وجلياً ، في حين تعاملت الأجهزة الأمنية بالضفة في قمع التحركات الشبابية " بطريقة ذكية "، ومنها على سبيل المثال، انخراط مجموعات شبابية للأجهزة الأمنية بلباس مدني وسط المتظاهرين الداعين إلى إنهاء الانقسام في محاولة للتأثير على الشعارات المرفوعة[38].

محاولة مجموعات شبابية محاكاة ما جرى في عدد من البلدان العربية، وهذا ما عكس تأثيراً سلبياً، لأن الواقع الفلسطيني يختلف تماماً عن الواقع العربي.

دور الإعلام المحلي، الذي حاول التركيز على شخصيات شبابية معينة، كأنها هي قائدة الحراك الشبابي دون غيرها، في محاولة لدعم عملية احتواء الحراك وشعاراته.

والى جانب ذلك كله، فإن تدخل الأحزاب السياسية في مسار الحراك الشبابي كان له أثر سلبي في عدم تحقيق هذا الحراك لأهدافه، ففي الوقت الذي كان فيه زهاء ثلاثة آلاف شخص على ميدان المنارة برام الله في الخامس عشر من آذار كان عدد كبير من قيادات الأحزاب السياسية يتهافتون على التقاط الصور والمقابلات مع وسائل الإعلام المختلفة، في مشهدٍ لا يخلو من تزاحم أو تجاوز لهذا الحراك والتأكيد من قبل هذه القوى أنها تمثل محركاً أساسياً في إقامته ورافداً مؤثراً في " نجاحه "[39].

فالتنظيمات وأطرها، خاصة حماس في غزة وفتح في الضفة قد زجت بشبابها بين أوساط الحراك الشبابي،

وهذا ما جعل الشباب ذوي التوجهات السياسية المختلفة يحتك ببعضه البعض، وبالتالي أصبحت هناك ذريعة للمؤسسة الأمنية بالضفة أو القطاع للتدخل تحت عنوان منع تأزيم الموقف، وصولاً للقضاء على التحرك الشبابي من خلال الاعتقال أو الضرب أو الاهانة.

إلى ذلك؛ وفي ظل نشوب خلاف بين المجموعات الشبابية حول الهدف من التحرك الشبابي سواء أكان إنهاء الاحتلال أم إنهاء الانقسام أم إعادة بناء منظمة التحرير فإن أي من الشعارات الفرعية التي نشرها الشباب عبر " الفيسبوك " ، ومنها " تحرير الأسرى" ، " حق العودة "، " تحرير القدس "، كتابة " الحرية لفلسطين " على العملة الإسرائيلية ، لم يؤثر على الجانب الإسرائيلي الذي بقي مراقباً، حتى أعلن عن صفحة الكترونية تدعو إلى انتفاضة ثالثة.

هذه الصفحة التي سميت بـ " الانتفاضة الفلسطينية الثالثة" ودعت إلى هبة شعبية لنصرة الأقصى، والزحف نحو فلسطين من الحدود العربية المجاورة في الخامس عشر من أيار أثارت خشية إسرائيل ودفعها إلى مطالبة إدارة موقع " الفيسبوك " بإغلاق الصفحة بحجة أنها تحتوي على تحريض من شأنه أن يلحق الأذى بكل من يحمل جنسية (إسرائيل)، رغم تأكيد القائمين عليها التزام المنهج السلمي الإعلامي "غير المحرض"، وفقاً للقوانين الدولية التي تكفل حرية الرأي والتعبير.. وعلى الرغم من استجابة إدارة الموقع للمطلب الإسرائيلي إلا أن القائمون على الصفحة وجدوا طرقاً بديلة للالتفاف على إغلاقها من خلال استحداث صفحات جديدة مساندة، فكان شباب مصر وتونس والجزائر في مقدمة منشئي الصفحات المناصرة لصفحة "الانتفاضة الثالثة"، وحملت إحداها اسم "صفحة التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية الثالثة من مصر"، وأخرى اسم : "معا لنصرة الانتفاضة الفلسطينية"، وغيرهما الكثير[40].

خلاصة القول: إن الحالة الفلسطينية في الحراك الشبابي والمجتمعي لم تكن متماثلة بالتحركات الشبابية الحاصلة في الوطن العربي وبالتالي فإن إسقاط الشباب الفلسطيني حالة العرب على ساحتهم بخصوص دور وتأثير مواقع التواصل الاجتماعي ، سيما " الفيسبوك" لم تكن مجدية، فضلاً عن أنه في الحالة الفلسطينية اعتبر " الفيسبوك " هدفاً في حد ذاته وليس أداة أو وسيلة تقنية ترفدها عناصر مساندة أخرى، وهذا كان بمثابة الخطأ الذي استجلب نتيجة قريبة إلى الفشل واجتراح أسئلة تثير من الانتقاد أكثر مما تؤسس قاعدة للترميم والعبر.

الهوامش

1 . ما تزال الصحافة تحتفظ لنفسها بالنمط التقليدي المعروف من حيث آلية نقل المعلومات ودقتها، ومراعاة ظروف العملية الإعلامية، وكأن الانترنت غير موجود. ويتجاهل الإعلام بشكلٍ عام ما ينشره الشباب على الانترنت وعلى الفيسبوك وغيرها من الأساليب. ولكن الأهم من كل ذلك هو درجة الثقة التي يحظى بها الإعلام في مقابل المعلومات التي تنشر على الانترنت. فهناك الكثير من المعلومات التي لا تنشرها الصحف، وتتحفظ عليها، ولكن يتم تداولها بشكل مكثف في وسائل التواصل الاجتماعي والمدونات وغيرها من الوسائل. وهذا بالطبع يضعف ثقة الجمهور بالإعلام. لذلك، فإن المطلوب، من أجل أن يحافظ الإعلام على نفسه، ولكي لا تحل الوسائل الحديثة محله، هو أن يطور ذاته، وأن يكون أكثر مصداقية وأكثر صراحة وجرأة في طرح القضايا. فريد أبو ضهير، (أستاذ الإعلام في جامعة النجاح الوطنية - نابلس)، مقابلة شخصية، 2011/4/20.

2 . ظاهرة الشبكات الاجتماعية، خاصة " الفيسبوك " بدأت تنتشر أساسا في المجتمعات العربية الشمولية والسلطوية التي تضيق فيها إلى حدٍ كبير دوائر حرية التفكير وحرية التعبير لانعدام المجال العام ، وعدم إمكان إنشاء منظمات أهلية غير حكومية ، أو أحزاب سياسية في ظل تعددية معترف بها.

3 . محمود الفطافطة، الفيسبوك في فلسطين.. حرية بلا ضوابط وعشوائية في الهدف والشعار، ملحق الحال، معهد تطوير الإعلام ، جامعة بيرزيت، العدد 71، 2011/5/5، ص13.

4 . تزايد استخدام موقع الفيسبوك والإقبال عليه من الشباب العربي ، خاصة بعد إدخال بعض التعديلات على الموقع وإتاحته اللغة العربية ، وأيضا بعد نجاح إضراب حركة 6 ابريل عام 2008 التي بدأت بتشكيل مجموعة على الموقع احتجاجاً على طرد موظفين في مصنع بمنطقة المحلة المصرية، ليصبح عدد المشاركين فيها أكثر من سبعين ألف في بضعة أيام .

أهمية موقع الفيسبوك في العالم العربي أدى لأن يصبح عدد مستخدميه حتى سبتمبر 2009 أكثر من 12 مليون مستخدم ، وهي نسبة كبيرة لموقع لم يكن معروف عربيا قبل عام 2006. انظر: شبكة اجتماعية واحدة ذات رسالة متمردة:الانترنت في العالم العربي، مصدر سابق، ص218.

5 . من الصعب جداً تحديد رقم محدد أو دقيق لعدد صفحات الفيسبوك الشخصية أو المجموعات التشاركية لأسباب أبرزها: عدم تثبيت فلسطين كدولة على الدليل الجغرافي للمؤسسات التي تمثل مصدر التزويد لهذه الخدمة، ففي اغلب الأحيان كانت توجد كلمة " إسرائيل" لترمز إلى الفلسطيني. وثاني الأسباب تكمن في أن عدد كبير من الفلسطينيين لديهم صفحات على الفيسبوك وهم خارج إطار الجغرافيا الفلسطينية. أما السبب الثالث فيتمثل في أن عدد ليس بالقليل من الذين لديهم اشتراك أو حساب على موقع الفيسبوك لا يضعون أسمائهم الحقيقية بل أسماء وهمية. وهنالك سبب رابع وأخير يتمثل في الزيادة الشديدة المتواصلة لعدد الصفحات والاشتراكات، فضلاً عن التحكم الإسرائيلي بالمصادر المزودة لشبكة الانترنت عموماً. ورغم ذلك فإن بعض الإحصائيات تذكر وجود أكثر من نصف مليون مستخدم فلسطيني لموقع " الفيسبوك" معظمهم من جيل الشباب .

6 . السياحة العشوائية عبر الانترنت : دراسة في تفاعل الشباب الفلسطيني على الحيز العام الافتراضي، مصدر سابق، ص28 - 29.

7 . استخدام توتير مصمم للهواتف الذكية، وتحديدا الجيل الثالث منها، وهذه وجودها متدن في الأراضي الفلسطينية، لان الاحتلال الإسرائيلي يمنع استيرادها. ورغم أن شركة الوطنية أطلقت مؤخرا خدمة تحديث " توتير" من خلال الرسائل القصيرة ، إلا أن هذه الخدمة ما زالت غير معروفة عند الجمهور الفلسطيني .

8 انتقلت الحرب الإلكترونية إلى موقع " يوتيوب " من خلال مجموعات المدونين ونشطاء الإنترنت الفلسطينيين، وذلك بنشر المئات من المقاطع الفيلمية، تلك التي وصفها البعض بأنها تعاني العشوائية، وينقصها التنظيم ووضوح الهدف. فبدافع من الحماسة سارع المدونون إلى إبراز المقاومة الفلسطينية كحل أمثل في حلبة الصراع، كإظهار سلاحها وعتادها ورجالها، وعمليات قصف الصواريخ المحلية الصنع، والكثير من الأدوات التي يأخذها الطرف الآخر والعالم كأداة إدانة للفلسطينيين وأعمالهم، دون إظهار المعاناة الفلسطينية. انظر : رزق عروق. "حرب فلسطينية إسرائيلية على اليوتيوب" على موقع "الجزيرة توك"، -8فبراير2007-، على الرابط: .http://www.aljazeeratalk.net/forum/archive/index.php/t-48203.html

9 . عماد الأصفر، الإعلام الالكتروني لحركة حماس والانقسام الفلسطيني، دراسة في كتاب: الإعلام الفلسطيني والانقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين، مواطن، رام الله، 2011، ص165

10 . عزيز كايد، الإعلام الالكتروني لحركة فتح والانقسام الفلسطيني، دراسة في كتاب: الإعلام الفلسطيني والانقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين، مواطن، رام الله، 2011، ص 198.

11 . ربعي المدهون، "حرب افتراضية بين الفلسطينيين والإسرائيليين على موقع " فيس بوك" الإلكتروني"، لندن: صحيفة الحياة اللندنية، 5-2-2008:

http://www.daralhayat.com/science_tech/08-2008/Article-20080828-0a4fcb2a-c0a8-10ed-01bf-ee334c260cc3/story.html

12 - سهير عثمان،"الجيش الإسرائيلي يفرض قيودا على موقع "فيس بوك"، موقع محيط، 13-4-2008:

http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=111762&pg=10

13 . عبد الرحيم عبد الله (أستاذ صحافة الانترنت في جامعة بيرزيت) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/26.

14 . وليد الشرفا (أستاذ الإعلام في جامعة بيرزيت) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/2.

15 . عبد الرحيم عبد الله، مصدر سابق.

16 . خالد ربايعة (خبير في أبحاث المعلوماتية)، خالد ربايعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، مصدر سابق.

17 . فريد أبو ضهير، مصدر سابق.

18 . عبد الناصر النجار (نقيب الصحافيين الفلسطينيين وأستاذ في الإعلام بجامعة بيرزيت)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/2/10.

19 . بثينة حمدان(إعلامية وباحثة)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/3/23.

20 . صالح مشارقة(صحافي وباحث)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/2.

21 . منتصر حمدان(صحافي في جريدة الحياة الجديدة)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/2/11.

22 . عدنان الشعراوي (ناشط شبابي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/4.

23 . يوسف الشايب(صحافي في جريدة الأيام)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/7.

24 . فارس سباعنة (شاعر وناشط الكتروني) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/7

25 . سمير حجازي (الناطق باسم ائتلاف شباب فلسطين) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/8

26 . محمد أبو علان (مدون وناشط اجتماعي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/8

27 . وليد بطراوي(صحافي والباحث في قضايا الإعلام) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/19

28 سميح محسن(شاعر وباحث حقوقي) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/14

29 نبهان خريشة (خبير في صحافة الانترنت) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/13

30 . محمود الفطافطة، أين المرأة الفلسطينية من الإعلام الجديد، ملحق صوت النساء، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 329، 7 نيسان 2011، ص12

31 . صالح مشارقة ، المرأة في الفيسبوك : علاقات سلعية ورقابات غامضة وتفاعل بلا فاعلية، مصدر سابق، ص19.

32 . محمود الفطافطة، أين المرأة الفلسطينية من الإعلام الجديد، مصدر سابق، ص12

33 . نائلة خليل، حراك شبابي يخضع لأسر العالم الافتراضي، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011، ص14.

34 توفيق العيسى، (ناشط اجتماعي وصحافي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/20

35 . . عبد الرحيم عبد الله(أستاذ صحافة الانترنت في جامعة بيرزيت) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/26.

36 . ما أن أعلن ائتلاف شباب 15 آذار المكون من شباب 5 من حزيران "، و" شباب غزة نحو التغيير "، و" شباب الخامس عشر من آذار "، عبر صفحات التواصل الاجتماعي (الفيسبوك ، وتوتير، ويوتيوب) عن نيتهم تنظيم فعاليات شبابية تحت شعاري " نريد إنهاء الانقسام" ، و " نريد إنهاء الاحتلال" ، حتى سارعت الفصائل الفلسطينية على اختلاف مسمياتها، بما فيها حركتا " فتح " و" حماس"، إلى الدعوة لعقد اجتماع فصائلي في الرابع عشر من آذار . ورغم أن ظاهر هذه الاجتماعات هو كيفية توفير " مظلة وطنية " لهذا الحراك، وكيفية حماية المشاركين من أي احتكاكات غير مرغوب فيها قد تؤدي إلى توتير الأجواء الفلسطينية الداخلية ، سواء كانت في الضفة أو في القطاع ، إلا أن شباب الحراك أنفسهم أكدوا أن مضمون هذا الاجتماع هو كيفية احتواء هذا الحراك ، وكيفية توجيه خط سيره وشعاراته وتحديد مكانه وزمانه . انظر: فايز أبو عون، اتفاق المصالحة يضع مسار الحراك الشبابي أمام تحديات جديدة، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011، ص10.

37 . حسام عز الدين، الحراك الشبابي يبحث سبل الضغط لإنجاح مسار المصالحة، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011، ص8.

38

39 . محمود الفطافطة ، شهوة الميكروفون، http://www.amin.org/articles.php?t=opinion&id=13836، 15/3/2011

40 . محمود الفطافطة، إسرائيل حذفت صفحة "الانتفاضة الثالثة" فانبثقت عنها "صفحات".. فلسطين وثوّار " الفيسبوك".. هل دنا حلم التحرير ، جريدة فلسطين، غزة، 2011/5/5

المبحث العاشر

تحليل عينة من مجموعات الفيسبوك الفلسطينية والاستمارة

يشتمل هذا المبحث على جزأين، الأول يتضمن تحليل عينة من مجموعات الفيسبوك، فيما الجزء الثاني فيحتوي على الاستمارة العشوائية البسيطة التي أجراها الباحث كأداة داعمة ومساندة للأدوات الأخرى ، وذلك بهدف تعزيز المصداقية البنائية لمضمون ونتائج البحث.

أولاً: تحليل مضمون عينة من المجموعات الفلسطينية على موقع الفيسبوك

سيبدأ تحليل هذه المجموعات بشكلٍ تنازلي يبدأ من الملاحظات العامة على كل مجموعة وصفاتها البنيوية وينتهي إلى التفاصيل الدقيقة التي تميز كل مجموعة على حدة.

يمكن القول أن المزاج العام والمجال العام الواقعيين المنسجمين مع البيئة والنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والترفيهية والثقافية قد انعكست على المجال الرمزي الافتراضي الفلسطيني.

من الناحية السياسية طغت الأحداث والأفكار على شكل هذه المجموعات ومفرداتها ورموزها فكان هناك مثلاً مجموعة تحت عنوان " الانتفاضة الفلسطينية الثالثة" " و" يلا ننهي الاحتلال" ومجموعة بعنوان " سلام فياض .. الإصلاح الحقيقي يبدأ من هنا " ، كما عكست مفردات الانقسام نفسها على الموقع فكان هناك مجموعة بعنوان " الشعب يريد إنهاء الانقسام" ، ومجموعة " التحضيرات لثورة الكرامة في غزة " ، ومجموعة تحت عنوان " حركة المقاومة الإسلامية. حماس " و " حركة التحرير الوطني الفلسطيني. فتح " ومجموعة أخرى تحت عنوان " اليسار الفلسطيني" وغيرها.

من الناحية الاجتماعية عكست القضايا الاجتماعية نفسها تحت عنوان " صبايا حائرات " وهي مجموعة نسائية تطالب بالعدالة الاجتماعية وتؤكد على حقوق المرأة، وكذلك منتدى " الاعتدال والرأي الآخر" وهو منتدى يدعو إلى الحوار واحترام ثقافة الاختلاف، وكذلك انعكس البعد المحلي وثقافة الطائفية والعائلية والجغرافيا نفسها على عناوين بعض هذه المجموعات مثل مجموعة " شباب نابلس وبنات نابلس" ومجموعة " ما ازنخك " .

أما الرموز الثقافية الفلسطينية فقد عكست نفسها بقوة على المجال الرمزي فكانت هناك مجموعات تحت عنوان " محمود درويش" و" ادوار سعيد" و" سميح القاسم" و" ناجي العلي" وغيرهم .وبخصوص الجانب الترفيهي والرياضي فكان حضوره طاغياً وفعالاً فقد أخذت العناوين زخماً يعكس السجال الرياضي في فلسطين مثل عناوين " رابطة عشاق ريال مدريد في فلسطين" و" عشاق برشلونة في فلسطين" .

برزت مجموعات محدودة الاهتمام والعدد والتي تتعلق بحقوق الإنسان والبيئة والتنمية وقضايا الفساد والشفافية وهي ستحظى باهتمام محدود في عملية الرصد والتحليل بسبب محدودية أعضائها وقلة نشاطها حتى فترة إعداد هذا البحث.

الدائرة الأضيق لتحليل مضمون هذه المجموعات يبدأ بعدد مشتركيها والمفردات المكررة الطاغية على خطابها ومدى استخدامها للرموز الجماعية التي تعكس الأبعاد الثقافية والإيديولوجية الجمعية للمجتمع الفلسطيني.

في مجموعة الانتفاضة الفلسطينية الثالثة التي ضمت نحو 100 ألف مشترك وقت كتابة هذا البحث تبرز الرموز الدينية منذ اللحظة الأولى من خلال الصور والشعارات المرفوعة فقد كان شعار لا اله إلا الله محمد رسول الله مرفوعاً على الواجهة العليا للصفحة مدعوما بألفاظ وكلمات تضيف زخماً للبعد الديني مثل (أما آن للمنادي أن ينادي حي على الجهاد حي على الجهاد والله اكبر) . وذيلت الصفحة بأسماء المساجد المتوقعة لصلاة الفجر المليونية . يلاحظ عنف الرموز في الصفحة وضخامة عدد المشاركين على الصفحة ولكن المفارقة تؤكد أن التلاحم بين المجال الرمزي والواقع التاريخي ليس بالضرورة أن يكون مضموناً متحققاً لأن ردة الفعل على الأرض لم تكن على حجم المتوقع بل هي اقل بكثير.

بالتأكيد سجل هذا الموقع علامة وتساؤلا إشكاليا حول حرية التعبير إذا علم انه قد تم حجب الموقع لأسباب سياسية. من ناحية أخرى الإشكالية التي فجرها هذا الموقع هو تساؤل مستمر حول هل يعني التوحد في الزمن الرمزي والهوية التقنية توحداً في المكان والهوية التاريخية ؟.

في مجموعة " التحضيرات لثورة الكرامة " في غزة برزت المصطلحات والرموز مرة أخرى من خلال الكرامة والثورة . ويلاحظ أن هذه المجموعة عرفت نفسها بأنها مجموعة شبابية فلسطينية هدفها تحرير شعبها من الانقسام، ولكن تتنازل اللغة عن عموميتها لتبدأ مرة أخرى تعكس البنية السياسية الفلسطينية القائمة على التجاذب السياسي والانقسام الحزبي والفكري . فالمجموعة تنتهي إلى التمجيد بالأجهزة الأمنية وتردد شعارات حركة فتح " ثورة حتى النصر " ، وتسيطر عليها الرموز السياسية والأمنية للسلطة الفلسطينية ولحركة فتح.

في الحلقة الأضيق لهذه العلاقة بين المستويين التاريخي والرمزي تحضر الأحزاب الفلسطينية بقوة هائلة على صفحات الفيسبوك وبشكل مباشر وتظهر أسماء التنظيمات الفلسطينية تباعاً على الموقع . وسنحلل هنا مواقع وتجمعات تابعة لحركة فتح ولحركة حماس ولليسار الفلسطيني والجهاد الإسلامي .

في صفحة حركة فتح تظهر رموز ذات تعريف متوارث عند الحركة خاصة شعار العاصفة على يسار الصفحة، إضافة إلى مجموعة من الصور الصغيرة فيها صورة لأحد عناصر كتائب الأقصى ، يعكس الموقع المفردات والأبجديات السياسية

التي تشكل الرأي العام داخل حركة فتح .

يلاحظ أن الموقع يحوي آراء مضادة لحركة فتح على موقع الحركة نفسها وإن كان بلغة مفككة عامية فيها جانب من السخرية. ويلاحظ أيضاً أن الموقع يتغير باستمرار وتدخل عليه مواقع متناقضة من أخرى، وقد تتجاوز فلسطين إلى الإقليم المحيط. ومرة أخرى تعود اللغة العامية وروح السخرية الموجودة في التعليقات. مثل " ها ها ها بالله يا فتح شو رايكو بمسيرة العودة والانتفاضة الثالثة" . " وشو رايكو بس أبو مازن يمنعها ... ها ها ها " .

وبخصوص موقع حركة حماس يلاحظ الحضور الكثيف لشعارات الحركة وصور رموز قيادتها مثل الشهيد المؤسس للحركة أحمد ياسين، ود. الشهيد عبد العزيز الرنتيسي وغيرهم وهو لا يبتعد من حيث بنيته عن موقع حركة فتح . وتحضر لغة السخرية والتخوين والهجوم بطريقة مماثلة. وهناك حضور طاغٍ للشعارات الدينية والوطنية وإشارة إلى ثورة مصر والثورات العربية لخلق حالة من التضامن بين جمهور هذه الثورات والحركة .

لم يختلف موقع اليسار الفلسطيني عن الموقعين السابقين ففيه طغيان هائل للرموز والشعارات ذات البعد اليساري مثل صورة جيفارا والمنجل والمطرقة ومقولات لجيفارا والحكيم جورج حبش، والأدبيات اليسارية التقليدية . ويلاحظ خفوت الأصوات الداعية إلى المقاومة في المواقع الثلاثة. وهذا انطباع أولي يقود لتحليل أعمق

في موقع تابع لحركة الجهاد الإسلامي يلاحظ اختلافا نسبيا عن مواقع الفصائل الثلاثة آنفة الذكر ، حيث تحضر إلى جانب رموز الحركة وقيادتها خاصة الدكتور الشهيد فتحي الشقاقي مؤسس الحركة تحضر شعارات المقاومة وضرورة الالتزام بها وانتقاد الانقسام والتسوية السياسية ، إضافة إلى حراك في النقاش داخل الحركة حول علاقتها مع حركة حماس في غزة تحديداً وضرورة أن تعود الحركة إلى وجهها الحقيقي الأصلي الذي رسمه مؤسسها الشقاقي.

في استنتاجٍ عام لعلاقة هذه المواقع بالواقع التاريخي الفلسطيني يلاحظ أن هناك انسجام بين فعل الحركات على الأرض وفضائها الرمزي الافتراضي، مع ملاحظة أن حجم التفاعل المباشر يقل، إلا في حالات الأحداث الساخنة والصراعات بينهم، وهذا أكثر ما وجد أثناء الانقسام بين حركتي حماس وفتح.

كما يلاحظ أن الهم الداخلي وقضايا الانقسام والتحريض المتبادل قد طغت على قسم كبير من هذه الصفحات أو المجموعات ومضمونها وتعليقات المشاركين فيها. في قضايا الانقسام يلاحظ ضعف الاستجابة للدعوات في الشارع حيث كانت المشاركة الالكترونية اكبر بكثير من المشاركة الفعلية على الأرض وما يدل على ذلك حملة الكرامة ومجموعة 15 آذار .

لم يستطع الفعل التاريخي السياسي الفلسطيني الوصول إلى مجال عام حقيقي يعكس هواجسه وأحلامه الفعلية

ما انعكس بالفعل على الواقع الافتراضي، حيث الإرباك والانفعالية والعشوائية وسيطرة الشعارات المباشرة وغياب تعريف محدد للهوية الوطنية ولهوية المشروع الوطني.

كما ظهر نوع من الارتباك في العلاقة بين حرية الرأي ومفهوم المسؤولية الاجتماعية والوطنية، فحرية الرأي ظهرت في حالات التهجم والتخوين والتفكير والإقصاء دون أي شعور بالمسؤولية الاجتماعية ومفهوم العلاقة داخل النسيج الاجتماعي الذي توحي الصفحات والمجموعات السياسية بأنه قد يتعرض إلى حالة أخطر من التفكك والإقصاء وغياب الهوية الجماعية لصالح هويات حزبية وأيديولوجية وانفعالية.

أما بخصوص المضامين الاجتماعية هناك مجموعات كثيرة تأخذ مسميات المدن الفلسطينية والعائلات الفلسطينية. وكان لقضايا المرأة والعنف الموجه ضدها حضور في كثير من المجموعات منها مجموعة " صبايا حائرات " التي تعرف نفسها بأنها مجموعة نسائية تتساءل عن الكرامة وحقوق المرأة وتهدف إلى إيصال صوت المرأة للمجتمع. وقد خص الموقع الضحية " آية براذعية " وهي طالبة من مدينة الخليل قتلت في ظروف غامضة على يد عمها وثلاثة رجال آخرين اهتمامًا ملحوظاً أحدث كثير من التعليقات والردود حول الجريمة.

استجلب الموقع ردود فعل كثيرة ومشاركات واسعة من القراء تطالب بتطبيق القانون بحق الجناة ومنع أية أعذار جانبية يمكن أن تساهم في تعطيل القانون . يعكس هذا الحادث الأزمة القانونية الفلسطينية وظهورها للنقاش بشكل موسمي متزامن مع أحداث كبيرة وهو أمر يصب في خانة الانفعالية السياسية التي أشير إليها سابقاً.

في المجال الثقافي تركت الشخصيات الثقافة الفلسطينية صداها على مجموعات الفيسبوك وجاءت الصفحات باسم " محمود درويش" و" سميح القاسم" و" ادوار سعيد " وغيرهم . ويلاحظ أن التعامل مع الصفحات أو المجموعات ذات البعد الثقافي اكتسبت علاقة مجاورة مع الرموز الثقافية الكبرى دون وجود نقاش ثقافي عميق، بل على العكس وردت على صفحات المثقفين الفلسطينيين أخبار ترفيهية ورياضية وسياسية لا علاقة لها بمضمون أو أهداف الصفحات، وطغت عليها الألفاظ الكبيرة والتفاعل الاختزالي دون أن يكون هناك حوار ثقافي واعي، وربما تعكس الحالة الثقافية للصفحات الوضع الثقافي الفلسطيني الذي يشبه الوضع السياسي في انعدام الهوية

الثقافية وحضور المجاورة الثقافية لتعزيز الحضور الاجتماعي دون أن تكون هناك علاقة حقيقية وقوية على المستوى الثقافي.

الصفحات الرياضية تعيش حالة من النشاط الكبير من حيث عدد المشاركات والتفاعل المباشر، كما أنها تعكس البنية الفلسطينية من حيث الاستقطاب واللغة الساخرة والانفعالية. ففي مجموعة " رابطة عشاق مدريد في فلسطين " التي حوت صور لنجوم الفريق يلاحظ حجم التورط والانتماء لأبطاله وحضور حالة الاستقطاب بين عشاقه وعشاق الفريق الآخر ، فقد ورد على موقع صفحة عشاق ريال مدريد الأوصاف التالية: " أي أي أي ممثلين وغشاشين وكذابين" وكذلك " مدريدي لا بد فاشل" .

أما على صفحة " عشاق برشلونة في فلسطين" والتي تشبه إلى حد كبير صفحة عشاق ريال مدريد مع اختلاف في الأسماء فقط ، فقد ورد ذلك التعليق من " بوس جنرال" والذي استعار صورة ابن لادن نصيحة إلى كل عشاق ريال مدريد " بالنسبة لكريستيانو رونالدو غطوه بلاش يلفحوا الهوا آه آه آه" .

ربما تشابهت الرياضة في السمات البنيوية للصفحات والمجموعات الالكترونية للفيسبوك في علاقتها مع الواقع الاجتماعي والسياسي حيث الاستقطاب والاحتقان والتقنع (استعمال الأسماء المستعارة) ولكن هذه الصفحات تتفوق لكونها تحظى باهتمام هائل من شريحة الشباب الفلسطيني بشكل بدأ يزاحم الأسئلة والاهتمامات السياسية وهذا إشارة على التحول الذي يعصف بالمجتمع الفلسطيني وربما يؤدي إلى تغيير هويته السياسية والثقافية وقد ساهمت التقنية هنا بسرعة في هذا التغيير وتسهيله.

ويمكن القول أن الاستغلال المنظم والفعال والناجح لتقنيات التواصل الاجتماعي كانت حاضرة بقوة في مواقع الرياضة متجاوزة بذلك كثير من الصفحات السياسية والثقافية والاجتماعية. وهذا ربما يدق ناقوس الخطر إلى دور التقنيات الاتصالية الحديثة في تعزيز ثقافة الاستقطاب والترفيه في مقابل تفكيك الثقافة السياسية وربما كانت تجربة 15 آذار التي كانت من الناحية الشكلية معبرا عن حلم فلسطيني شامل فيه إجماع في المجال إلا انه لم يحقق هذا الإجماع وهذا النجاح في المجال الافتراضي.

ولعل إعلان اتفاق المصالحة الذي قوبل بحرارة أقل مما كان متوقعا في الوقت الذي كانت فيه الميادين والصفحات الالكترونية والمنتديات الشبابية والتعليقات تشتعل نشاطاً في استقبال ومتابعة نتائج مباريات الفريقين المذكورين (مدريد وبرشلونة) لدليلٍ واضح على طغيان الرياضي على السياسي والثقافي والاجتماعي في المشهد الفلسطيني.

هذا المشهد الدرامي في الصفحات الالكترونية يعكس انسجاماً بين الفواعل الاجتماعية والالكترونية في الحالة الرياضية في حين كان هناك نوع من الإرباك في استخدام الفواعل الالكترونية لمصلحة القضية الوطنية والسؤال السياسي.

في نتيجةٍ عامة لهذا التحليل الذي يصعب تثبيته في شكل معين للصفحات لأنها متغيرة الأشكال والمضامين بشكلٍ سريع لكنها تبقى مخلصة لبنيتها وبنية فاعلها. صحيح أن الصفحات عززت حرية الرأي والتعبير في فلسطين لكنها لا تعكس بالضرورة احتراما لثقافة الاختلاف وحرية الرأي. بالعكس كان هناك تقابل أحيانا بين حرية الرأي المحمية برموز مقدسات كبرى مثل الحرية، الكرامة، الجهاد، الوطن، القضية، الدين، والعادات.

إضافة إلى ذلك فإن الفيسبوك الفلسطيني لم ينسلخ مطلقا عن بنيته السياسية المشكلة من أحزاب ومنظمات مدنية والتي صادرت في النهاية معظم النشاط على الشبكة الافتراضية إلى حد تدخلها المباشر في الحد من هذه التحركات مثل الهجوم على ساحة الجندي المجهول في غزة والاشتباكات بالأيدي التي حدثت في مدينة رام الله بين نشطاء الحراك من أجل إنهاء الانقسام ونشطاء آخرين محسوبين على الحراك.

ثانياً: الاستمارة

لمعالجة واقع وانعكاس الإعلام الجديد، وفي محاولة للوصول إلى معالجة علمية لجأ الباحث إلى إجراء استمارة عشوائية بسيطة من 100 استمارة في مدينة رام اله وذلك لرصد أولي لمشاعر وتوجهات الجمهور الفلسطيني تجاه العلاقة بين الفيسبوك وحرية التعبير .

وقد جاءت النتائج على النحو التالي

74% من المستطلعة آراؤهم مشاركون في خدمة الفيسبوك و26% غير مشاركين .

رأى 67% من المشتركين أن الفيسبوك يساهم في حرية التعبير ورفع مستوى هذه الحرية، في حين رأى 33% أن الفيسبوك لا يساهم في هذه الحرية .

أفاد نحو 62 % من غير المشاركين في خدمة الفيسبوك أنه لا يساهم في حرية الرأي، في حين رأت النسبة الباقية من غير المشتركين أنه يساهم في حرية التعبير.

تعكس هذه النتائج ميلاً نحو التفاؤل لإمكانية أن يساهم الفيسبوك في تعزيز حرية الرأي والتعبير ولم يكن لمتغير السكن تأثير مهم ولافت في التصور لدور الفيسبوك مما يؤكد أن الفيسبوك يخلق نوع من الوحدة الزمنية أو ما يمكن أن يطلق عليه " الطبقة الالكترونية" . كما يلاحظ أن المشتركين في خدمة موقع الفيسبوك هم الأكثر تفاؤلا نسبيا من غير المشتركين.

وفي الحقيقة ينوه الباحث أن الإحصاءات التي تم رصدها طيلة السنوات القليلة الماضية تؤكد زيادة في نسبة المشاركة في خدمة الانترنت، ومنها خدمة الفيسبوك بشكلٍ يدعم استمارة الباحث البسيطة.

المبحث الحادي عشر

الإعلام الجديد: رؤية استشرافية

مما لا شك فيه أن الإعلام يشغل مساحة واسعة في حياة الإنسان المعاصر الذي يعتمد عليه في الحصول على المعلومات وتوفير الراحة الذهنية، والمتعة الفنية في بعض الأحيان. فأجهزة الإعلام تقدم أفكاراً متنوعة ورؤى جديدة للأشياء والأحداث، تُهيئ للإنسان المعاصر إمكانية الانفتاح على العالم الخارجي بل ونقل ذلك العالم بكل أحداثه المعقدة والمتلاطمة إليه، وذلك كنتيجة طبيعية للتقدم الهائل في أساليب الاتصال.

التقدم الهائل في أساليب الاتصال هذه نجم عنها تطوراً مهولاً في تقنيات تكنولوجيا الإعلام التي مرت بمراحل عديدة من التطوير والتجديد ، إلى أن وصلت أخيراً إلى المرحلة التي يعتمد فيها الاتصال الجماهيري على التكنولوجيا الرقمية، ولا يزال مجال التطوير مفتوحاً على مصراعيه، بحيث يصعب التكهن الآن بالمدى الذي قد يصل إليه ولا بالمسارات التي سوف يسلكها ، وتأثيرات ذلك في المستقبل ليس فقط في العملية الإعلامية من إنتاج ونشر وتوزيع، بل وأيضا على كثير من القضايا الاجتماعية والثقافية التي تتأثر باتجاهات الإعلام بشكلٍ مباشر.

ولقد طرأت على المجال الإعلامي كثير من التغيرات بعد ظهور الانترنت واستخدامه كوسيلة للاتصال الجماهيري من ناحية، والسرعة الفائقة التي تتميز بها التكنولوجيا الرقمية في الوصول إلى المعلومات ونشرها على نطاق واسع للغاية من الناحية الأخرى، وذلك فضلاً عما تتميز به هذه التكنولوجيا المتطورة من قدرات على فتح قنوات بين وسائل الاتصال المختلفة وربطها بعضها بعضاً، بحيث يمكن الإفادة منها جميعا في الوقت نفسه، ودون أي جهد إضافي، وهذه حقيقة أشار إليها منذ سنوات عالم الاجتماع الكندي مارشال ماكلوهان حين قال: "إن بعض أشكال الإعلام الجديد سوف تنجم عن تكامل واندماج الوسائل المختلفة ، للحصول على المعلومات من المصادر المتعددة المتباعدة والمتباينة".

والواقع أن التطورات التي حدثت في مجال الانترنت خلال الفترة القصيرة التي مرت، منذ الاعتماد عليه، لا يمكن أن تقاس إليها أي تطورات أخرى حدثت في أي مجال آخر من مجالات الاتصال والإعلام[1]، ولذا فإنه من الصعب التنبؤ بما سيكون عليه الوضع في المستقبل، في ضوء ازدياد الإقبال على استخدام الكمبيوتر والالتجاء إلى وسائل أخرى غير التلفون العادي للدخول إلى الشبكة العنكبوتية . ويمثل هذا الإقبال الشديد ثورة إعلامية ومعلوماتية باهرة، نظراً لاتساع وتنوع مصادر ومجالات الاتصال والمعرفة والحصول على المعلومات، مع إمكان إعادة صياغتها ونشرها في صور وأشكال جديدة ومتعددة يظهر فيها عنصر الابتكار والإبداع[2] .

هذه الثورة تتسم بالهدوء ولا تكاد تجذب إليها الأنظار على الرغم من خطورتها ودلالاتها ونتائجها البعيدة المدى، بفضل ما تنطوي عليه من إمكانات ضخمة للتغلب على كل فوارق الزمان والمكان التي قد تعوق عمليات نشر المعرفة بسرعة ودون تكاليف تُذكر، كما أنها تؤدي إلى تغيير موازين القوى. إن صح التعبير. في مجال الإعلام لأنها تسمح للأطراف المختلفة المشاركة في العملية الإعلامية بفرصٍ متساوية للاتصال، بمعنى أنه يمكن لكل طرف أن يقوم بعمليتي الإرسال والاستقبال في وقتٍ واحد، وذلك بعكس ما هو عليه الوضع في وسائل الإعلام الأخرى، حيث يؤدي كل طرف دوراً محدداً لا يتعداه. فالتلفزيون (يُرسل) والمشاهد (يَستقبل)، بينما يستطيع المرء عن طريق الانترنت أن يُرسل ما يشاء من رسائل، في الوقت الذي يستقبل كل ما يرد إليه من مختلف أنحاء العالم.

بيد أن هذا لا يستلزم بالضرورة اختفاء التلفزيون أو أن يحل الانترنت محل الصحف وإن كان سيؤدي إلى تغييرات جوهرية في طبيعة الإعلام والمعلومات، وسرعة الحصول عليها ونشرها، خاصة أن هناك من يتحدى أنه لا يمكن أن يمر أكثر من عشرين دقيقة على وقوع أي حدث، مهما كان صغيراً في أي مكان في العالم، دون أن يتم نشره على الشبكة الدولية[3].

هذا المدخل التمهيدي الذي يوضح مدى أهمية الثورة المعلوماتية والاتصالية التي أحدثها الانفجار التكنولوجي وما نجم عنها من تمددٍ هائل في تقنيات الانترنت ووسائطها والتي أبرز تجلياتها شبكات التواصل الاجتماعي ينقلنا للحديث عن مسألتين؛ الأولى تتمثل في مستقبل شبكة الانترنت، في حين المسألة الأخرى تتمحور حول القراءة الاستشرافية لوسائط الإعلام الجديد، مع التركيز على الفيسبوك، وصولاً للحديث عن المخاطر الكامنة والتساؤلات المفتوحة المتعلقة بهذا الإعلام.

أولاً: مستقبل الانترنت

يثير مسار (ثورة المعلومات [4]) خلال العقود القليلة المقبلة خيال كثير من المفكرين والعلماء خاصة فيما يتعلق بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لهذه الثورة وما سوف يترتب عليها من تغيرات في مجالات العمل وإدارة شؤون الحكم في مجتمع المستقبل المعلوماتي والمحافظة على الأمن سواء على مستوى المجتمع الواحد أم على المستوى العالمي وتنسيق العلاقات بين الدول ببعضها البعض . وقد عُقد لمناقشة هذا الموضوع بالذات مؤتمر في بلجيكا في إبريل عام 2001 شاركت فيه عدة منظمات دولية وإقليمية ومراكز بحوث في القارة الأوروبية وبعض المراكز الأميركية وذلك ضمن سلسلة من المؤتمرات تدور كلها حول مشكلة مستقبل ثورة المعلومات بغية رصد وتتبع الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سوف تنشأ نتيجة للتحولات المستجدة وسقوط الحواجز التقليدية بين مجتمعات العالم بفضل ثورة الاتصال والمعلومات .

وقد حاول المؤتمر، وهو الرابع، وضع خريطة محتملة لما يمكن أن تتأدى إليه هذه الثورة خلال السنوات العشرين المقبلة، وهي فترة قصيرة نسبياً ولكنها تعتبر حاسمة في نظر الكثيرين نظراً لتسارع الأحداث والتغيرات

التي سوف تؤثر بالضرورة في مجتمعات العالم الثالث التي ينبغي أن تتخذ الاحتياطات والإجراءات الضرورية لمواجهة هذه التغيرات والتفاعل معها بايجابية حتى لا تزداد الهوة المعلوماتية - أو الفجوة الرقمية - اتساعاً بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات الأكثر تخلفاً.

وربما كان من أهم ما توصل إليه المؤتمر هو أن ثورة المعلومات في الفترة القادمة لن تكون مقصورة على التغيرات الجذرية والفجائية في مجال تكنولوجيا المعلومات أو في درجة جودة وسرعة ودقة الأجهزة والتقنيات المستخدمة في إنتاج المعلومات وتدفقها وتحليلها وتخزينها على ما كان عليه الوضع خلال العقود القليلة الماضية إنما ستكون الثورة الحقيقية في مجال المفاهيم والتصورات . أي أن العالم سوف يعطي اهتماماً اكبر لمسألة توضيح المقصود من " المعلومات " وتحديد معنى الكلمة بدقة وتبيين الهدف من المعلومات وتحديد الأولويات في مجال استخدام المعلومات مما سوف يترتب عليه إعادة البحث في نوعية التقنيات التي يمكن أن تتولى انجاز هذه التصورات الجديدة ، وإن الإجابة عن تلك التساؤلات حول المعنى والهدف والأولويات هي التي سوف تساعد على معرفة، بل وتحديد المسارات التي يحتمل أن تسلكها هذه الثورة [5].

ويذهب " بيتر دروكر " وهو من أكبر المهتمين بثورة المعلومات واستخداماتها وبخاصة في المجال الاقتصادي إلى أن هذه الثورة سوف تكتسح أمامها كل نظم ومؤسسات المجتمع الحديث، وأن هذا الاكتساح بدأ بالفعل في مجال المشروعات الكبرى تجارية كانت أم صناعية. وكان لها آثارها الواضحة في تغيير النظرة إلى مسائل القيمة والثراء وأساليب تحقيقهما[6].

وإلى جانب دروكر يؤكد " بيل جيتس" أن التكنولوجيات البازغة للعصر الرقمي ستغير حياتنا كلها، وإننا نقف الآن على أبواب ثورة جديدة، ونجتاز في الوقت الراهن عتبة تكنولوجية سوف تغير إلى الأبد الطريقة التي بها نعمل ، ونتعلم ، ونشتري، ويتصل بها كل منا بالآخر، منوها إلى أن هذه الثورة المعلوماتية ستغير الطريقة التي نصنع بها خياراتنا فيما يتعلق بكل شيء في حياتنا [7]. في مقابل ذلك نجد " فرانك كليش" يشير إلى " أن ثورة الوسائط المعلوماتية آتية وفي جعبتها عجائب تخرج عن نطاق الحصر، فكما أذهلت السيارات والطائرات الأولى أجدادنا، وأدهشنا الراديو والتلفاز لدى ظهورهما، ستقلب ثورة الوسائط المعلوماتية حياتنا رأساً على عقب" . ويبين أن أعظم ثلاث قوى تكنولوجية على الساحة الآن : الحوسبة، والاتصالات، والوسائط الإعلامية الجديدة التي تكيف نفسها وتتواءم لتحقق صيغة ائتلافية جديدة فيما بينها تعرف باسم " التقارب التكنولوجي" .

ويوضح كليش أن ثورة الوسائط المعلوماتية تتحدانا على المستوى الشخصي، وأنها ستثير قضايا أخلاقية جديدة وتغير من أساليب حياتنا اليومية، كما ستغير من الأسلوب الذي يتفاعل به أطفالنا مع الآخرين. ويختم " أن التغير الذي ستحدثه ثورة الإنفوميديا سيكون بالعمق وقوة التأثير ذاتيهما اللذين أحدثهما اكتشاف المعادن الأولى، وتصنيع أول محرك بخاري، وظهور أول تلفزيون، وأول كمبيوتر. إن عصر الإنفوميديا سيكون عصرا جديدا للعجائب.. ثورة الوسائط المعلوماتية تطرق أبوابنا بالفعل، ولن تدع أمامنا سوى خيارات تشترك كلها في صعوبة واحدة. هي (النظرة المستقبلية) " [8] .

فالانترنت سيحل محل الإعلام التقليدي، حيث أن إقبال الأجيال الشابة على الإنترنيت هو إقبال كبير بشكل يفوق التقديرات. وهم يلجأون لهذه الوسيلة للقراءة والحوار، بل وللاطلاع على التلفزيون والسماع للإذاعات، بحيث أصبحت كل الوسائل مختزلة في جهاز واحد هو الحاسوب، بل التلفون المحمول، وأصبح الشاب يعيش بوجدانه في العالم الافتراضي الذي يجد نفسه فيه، ويشعر بحرية لا حدود لها في هذا العالم. وفي مقابل ذلك فإن وسائل الإعلام التقليدية التي لا تتجاهل ما يدور من أحاديث على الإنترنت، وتنقل أبرز ما يطرحه الشباب في مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من المواقع، هذه الوسائل ترسم لنفسها مستقبلا واعدا ومشرقا، وتحظى بالمصداقية بشكل كبير، وتتعايش مع التطور الذي يشهده عالم الاتصال، وتتكيف مع مضمون الوسائل الحديث[9].

الحديث عن ثورة الاتصال والمعلومات ينقلنا للتطرق إلى مستقبل الانترنت التي تمثل قلب هذه الثورة الاتصالية وتطورها . بداية؛ يرى عدد من خبراء الاتصال أن كل وسيلة اتصالية تمر بأربع مراحل قبل أن تستقر في المجتمع وتحظى بقبوله وشرعية وجوده، وصولاً إلى مدى استمراريتها وتحديد ماهية مستقبلها. فالمرحلة الأولى تتميز بإثارة اهتمام المجتمع بتلك الوسيلة، أي النظر إليها باعتبارها ـ لعبة ـ وسيلة تثير الإعجاب. وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة تعمق اهتمام المجتمع بتلك الوسيلة، وبداية توجيهه لبعض الانتقادات إليها ، والاستفسارات من نتائجها وتأثيراتها المتوقعة. أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة تجاوز تلك الوسيلة للانتقادات السابقة، بسبب التقدم الفني الذي يطرأ عليها ، واكتساب المجتمع معرفة أكثر عمقاً بها. وهذه المرحلة يمكن وصفها بأنها بداية الاعتراف بشرعية تلك الوسيلة. وبخصوص المرحلة الرابعة والأخيرة، فهي مرحلة الاعتراف بتلك الوسيلة، على الأقل لدى عدد كبير من الناس، حيث تنغمس تلك الوسيلة بالمجتمع وتصبح جزءاً من ثقافته العامة، لا يستغنون عنها ، وربما تصبح جزءاً أساسياً في المجتمع، لا يكون للثقافة فيه معنى في غيابها[10] .

وفي الوقت الذي تُصبح فيه هذه الوسيلة عاملاً ملازماً لوعي وسلوكيات الناس فإن الحديث عن مدى استمراريتها وضمان مستقبلها يطفو إلى سطح الألسنة سواء من قبل أصحاب السياسة والمال أو من قبل المتخصصين بها والمستخدمين لها أو المواطنين عموماً.

وبما أن حديثنا، هنا، هو مستقبل الانترنت فإننا سنعرج إلى آراء أهل الخبرة والاختصاص في ذلك. ففي الوقت الذي يرى فيه عدد من خبراء الاتصال والإعلام أن الانترنت بما يوفره من تقنيات متطورة وشبكات للتواصل الاجتماعي يحمل خصائص اتصالية فريدة قل أن نجدها مجتمعة في وسيلة اتصالية أخرى إلا أنه من الصعب الإجابة بشكلٍ دقيق على سؤال مستقبل الانترنت في الوقت المبكر من عمر هذه الوسائط. ومع ذلك يؤكد هؤلاء أن الخصائص الاتصالية الفريدة والإمكانيات التكنولوجية الهائلة التي تزخر بها الانترنت تجعل الميل إلى الاعتقاد " بتسيَد" هذه التقنية كبيرا[11].

ويعتقد هؤلاء الخبراء أن الخدمات والمعارف التي تقدمها الانترنت لمستخدميها، والإقبال المتزايد على استخدامها في كافة المجالات قد تجعلها تتفوق على وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى، ربما باستثناء التلفزيون، إلى الحد الذي قد تُصبح معه هذه الوسائل عاجزة في المستقبل عن محاكاته واللحاق به . وأكثر من

ذلك قد يكون بقاء هذه الوسائل واستمرارية وجودها مرهوناً بمدى قدرتها على مجاراته في تقديم الخدمات والمعارف والمعلومات والتقنيات المتطورة.

الإمكانيات التكنولوجية التي تمتاز بها الانترنت ليست وحدها هي التي تجعل هؤلاء المتخصصين التنبؤ بالمكانة المرموقة التي ستحظى بها الشبكة العنكبوتية في المستقبل، فهذه الإمكانيات لا تضمن في حد ذاتها تحولها (أي الانترنت) إلى نظام اتصال فريد في المستقبل؛ بل هناك عوامل أخرى غير ذلك تكمن في بنية المجتمع، خاصة الرأسمالي الذي خرج منه هذا الاختراع ... فالعلاقة بين النظام الاتصالي في أي مجتمع والأنظمة الأخرى فيه هي علاقة تبادلية واعتمادية . هذا الأمر يطرح سؤالاً هاماً هو : هل هناك ما يشير إلى أن الاتصال عبر الانترنت، من خلال (الكمبيوتر والتلفون[12])، مرشح في المستقبل في المجتمع الرأسمالي الغربي ليكون نظاماً اتصاليا رائداً؟.

إجابة الخبراء على هذا السؤال تتمثل في التأكيد على ذلك نظراً لأن النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لهذا المجتمع يقتضي الاعتماد على الانترنت، كما اعتمد على سابقيه من وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى في الترويج لمشاريعه الاقتصادية والسياسية والثقافية والترفيهية وغيرها، تلك المشاريع التي يقوم عليها النظام الرأسمالي برمته[13].

ما يعزز هذا الاعتقاد ويدعمه بأن الانترنت قد يشكل نظاما اتصاليا جماهيرياً من نوع خاص في المستقبل القريب، هو تلك المسلمات التي ترتكز إليها نظرية التفاعلية الرمزية (Symbolic Interactionism) ، إذ يرى التفاعليون الرمزيون، وبخاصةٍ ذوو التوجه التبادلي، بأن الأفراد في المجتمع إنما يلجأون إلى وسائل الاتصال الجماهيرية لتكوين معانٍ مشاركة للعالم الاجتماعي والمادي الذي يعيشون فيه من أجل مساعدتهم على فهمه، ومن أجل تسهيل تفاعلهم وتواصلهم اليومي فيه. وكلما زادت الأحداث المحيطة بهؤلاء الأفراد تعقيداً وغموضاً وتوتراً وتأزماً، بحيث يكون من الصعب عليهم الإلمام بجميع جوانب هذا الغموض والتوتر بجهودهم الذاتية، زاد اعتمادهم على هذه الوسائل من أجل توضيح هذا الغموض وإزالته، والتعامل مع تلك المخاطر والأزمات[14].

وإذا ما علمنا أن العالم الذي نعيش فيه الآن يكتنفه الكثير من الغموض والأزمات، التي ليس بمقدور الأفراد وحدهم حلها أو التعامل معها، لأدركنا حينها لماذا سيزيد اعتماد الأفراد على هذه الوسائل . السؤال هنا مرة أخرى: هل بمقدور الانترنت الاضطلاع بهذا الدور؟ . في الواقع، يمتلك الانترنت من المزايا والخصائص، ما يجعلنا ميالين إلى الاعتقاد بأنه مرشح هو والتلفزيون أكثر من غيرهما في السنوات القادمة للاضطلاع بذلك [15].

والى جانب عاملي التقنيات والمجتمع من حيث دورهما في "ضمان" المستقبل والديمومة للانترنت ووسائطها، هناك عامل ثالث مهم في هذا الخصوص ويتمثل في عامل الربح، حيث أن جزءاً كبيراً من إدارة هذا النظام يقوم على نفس الأسس والمبادئ التي قامت عليها أنظمة الاتصال الجماهيرية التي سبقته، وهو الربح المادي . فما دام دافع الربح يحظى بقدرٍ كبير من الأهمية في هذه المجتمعات، وما دام الانترنت يقوم بدورٍ فاعل في ذلك،

من خلال الإعلانات والبيانات التي يقدمها لشركات ومؤسسات عملاقة، ومن خلال صناعة الترفيه والتسلية التي تلقى قبولاً واستحساناً بين فئات كبيرة جداً من الناس، فإن شبكة الانترنت مرشحة لتصبح نظاماً اتصالياً جديداً يضاف إلى الأنظمة الاتصالية الأخرى، بل وتتجاوزها[16].

نستخلص مما سبق: إن الانترنت كوسيلة اتصال الكترونية تتفرد بمزايا وخصائص لا نجدها في وسيلة أخرى . فهي تدمج بشكلٍ تكاملي بين أكثر من وسيلة من وسائل الاتصال مما يجعل مستخدميها خاصة الشباب يُقبلون عليها بشكلٍ متزايد، ويعتمدون عليها في حياتهم اليومية بطريقةٍ لافتة للنظر. هذه الخصائص مجتمعة تؤهل شبكة الانترنت لأن تكون نظاماً اتصالياً فريداً في المستقبل، قد يتجاوز ويتفوق على جميع الوسائل الأخرى بسبب ما تقدمه من خدمات للمواطنين سيما في العالم الثالث الذين طالما تعطشوا إلى أكسجين الحرية والتعبير ليجدوه في مواقع الشبكة العنكبوتية وإن كان مصدر هذا الأكسجين العالم الافتراضي.

ثانياً: مستقبل الإعلام الجديد

لم تعد (السلطة الرابعة [17]) المتمثلة في الإعلام التقليدي بوسائله القديمة، قادرة على الصمود أمام اجتياح (**السلطة الخامسة**[18])، المتمثلة في مختلف المواقع الإعلامية المنتشرة عبر الشبكة العنكبوتية ، كـ " الفيسبوك" و " يوتيوب" و" توتير " والمدونات الشخصية " وغيرها. وقد ساد مفهوم السلطة الرابعة في القرنين التاسع عشر والعشرين بكونه مفهوماً رقابياً على السلطات الأخرى، لكنه أخذ يتلاشى مع ظهور الانترنت، الذي غير معالم الحياة، وأصبح القوة المسيطرة، وهو ما أجبر الصحافة على إجراء تغييرات هيكلية للبقاء والمنافسة[19] .

وفق هذا التصور يذهب البعض للتأكيد على إن الحاضر والمستقبل سيكونان تحت سيطرة السلطة الخامسة عبر المنافذ والمواقع الالكترونية الآنفة الذكر، وأن ميزان القوة قد تحول من حارس البوابة في الصحافة التقليدية إلى السلطة الخامسة المتمثلة في المواطنين، حيث اكتسبت شرعيتها من الواقع المعاش، ولم يعد للسلطة الرابعة ذلك الحضور الذي كان يُشهد لها في القرنين الماضيين[20].

وما يزيد من أهمية الإعلام الجديد مستقبلاً أن الجماهير لم تعد تقنع بالحصول على المعلومات والأخبار بالرجوع إلى مصدرٍ واحد وإنما ترجع إلى مصادرٍ متعددة ، بل والى كل ما هو متاح لها وهو ما يوفره الانترنت، وذلك حتى تتمكن من مقارنة المعلومات والأخبار للتأكد من صحتها وصدقها ، إلى جانب ما تتيحه الانترنت من فرصةٍ كبيرة لمناقشة ونقد ما تقدمه المصادر العديدة والرد عليها، وتبادل الآراء والأفكار حولها[21] .

وفي الوقت الذي عانى فيه المتلقي كثيراً من سطوة القابض على " محبس" الإرسال الإعلامي، فإن الجميع يأمل أن تحرر تكنولوجيا المعلومات المتلقي من قبضة مرسله. فمثلما تسعى هذه التكنولوجيا إلى تحرير القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من قبضة مصممه ، تسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصي على عملية التلقي، بحيث يكون للمتلقي الخيار في اختيار رسالته الإعلامية، سواء من حيث المحتوى أو الشكل أو وقت استقباله لها؛ فقارئ الجريدة سيكون بإمكانه أن يحدد موضوعاته المفضلة وشكل

إخراج جريدته ومواعيد صدورها، ومُشاهد التلفزيون سيكون بإمكانه أن يحدد البرامج التي يفضلها، والأوقات التي تناسبه لمشاهدتها؛ وذلك باستخدام ما يعرف بنظام " الفيديو تحت الطلب" .

إلى جانب ذلك؛ يتوقع الكثيرون أن ترك الخيار للمتلقي سيصل إلى حد أن تصبح لكل شخص ، في زمن ليس ببعيد، وكالة الأنباء الخاصة به؛ وذلك من خلال الوكيل الإعلامي الذكي الذي يمسح الانترنت طولا وعرضا ، ويستعرض قنوات التلفزيون ومحطات الإذاعة، ويطالع الصحف اليومية والمجلات الدورية ويتابع وكالات الأنباء؛ بحثا عما يلبي رغبات من ينوب عنه، ويتفق مع " بروفيله الإعلامي " . إن صناعة الإعلام تتحول ، تدريجياً ، من نمط الدفع بالمعلومات التي يريد المرسل أن يبثها، أو يدفع بها ، إلى مستقبله فارضا عليه توقيتات استقباله إياها، إلى نمط السحب الذي يعطي المتلقي حرية انتقائه، أو سحب، المعلومات التي يريدها وفي الوقت الذي يريد[22].

وفي هذا الجزء من المبحث نود التوجه صوب (الواقع العربي[23]) لنتعرف على مستقبل وسائط الإعلام الجديدة، مع التركيز، كما أسلفنا سابقا، على الفيسبوك لما له من أهمية كبيرة لدى عدد كبير من المواطنين ، خاصة شريحة الشباب.

على الرغم من جملة العوائق التي يشهدها العالم العربي مثل ضعف القراءة لدى الجمهور، والظروف الاقتصادية السيئة، واستثمار جهاز الكمبيوتر للترفيه، إلا أن هناك تناميا في عدد المستخدمين للفيسبوك بوصفه واحداً من أذرع السلطة الخامسة . ولا يوجد وصف جاهز أكثر انطباقا على الفيسبوك " في جانبه " الإعلامي" (إذا سلمنا جدلا بأنه يتوافر فعلا على هذا الجانب في أدنى تعريفاته ووظائفه ، أي نشر المعلومة وإيصالها إلى شريحة واسعة من المتلقين) من كونه " **سلاحا ذا حدين**" ؛ فمثلما أنه يستطيع، كوسيلة إعلامية جديدة " مالئة الدنيا وشاغلة الناس" ، أن يكون أداة مثلى للقفز على حواجز الإعلام الحكومي المتخشب، فإنه يستطيع أيضا أن يكون مرتعا خصبا للإشاعة والمعلومة المضللة، ومن ثم بث الوعي الموهوم . وما هو أبعد من ذلك هو أنه لا شي يمنع الحكومات، التي يُطرد إعلامييها من الباب، أن تعود من شباك " الفيسبوك " كي تروج لسياساتها بطرق شتى وغير مباشرة؛ إذ أن " الفيسبوك" فرض نفسه إعلاما بديلا يروج كما كبيرا من الأطروحات المتناقضة ؛ فالبعض يعتبره خير ما يستطيع القيام بدور هذا الإعلام المنشود، بينما ينفي البعض الآخر عنه كل إمكانية للقيام بذلك الدور[24].

وفي الإطار ذاته نجد من يرى أن من المبكر القول بتحول "الفيسبوك " إلى إعلام بديل في الوطن العربي ، وذلك بسبب ضعف القراءة وقلة مستخدمي الانترنت فيه مقارنة بوسائل الإعلام الأخرى، نتيجة العوز المادي الذي تعانيه فئات واسعة جدا من المجتمعات العربية . بيد أن آخرون يذهبون عكس ذلك ويقرون أن " الفيسبوك" ومعه الشبكات الاجتماعية الأخرى هو " سلطة خامسة "، ومؤهل لأن يكون بديلا عن الإعلام التقليدي ، رغم هبوط مستوى التخاطب بين مستخدميه من الشباب، إلى جانب أن بعض مساوئه ربما تلغى (مثل سيطرة الدول والحكومات عليه) ولكنه قد يعوضها بأخرى مثل غياب المسؤولية وقلة موثوقية الخبر[25] .

هذا التباين أو الجدل في مدى اعتبار وسائل الإعلام الجديدة، وفي مقدمتها " الفيسبوك " بديلاً عن الإعلام التقليدي يستوجب طرح سؤال مركزي تفرضه حالة العرب الذين يعيشون داخل عالم تحطمت فيه حدود

الزمان والمكان، وأزيلت فيه حواجز اللغة، عبر الترجمة الآلية التي تتيح فهم نسبة مهمة من نص لغة يجهلها القارئ ، وتيسرت فيه للفرد سبل الاتجاه رأسا إلى المجموعة الكونية بدل البقاء ضمن الجماعة الأصل . السؤال هو: كيف يمكن الحفاظ على هويتنا الثقافية في ظل الثورة المعلوماتية الهائلة وتحولاتها الفائقة؟ هل يجب اعتبار هذا التحول عنصرا يهدد هذه الثقافة بالتلاشي، ومن ثم ضرورة الاحتراز منه ومقاومته؟ أم يتعين النظر إليه، على العكس، بوصفه عاملا للإثراء وبالتالي ضرورة الابتهاج له والاستفادة منه لتطوير القواسم المشتركة بين المجتمعات العربية، من جهة، وبين الثقافة العربية عامة وباقي الثقافات البشرية من جهة ثانية؟.

للإجابة " المقاربة " على هذا السؤال يرى البعض أن هناك ثمة مؤشرات عديدة لبداية انخراط فعلي للعالم العربي في التحول الثقافي والإعلامي الجديد، ومن أبرزها:

1. انتشار ظاهرة الخصخصة، وما يترتب عنها من تخل للدولة عن مجموعة من وظائفها الحيوية، وبضمنها قطاعي الإعلام والاتصالات.
2. الالتزام بإعلان الألفية للأمم المتحدة الصادر عام 2000، والذي يجعل من أهداف الألفية الحالية للتنمية " وضع التكنولوجيات الجديدة ، وتكنولوجيات الإعلام والتواصل بالخصوص، في متناول الجميع".
3. ظهور فاعلين جدد في قطاع التربية والتعليم، هم عبارة عن شركات صناعية كبرى مثل أنتل Intel ، بمبادرتها التعليمية التي أوغلت في أكثر من 30 دولة من ضمنها بلدان المشرق والمغرب العربيين.
4. عمل الدول العربية على كهربة مجموع مناطقها الآهلة ووصلها بشبكة الانترنت في حدود عام 2015.

هذه المعطيات أو المؤشرات تُظهر أن العرب على عتبة إبدال جديد، قوامه الرقم والسوق. وفق ذلك تبزغ الصعوبة في التوازن بين الانخراط في عملية التغيير الراهنة التي تكتسي طابع الإكراه، لعوامل سياسية واقتصادية، داخلية وخارجية، مع ما تقتضيه من إعادة تحديد لوظائف الثقافة ومهامها وأدوات اشتغالها، وما يطرحه ذلك من خيارات جذرية، وبين التمسك بالتصور الحالي للثقافة، أي التشبث بالوسائط التقليدية، ومن ثم التصدي للتغييرات الجارية؟.

أمام هذا الطابع الإكراهي للتحولات الكبرى والسريعة التي يشهدها عالم اليوم، بات من اللازم على مجموع الدول العربية أن تبذل مجهودات أكبر على صعيد التربية والتعليم في أكثر من مجال، وباستخدام سائر الوسائط الحديثة ، بحيث تنكب العملية على إخراج الفئات الواسعة التي ظلت محرومة من القراءة والكتابة والتوظيف من دائرة الأمية التقليدية والفقر، وتربية الناشئة على حسن استغلال تقنيات الإعلام والاتصال، وجعل التربية على المواطنة وحب اللغة والثقافة العربية من العناصر الأساسية الحاضرة في التعليم بشتى مستوياته.

إن النداء بحضور الثقافة العربية في فضاء جديد لا يعني التخلي عن قيمنا لمصلحة أدوات هذا المجال وتقنياته ولا يعني تهميش هويتنا العربية وحضارتنا الإسلامية ولا يجيز طمس خصوصيتنا القومية بل نريد

لثقافتنا العربية في حضورها المتجدد عبر هذه الوسائط الحديثة أن تكون جسراً لكل هذه الخصوصيات التي لا تنفصل عن وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا. فلا مكان في عصر الانترنت لانغلاق ثقافي، وكما ترتبط هويتنا العربية بالماضي فهي ترتبط أيضا بالمستقبل، والمستقبل في عصر المعلومات رهن بقدرة مجتمعاتنا العربية على اللحاق بركب مجتمع المعرفة. ولا أمل في إقامة مجتمع معرفة عربي دون تكتل عربي يتخذ من الثقافة مدخلاً رئيسياً[26].

ونتيجة لكل ما ورد، يثبت للجميع أن وسائط الإعلام الجديدة وأهمها " الفيسبوك " تطرح على الحكومات العربية تحدياً كبيراً وغير مسبوق، وهو تحدي تطوير إعلامها وتخليصه من اللغة الخشبية، وإكسابه المزيد من المصداقية، وتخليصه من الدعاية الفجة لها، لأن بوجود بدائل مثل " الفيسبوك " لن تجد هذه الحكومات نفسها معزولة إعلاميا فحسب، بل هدفا أيضا لهجمات قد يصدر بعضها عن حسن نية وبدوافع وطنية، وقد يصدر بعضها الآخر عن سوء نية وعداوة لها ، ورغبة في زعزعة استقرارها، وبث الفرقة في مجتمعاتها التي تبدي ممانعة ضعيفة في وجه الشائعات.

ثالثاً: الإعلام الجديد: مخاطر كامنة وتساؤلات مفتوحة

لقد تنبأ آلفين توفلر وزوجته هايدي منذ عقد الثمانينيات من القرن المنصرم بظهور عصر المعلومات عن طريق الانترنت وذلك في كتابهما " الموجة الثالثة" وفيه يشرحان كيف أن الحضارة الصناعية الحديثة التي تقوم على الانصياع الاجتماعي والقوة الفيزيقية سوف تحل محلها ثقافة جديدة ترتكز على المعلومات وعلى تكنولوجيات تعتمد كلية على إبداعات العقل البشري لدى الأفراد، وأن التجول من العصر الصناعي إلى عصر المعلومات يمثل ثورة حقيقية بكل المعايير نظرا لما سوف يترتب على ذلك الانتقال من نتائج خطيرة. توفلر وزوجته رأيا أن سيطرة التكنولوجيا تحمل بين طياتها مقتضيات اجتماعية عميقة قد تؤدي إلى تمزيق المجتمع الإنساني[27] .

هذا الرأي الذي يلقى كثيراً من النقد والمعارضة حيناً ومن التأييد والتأكيد عليه أحياناً ينقلنا للحديث عن مدى المخاطر والمشكلات التي تسببها حالياً وفي المستقبل وسائط الإعلام الجديد. فعلى الرغم من الأدوار الايجابية التي تلعبها شبكات التواصل الاجتماعي في حياة المستخدمين الثقافية خاصة لدى الشباب منهم ، والحاجات النفسية التي أشبعتها لهم في مجالات متعددة، سيما في التعبير عن آراؤهم ومواقفهم وهمومهم وآمالهم، إلا أن هذا الوسائط أوجدت مشكلات نفسية واجتماعية وثقافية متباينة القوة والخطورة.

فالإعلام الجديد يواجه اليوم عدداً من المشاكل التي يبدو أنها سوف تتفاقم في المستقبل وتحد من فاعليته، بل وقد يترتب عليها بعض النتائج السلبية التي تتنافى مع رسالة الإعلام الأساسية وهي نشر المعرفة على أوسع نطاق وإتاحتها بغير قيود للراغبين فيها كخطوة أساسية للتقريب بين الشعوب والثقافات. وإحدى أهم هذه المشكلات هي الميل المتزايد للسيطرة على الإعلام وتوجيهه نحو أهداف ورغبات معينة، لتحقيق مصالح خاصة، عن طريق امتلاك وسائل الإعلام ، وتركيز هذه الملكية إما في أيدي عدد محدود من أصحاب رؤوس الأموال أو الشركات الكبرى لإحراز المكاسب المادية والقوة السياسية من خلال البرامج الموجهة، حتى في المجالات الترفيهية والثقافية . وإما في أيدي الدولة كما هو الشأن

في كثير من مجتمعات العالم الثالث، وتسخيرها من قبل النظام القائم بكل ما تقتضيه ذلك من تقييد لحرية الرأي والتدخل في حيادية الأخبار.

وقد تلجأ الدولة تحت ضغط بعض الأوضاع الداخلية أو الدولية إلى (خصخصة) وسائل الإعلام ، مع ما يحمل ذلك معه من مخاطر تحكم رأس المال في توجيه السياسة الإعلامية ، وتدعيم قوة الشركات الكبرى في مجالات الإنتاج الإعلامي الموجه ونشره وتوزيعه على مستوى العالم وبذلك تتحول الخصخصة إلى (احتكار) . والخطورة في هذا كله تتمثل في إمكان تزييف الحقائق، أو حتى إخفائها تبعاً لمصلحة الجهات المالكة، إذا كانت هذه الأخبار تتعارض مع مصالح تلك الهيئات أو الشركات.

وفق هذا السيناريو فالخوف هنا يتأتى من أن يُصبح الإعلام الجديد أداة لنقل وتوصيل رسائل مناوئة للثقافة الراقية والفكر المتفتح والمستنير والقيم الرفيعة ، وأن يوجه خطابه بدلاً من ذلك إلى معالأة الجماهير التي ينقصها الوعي الكافي بمشكلات العصر وانعكاساتها على المجتمعات التي تعيش فيها ،والتي يمكن أن تخضع بسهولة للتأثيرات السلبية لتلك البرامج الإعلامية الرافضة لكل القيم والمبادئ الإنسانية السامية.

هذه التطورات تثير الشكوك حول الدور الذي سوف يضطلع به الإعلام الجديد في عالم الغد. فالكثيرون يعتبرون هذا الإعلام مزيجاً من مضيعة الوقت وإهدار الموارد المالية، والدعوة إلى الانحلال الأخلاقي والاجتماعي بما ينشره من برامج وأخبار تتعلق بالجنس والعنف والعري والتهريب والإدمان، لجذب أكبر عدد من القراء أو المستمعين أو المشاهدين ، بكل ما يترتب على هذه البرامج والأخبار والصور والأحداث من آثار سلبية سوف تزداد ضراوة في المستقبل.

ولكن هناك على الجانب الآخر من يرى أن هذه المخاوف فيها كثيرٌ من المبالغة، وأن ليس ثمة ما يبررها ، إذ ليس من السهل أن يتنازل المجتمع الإنساني عن تراثه وقيمه الراسخة، وأن يتنكر لكل تاريخه الفكري والثقافي الطويل والعريق وأن الاتجاهات السطحية التي تسيطر الآن على السياسات الإعلامية هي مجرد نزعات أو نزوات عارضة لتحقيق اكبر قدر ممكن من الربح المادي للشركات الرأسمالية الكبرى التي تحرص على الاستئثار بأكبر مساحة ممكنة من عالم الإعلام الفسيح، وأن هذا كله أحد مظاهر العولمة التي لن تلبث أن تنحسر أمام صحوة الشعوب لاسترداد هويتها الثقافية، مما يتيح الفرصة لأن يسترد الإعلام حريته واستقلاله عن نفوذ أصحاب رؤوس الأموال وهيمنة الدولة . ولكن الأغلب هو أن تبقى كل هذه الصور المتناقضة جنباً إلى جنب، وأن يتقبلها كلها مجتمع الغد، الأكثر انفتاحاً وتسامحاً، بحيث نجد الآن من يطلق عليه اسم " مجتمع الإباحة " وليس الإباحية[28] .

وفي مقابل كل ذلك نجد من يذهب للتأكيد على أن استخدام الانترنت كوسيط إعلامي ينذر بظهور نوع جديد من الطبقية يمكن أن يُطلق عليها " **الطبقية الاتصالية** " . فكما هو معروف، تسعى الدول المتقدمة حاليا إلى إقامة شبكات الطرق السريعة للمعلومات، ذات السعة الهائلة لتدفق المعلومات، وهو ما سيسمح لمواطني هذه الدول بالتفاعل الدينامي ثنائي الاتجاه: أخذاً وعطاء، مع مواقع المعلومات المنتشرة عبر الانترنت . هذه الشبكات ستقسم العالم اتصاليا، إلى طبقة القادرين الذين ينعمون بمزايا هذا " التفاعل الايجابي" ، وما يعنيه ذلك من تنمية قدراتهم الذهنية وزيادة فاعليتهم وإنتاجيتهم، وطبقة المتلقين السلبيين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا استقبال ما تلقيه عليهم الشبكات عبر

الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال الأخرى أحادية الاتجاه، لترسخ بذلك النزعة السلبية وتضمر لديهم إرادة المشاركة في عملية التغيير الاجتماعي. ولا شك في أن طبقية الاتصال ستزداد مع ما نلحظه حاليا من انحسار مجانية الإعلام، مثلما آلت إليه الحال بالنسبة إلى مجانية التعليم، لينتهي الأمر بنا إلى إتاحة الخدمة الإعلامية ذات القيمة لمن يدفع، واقتصار دور الإعلام المجاني على خدمة الإعلان التجاري، أو التوجيه السياسي[29].

هذا من جانب، أما من الجانب الآخر فإن العديد من البحوث تبين جملة من المشكلات التي أخذت تلازم المستخدمين لشبكة الانترنت ومواقعها الاجتماعية، خاصة من قبل المدمنين عليها وفي غالبيتهم من الفتيان والشباب. وهنا نعرض، وبإيجاز، أبرز هذه المشكلات وهي[30]:

1. انتشار القلق والتوتر والإحباط الذي يلازم المدمنين على الانترنت إذا ما انقطعوا عن استخدام الشبكة.
2. تذمر اسر الشباب: هذا التذمر سببه انشغال الأبناء بمواقع الانترنت الاجتماعية، الأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى خلخلة علاقات الشباب الاجتماعية بعائلاتهم، سيما وأن هؤلاء المستخدمين يتذمرون من زيارات أقاربهم لهم، وينزعجون منها وينظرون إليها كعبء ثقيل يقطع عليهم اندماجهم وانهماكهم في عالمهم الافتراضي.
3. امتعاض بعض المستخدمين من خيبة الأمل العاطفية التي سببتها لهم انقطاع علاقاتهم العاطفية الالكترونية مع الجنس الآخر وفشلها.
4. كادت العلاقات العاطفية التي كونها المستخدمين العازبون والمتزوجون أن تعصف بعلاقاتهم الودية مع أسرهم وأزواجهم، حيث أن تلك العلاقة اعتراها نوع من التوتر والخلاف بسبب هذه العلاقات.
5. الاغتراب النفسي والاجتماعي للعديد من المستخدمين، حيث لم تعد ترى هذه النسبة من الشباب في مجتمعها سوى "التخلف" مقابل "التقدم" و"التحضر" في المجتمعات الافتراضية.
6. ولعل الاغتراب الثقافي لدى الشباب، والتماهي مع النموذج الغربي والانبهار "بتقدمه" و"تحضره"، هو من أهم الأهداف الكامنة والمبطنة التي تسعى العولمة الثقافية الرأسمالية إلى تحقيقها عبر الانترنت، باعتباره أحد أهم الرسل الجدد المبشرين بها للسيطرة على عقل "الآخر" بإشاعة أنماط ثقافية - حياتية جديدة سطحية المكونات والأبعاد على حد تعبير هيرمان وماكشزني.

مثل هذه المشكلات وغيرها التي تسببها شبكات الإعلام الجديد تطرح سؤالاً يتمثل في: هل نحن أمام أسباب أم نتائج؟ بمعنى آخر هل المشكلات النفسية والاجتماعية والثقافية التي كنا قد نسبناها للانترنت قد تسبب هو فعلا فيها؟ أم أن هذه المشكلات هي في الأصل مشكلات مجتمعية؟. إننا، في الواقع، لا نملك إجابة حاسمة وقطعية في هذا الخصوص. ومع ذلك، يمكننا التأكيد بأن العلاقة بين هذه المشكلات وبين الانترنت ليست علاقة سبب ونتيجة. إنها أعقد من ذلك بكثير؛ فالظواهر الاجتماعية والثقافية هي ظواهر معقدة ومتشابكة، ولا يكفي الاعتماد على عامل واحد في تفسيرها، أو النظر إليها من زاوية ضيقة، كزاوية الأثر والتأثير أو السبب والنتيجة. فمثل هذه الرؤية لا تساهم في تقديم تفسير دقيق للظاهرة أو للمشكلة الاجتماعية بقدر ما تخلق تشويشا وإرباكاً حولها.

هذه هي الأسئلة التي تحدد بواعث الشبكة العنكبوتية بما لها من أضرار قد تأخذ أشكالاً أوسع وأخطر مستقبلاً.

أما بشأن التساؤلات المتعلقة بالثورة المعلوماتية التي خرجت هذه الشبكة من رحمها فتتمثل في : هل التقدم المعلوماتي والتكنولوجي سيحقق قدرا من الرضا لدى الناس عما هو متوافر لهم الآن، أم أنه سيزيد من الشعور بالإحباط والتمرد على واقع الإنسان والمجتمع، وعما إذا كانت هناك فرصة لتوفير أساس صلب يمكن أن يقوم عليه تعاون حقيقي بين الدول المختلفة للمشاركة في نتائج وثمار هذه الثورة، أم أن العالم المتقدم سوف يتفرد بكل الفوائد دون العالم الثالث، وعما إذا كانت هذه الثورة تساعد على الاحتفاظ برأس المال الثقافي والفكري لدى كل الشعوب بغير تفرقة أم ستؤدي إلى القضاء على بعض الثقافات لصالح البعض الآخر ة وهكذا.

هذه كلها مجرد تساؤلات، ولكن حجم التغيرات التي سوف تحدث في المستقبل لا يزال موضع تكهنات . إلا أن المؤكد هو أن المجتمع العالمي يسير نحو التزايد والتكاثر والتوالد المعلوماتي خاصة أن التكلفة المادية للتقدم التكنولوجي المصاحب لهذه الثورة الهائلة في المعلومات تكلفة بسيطة جداً إذا قيست بحجم المعلومات وتنوعها والفوائد المترتبة على استخدامها في مختلف جوانب الحياة.

الهوامش

1 . نظراً لتزايد المعرفة وتكاثرها وتشعبها أدى إلى أن نصف ما نعرفه الآن لم يكن معروفا لنا منذ عشر سنوات فقط، وذلك لسهولة التحرك في مجالات متنوعة ومتباينة ، خاصة في ظل الثورة المعرفية والتكنولوجية التي تتولى الآن إعادة تشكيل العقل الإنساني وطرق تفكيره وتوسيع نطاق الاتصال والتواصل والتأثر والتأثير. انظر: أحمد أبو زيد ، الشبكات الاجتماعية: رقابة ناعمة، مصدر سابق، ص32

2 . يرى منظرو التنمية أنه يمكن للشعوب النامية استغلال " مجتمع المعلومات العالمي" لبناء نموذجها الخاص بـ " مجتمع المعرفة" خاصة في حال تم العمل على تجسيد منظومة اليونسكو التي تربط تطور مجتمع المعلومات تلازماً بالجوانب التكنولوجية. واتساقا مع هذا التوجه يصبح الهدف الرئيس للتنمية الثقافية هو رأب " الفجوة المعرفية " من منظور ثقافي، وهو ما يعني تربوياً : إتاحة فرص التعليم أمام الجميع، ولغويا: التصدي لتهميش اللغة العربية بفعل العولمة، وإبداعيا: إقامة بيئة مواتية لتنمية الإبداع، واجتماعيا : التصدي لمظاهر الاستبعاد الاجتماعي بفعل طيف الطبقات وليدة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وكذلك التصدي لانتهاك حقوق الإنسان الأساسية التي باتت تشمل حق النفاذ إلى مصادر المعرفة . انظر: نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر سابق،ص14.

3 . يوجد خطأ في فهم ثقافة الصورة . فالصورة مهمة بالفعل . لكن ستظل الكلمة من أهم مصادر التفكير . فإن كانت الصورة خير من ألف كلمة، فان الكلمة خير من ألف صورة. فمهارات التفكير والتحليل واتخاذ القرارات تتوقف على الكلمة، ولا تتوقف على الصورة. فالصورة مهمة، لكن لا بد من ربطها بمهارة القراءة، دون الاقتصار على الصورة وحدها. انظر: تعليقات الجزء الثاني من كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، مصدر سابق، ص91.

في هذا الإطار يكفي أن نشير إلى أن محرك الأبحاث الشهير "غوغل" يرجع بصفة دائمة ومستمرة إلى أربعة آلاف وخمسمائة مصدر من مصادر الأخبار، يستمد منها المعلومات التي يتولى نشرها لحظة تسلمها مع الإشارة طيلة الوقت إلى جميع المصادر التي أوردت تلك المعلومة وهو ما تعجز عن فعله وسائل الإعلام الأخرى . وفي أحد المؤتمرات الأخيرة ذكر مدير البحوث والتنمية في "ياهو" أن حجم الشبكة العامة يستوعب أربعين بليون صفحة وأنه يضاف إلى هذا العدد في كل لحظة عدة آلاف جديدة من الصفحات ... والطريف في الأمر هو أننا أصبحنا ننظر إلى هذا الوضع على أنه أمر مسلم به، ولا يستدعي الدهشة أو يستحق الإعجاب. للمزيد، انظر: أحمد أبو زيد، التكنولوجيا الرقمية والإعلام الجديد، مجلة العربي، العدد 577، كانون أول 2006، ص 142 ـ 147.

4 . المنطق الذي يحكم ثورة المعلومات هو ضرورة العمل على تيسير الحصول على المعلومات في أي مجال من أي مكان في العالم. وفي هذا الإطار يتفوق الكمبيوتر وبخاصة المتصل بشبكات الانترنت على كل وسائل الاتصال والإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، على الأقل لأنه يتيح للفرد حرية الانتقال بين مصادر المعلومات المختلفة والانتقاء منها دون رقيب، وذلك بعكس الوسائل الأخرى التي يتحكم فيها الآخرون، وتعبر عن وجهات نظر وسياسات مرسومة من قبل الدولة أو الهيئة التي تملك تلك الوسائل. أما بخصوص مجتمع المعلومات فهو يتطلب تداول الآراء والأفكار والمعرفة دون قيود على نطاق العالم كله، وهو ما يعني ضمنا حرية التفكير والتعبير عن الرأي وتوفير الإمكانات التي تساعد على ذلك، وإن كانت هناك بعض محاذير تتعلق بمحتوى ومضمون هذه المعلومات وإمكان استخدامها بطرقٍ وأساليب غير مشروعة. انظر: احمد أبو زيد، ثورة المعلومات ومجتمع المستقبل، مجلة العربي، العدد 539، تشرين أول 2003، ص23 20 ـ 24.

5 . المصدر نفسه، ص23.

6 . المصدر ذاته، ص24.

7 . بيل جتيس وآخرون، المعلوماتية بعد الانترنت " طريق المستقبل"، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، سلسلة كتب عدد 231، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1998، ص9.

8 . فرانك كليش، ثورة الانفوميديا " الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك "، ترجمة حسام الدين زكريا، عالم المعرفة، سلسلة عدد 253، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص19.

9 . فريد أبو ضهير، (أستاذ الإعلام في جامعة النجاح الوطنية ـ نابلس)، مقابلة شخصية، 2011/4/20.

10 . حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، مصدر سابق، ص31.

إن الإعلام اليوم ـ بوسائله المتعددة ـ لم يعد في العالم قوةً رابعة، بل هو قوة أولى، ترفده وسائط الاتصال بتقنياتها المتنوعة . وهو بذلك مؤثر في مختلف جوانب الحياة، بل صانع حياة ثقافية، شاء ذلك أم أبى، أحسن الصناعة أم أساء . كما أن الثقافة في عمومها اليوم قد أصبحت ثقافة إعلام واتصال، عبر الصورة والتلفاز، والحاسوب، والانترنت، ولم تعد ثقافة سماع أو ورق . على أن الوسائط الاتصالية المعاصرة تظل أدوات محايدة ، يمكنها أن تغدو ذات آثار جد ايجابية في مستقبل الثقافة العربية ، غير أنها يمكن أن تغدو ـ لسوء استعمالها ـ ذات آثار جد سلبية في مستقبل الثقافة العربية. للمزيد، انظر: عبد الله الفيفي ، مستقبل الثقافة العربية في ظل الوسائط الاتصالية الحديثة، مصدر سابق، 185.

11 . في الوقت الذي يرى فيه البعض أن الانترنت سوف تنمو من أسفل بعيداً عن توجيه الحكومات ، وهو ما كان يمثل عامل جذب حتى لنقادها، نجد آخرين

يرون عكس ذلك من أن أباطرة الاتصالات عن بعد يسعون إلى ممارسة سيطرة احتكارية ليس فقط على السلع المادية مثل الفحم والزيت والصلب والسكك الحديدية، بل أيضا على الوسائل الأساسية للقوة في حضارة تقوم على المعلومات. انظر: آسا بريغز، وبيتر بورك، التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتنبرغ إلى الانترنت، مصدر سابق، ص 394.

12 . هنالك تقنية متطورة في العالم تتيح لحامل التلفون المحمول استخدام الكثير من الوسائط الاتصالية والإعلامية عبره، ولكن السياسات الغربية، خاصة المتحكمة بصناعة التكنولوجيا الرقمية لا تريد توسيع هذه التقنية لأسباب لها علاقة بالأمن والعنف وغيرها . خالد حجة (خبير في تكنولوجيا الاتصال)، مقابلة شخصية، أريحا، 2011/5/1

13 . حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، مصدر سابق، ص32.

14 . في ظل الثورة الرقمية والاتصالية وفي قلبها الإعلام الجديد فان الرابط الاجتماعي يعرف حالياً تحولا أبرز سماته أنه صار :

يُنسج بعناصر أخرى تتمثل في وجود اهتمامات مشتركة (مال، ذوق، شغل معين).

لحظياً، حيث توارت التواريخ الفردية الخطية لفائدة الحكايات الإنسانية، داخل علاقات تقلص الزمان إلى مكان، حيث صار ما يهيمن هو هذا الـ " حاضر" الذي نعيشه مع أفراد آخرين في مكان محدد.

متعدداً، إذ أصبح الفرد قادراً على الانسلاخ من جماعته المحلية ليتجه رأسا إلى الجماعة الكونية ويختار ضمنها مجموعة، مجموعات للانتماء...، مما أفضى بالبعض إلى الحديث عن " عودة القبيلة" أو " القبيلة الجديدة" ، وعن " تشذر" للهوية، وعن " تسكع" لها، بل وحتى عن تعدد للانا وتشظيها، وهو ما يستدعي من علم كـ " التحليل النفسي" مراجعة تصنيفاته التي تدرج مثل هذه الظواهر ضمن فئة أمراض الذهان (انفصام الشخصية).

قابلاً للمتاجرة، إذ " لم يعد منطق النفاذ يخضع بتاتاً للمعايير التقليدية، وهي طقوس وعلاقات القرابة والأصل العرقي والدين والجنس، بل " صار" يخضع أساساً لمعيار " حقيبة النقود".

افتراضياً لا مادياً، وذلك بفعل حركة " الفرضنة" الواسعة التي تجتاح مختلف قطاعات الحياة ، جراء الثورة الرقمية ، متمثلة في النقل الحر في للعالم الواقعي وأنشطته إلى العالم الافتراضي (جسم الإنسان، المكتبات، الشغل، الاقتصاد، الخ) بتعبير آخر : " أنا متصل إذا أنا موجود ". هذه هي العملة الجديدة لنوع جديد من الإنسان لم يعد الأساسي عنده هو الاستقلال الشخصي بل تعددية العلاقات وتشابكها وإن كانت افتراضية. للمزيد، انظر: محمد أسليم، الرقمية ومستقبل الثقافة العربية، دراسة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، ج2، ص 128 . 140.

15 . يتنبأ البعض بمزيدٍ من الاقتراب بين الانترنت والتلفزيون في المستقبل القريب، لما لذلك من تضييق للفجوة بين التعليم في المدرسة والتعليم في المنزل، كما أن إتاحة الانترنت من خلال التلفزيون ستمنح للطبقات غير القادرة فرصة النفاذ إليها. كما يرى البعض أن تعدد الوسائط الإعلامية لن يؤدي إلى انقراض أي منها، بل سيعيد توزيع الأدوار فيما بينها، وعلى كل وسيط تقع مسؤولية البحث عن دورٍ جديد، وفي غابة إعلام عصر المعلومات، سيظل البقاء للأنسب والأجدى، وكل مهمة إعلامية ستختار وسيطها الأمثل . انظر: نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر سابق، ص 389.

16 . إن العالم المعزز بالتكنولوجيا سوف يؤثر على طريقة حياة البشر جميعا في أماكن عملهم، وفي بيوتهم، وحتى في الأسواق، وسوف يتحدد الرابحون، والخاسرون على الصعيد المؤسسي ، والشخصي، وفرص الذين يستثمرون الأموال في هذا القطاع سوف تكون كبيرة جداً، مثلما ستكون المخاطر لأولئك الذين لم يستثمروا، ولكي نحافظ حفاظ على بقائنا في انترنت المستقبل علينا أن نعمل على الاستحواذ على عقول، وقلوب المستهلكين، وإعادة ترتيب ميكانيكيات التوزيع من خلال توسيع الشبكة الاتصالية لأكبر عدد مكن من الناس. للمزيد : انظر : شاك مارتن، مستقبل الانترنت، ترجمة موسى يونس، بيت الأفكار الدولية، عمان، 1999، ص7.

17 . يُستخدم مصطلح " السلطة الرابعة " اليوم في سياق إبراز الدور المؤثر لوسائل الإعلام ليس في تعميم المعرفة والتوعية والتنوير فحسب، بل في تشكيل الرأي ، وتوجيه الرأي العام ، والإفصاح عن المعلومات، وخلق القضايا، وتمثيل الحكومة لدى الشعب، وتمثيل الشعب لدى الحكومة، وتمثيل الأمم لدى بعضها البعض . ومنذ أول ظهور له منتصف القرن التاسع عشر، استخدم المصطلح بكثافة انسجاما مع الطفرة التي رافقت الصحافة العالمية منذ ذاك ليستقر أخيرا على معناه الذي يشير بالذات إلى الصحافة وبالعموم إلى وسائل الاتصال الجماهيري كالإذاعة والتلفاز . ويدور الجدل حول أول من أطلق تعبير " السلطة الرابعة " ، إلا أن اتفاقا واسعا ينعقد حول دور المؤرخ الاسكتلندي توماس كارليل في إشهار المصطلح وذلك من خلال كتابه الأبطال وعبادة البطل (1841) حين أشار إلى أن المراسلين الصحافيين هم الحزب الرابع (السلطة الرابعة) الأكثر تأثيرا من كافة الأحزاب الأخرى. للمزيد، انظر: فاضل محمد البدراني، الأخلاقيات والإعلام، المستقبل العربي،بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد 385، السنة الثالثة والثلاثون، مارس 2011، ص50.

18 . أُطلق على آخر أجيال وسائل الإعلام المعاصرة في عصر الانترنت مثل الفيسبوك ؛ يوتيوب؛ توتير " السلطة الخامسة"؛ إذ لم يعُد للرقيب الإعلامي (التدخل الحكومي) أية سلطة على حظر نشر موادها لتكون في متناول المواطن أينما كان موقعه في العالم، وهي تسمية رافقت تسمية أخرى هي " الإعلام الجماهيري". انظر: المصدر السابق، ص62.

إلى جانب ذلك أصبحنا نسمع أوصافاً متعددة لشبكة الفيسبوك، فحيناً تُنعت "بالدولة الثالثة" نظراً لعدد مستخدميها الذي يتجاوز الـ 600 مليون مشترك، ولو كانت " الفيسبوك " دولة لكانت اكبر ثالث دولة في العالم ورئيسها أغنى شاب في العالم وهو مؤسسها مارك زوكربرج. كما وأحياناً توصف بـ "دولة الانترنت

الديمقراطية" لشفافية وحرية تداول مخرجاتها، وفي أحايين أخرى توسم بـ"الرقابة الناعمة" لدورها في كشف الفساد ومناهضة الاستبداد، فضلاً عن وصفها بـ "أم الشبكات" لأهميتها الفائقة وشهرتها الأوسع بين نظيراتها الأخرى. وأكثر من هذا نجد البعض من يعتقد أننا على أعتاب قارة جديدة يطلق عليها "جلوبلاند" ، تمثل المحيط المترامي للعالم الافتراضي وأشكاله وصوره المتعددة!. كما أن سكان هذه "القارة" لم يتم نسيانهم من الوصف، فالبعض وصف الشباب الذين يمثلون الشريحة الأكثر "استيطاناً" لهذه القارة بـ" جيل الفيسبوك" ، ذلك الجيل الذي يؤسس لبزوغ "عقل كوكبي" يعمل على "تغيير العالم". انظر: محمود الفطافطة، فلسطين وثوّار "الفيسبوك".. هل دنا حلم التحرير ؟، جريدة فلسطين، غزة، 2011/5/5.

19 . لعل ابرز العوارض التي أصابت الصحافة بفعل تمدد الانترنت تناقص أرقام التوزيع، وتضاؤل إيرادات الإعلانات، وتناقص القراء، كما هو الحال الذي تشهده حركة الصحافة في العالمين الغربي والشرقي. وتقييماً لهذا الوضع، لن يكون بمقدور سوق الصحف يتحمل أكثر من صحيفة واحدة بسبب تضاؤل أهميتها لدى القراء ، حيث أن هذه المتغيرات أفرزت ما يسمى الصحافة المدنية " التي تحاول الوصول إلى الجمهور بشكلٍ مكثف من خلال التقارير المختلفة، والنزول إلى القارئ، وتلبية طليات الجمهور . انظر: عبد الهادي بو طالب، سلطة الإعلام وعلاقتها بالسلطة السياسية، الشرق الأوسط،2002/3/27.

20 . علي بن شويل القرني، الإعلام التقليدي غير قادر على الصمود أمام السلطة الخامسة: http://www.samc.org.sa/en/readnews.aspx?id=13

21 . من خلال معالجة شبكات الإعلام الاجتماعي لقضايا كثيرة، صار " الإعلام الرقمي" أكثر من سلطة خامسة، بل أقوى تأثيرا من الصحافة نظرا إلى بساطة الكتابة والصورة والفيديو والصوت، التي تحولت كلها إلى عوامل للخروج بسلطة المواطن الصحافي، وهذه هي الفاعلية المطلوبة. هذا التطور حدا بالإعلام الجديد لأن يكون إعلاما مفتوحا للمناقشة والتوجيه من كل الأطراف المهنية، حتى وإن لم تنتسب إلى الصناعة الإعلامية.

22 . في ظل هذا التوجه، تكاد مؤسسات الإعلام، خاصة العاملة في تقنيات الإعلام الجديد أن تتحول إلى " مستودعات للمعلومات" تعمل بأسلوب اقرب ما يكون إلى أسلوب " البوفيه المفتوح" ينتقي منه المتلقي ما يحتاج إليه ويفضله. رغم الاهتمام الذي يلاقيه المتلقي في عصر وسائط الإعلام الجديدة إلا أن الخشية تكمن في أن يكون ذلك مجرد وهم بديمقراطية زائفة كفرع متقدم من وهم الديمقراطية السياسية الزائف، وذلك أن يقف توجه إعطاء الخيار للمتلقي عند حدود الالتزام التسويقي بمبدأ " المستهلك أولاً ". انظر: نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر سابق، ص367.

23 . من نافل القول التأكيد على أن فلسطين ترتبط بكثيرٍ من خصائص العرب الثقافية، لكن بشأن مستقبل وسائط الإعلام الجديد فإن ما تم ذكره بخصوص الحالة العربية ينطبق في جزءٍ كبير منه على المشهد الفلسطيني، وإن كان هذا المشهد يحمل جملة خصائص تتميز عن نطاقه العربي، يمكن إيجاز أهمها في الآتي:

بسبب خصوصية الحالة الفلسطينية فإن مواقع الشبكات الاجتماعية ستزداد أهمية من حيث النسبة والنوعية، سيما المتعلقة بالبعد السياسي لما لذلك من دورٍ في تعزيز واقع الفلسطينيين وتعريف العالم بقضيتهم وحقوقهم.

التشتت الفلسطيني القابع في منافي العالم أجمع سيساهم في تعزيز دور هذه الشبكات ومضاعفة توظيفها في التواصل والتفاعل بين الفلسطينيين، الأمر الذي سيقلل من قسوة الغربة ومرارة الغياب.

منسوب حرية الرأي والتعبير في فلسطين الأعلى مقارنة بمعظم الدول العربية سيعزز من أهمية هذه الشبكات في المستقبل المنظور.

الإقبال على استخدام مواقع التواصل الاجتماعي مرشحة للزيادة بشكلٍ كبير مع تحسن مستويات التعليم والدخل وانخفاض كلفة استخدام الانترنت ودخول منافسين ومزودي خدمة جدد لقطاع الانترنت، ودخول أجيال جديدة من أجهزة الاتصالات الخلوية وتحسن سرعة التحميل والتنزيل في الغالب.

24 . ليس كل مطبوع صحفي أو بث إذاعي أو فضائي أو حتى نص مقروء عبر الانترنت إعلاما يستهدف خدمة الإنسان والمجتمع وتنويره، ولا بد من تمييز ما هو أداة بيد السلطان الجائر مما هو وسيلة دفاع وممانعة بيد الناس ضد السلطان.

25 . فاضل محمد البدراني، الأخلاقيات والإعلام، مصدر سابق، ص 65

26 . جرب العرب النظرية الاشتراكية في الإعلام ونظرية المسؤولية الاجتماعية وحديثا أجمعوا بدولهم وأنظمتهم على الإعلام المهنوي كنظرية وإطار تطبيقي..رغم الملاحظات على النموذج المهنوي لكنه يكفل الحريات بحدها الأدنى .. المشكلة أن هذا النموذج يلفظ أنفاسه الأخيرة في عصر الانترنت.. اعتقد أن العرب بحاجة ماسة لتطوير نظرية وإطار معياري يوجه قوانينهم وأنظمتهم الإعلامية بما يتجاوب مع تراثهم وقيمهم وحاجاتهم. ويزيد التسارع في الابتكارات التكنولوجية في حقل الإعلام من كشف هذا الفراغ المعياري في حضارتنا، ويجعل من الرد والمواكبة حاجة ماسة. عبد الرحيم عبد الله (أستاذ مادة الانترنت في جامعة بيرزيت)، مقابلة شخصية، رام الله،2011/5/17.

27 . احمد أبو زيد، ثورة المعلومات ومجتمع المستقبل، مصدر سابق، ص23

28 . أحمد أبو زيد، التكنولوجيا الرقمية والإعلام الجديد، مصدر سابق، 147.

29 . نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر سابق، ص373.

30 . حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، مصدر سابق، ص229. 233 .

النتائج والتوصيات

النتائج

- هناك تحول عالمي في مصدر سقاية الوعي الجماعي يكمن في كون الفاعل التقني منافس قوي للفاعل الإنساني.
- عكست التحولات نفسها على المجتمع الفلسطيني الذي يعيش ضمن مجالين متوازيين هما: المجال الرمزي والمجال التاريخي الواقعي.
- الإعلام الجديد في نسخته الفلسطينية متشبع بأسس وصفات البنية الفلسطينية في علاقتها الداخلية وعلاقتها مع الاحتلال.
- هناك ضعف في الأدبيات الأكاديمية المتعلقة بنظريات التحول وعلاقتها بنظريات الوسائط الاتصالية في المشهد الفلسطيني.
- ساهم المجال التقني بتعزيز حرية التعبير وإعطائها متنفس وطريقة للنشر لكنه لم يبني ثقافة الاختلاف واحترام الرأي الآخر.
- هنالك ارتباك في الشارع الفلسطيني حول العلاقة بين تقنيات التواصل الاجتماعي وحرية التعبير رغم أن هناك نسبة كبيرة ترى أنه يعززها.
- الأحزاب والتنظيمات الاجتماعية والسياسية ما زالت هي سيدة الموقف وهي التي تتحكم من ناحية غير مباشرة بالحراك الالكتروني على المجال الافتراضي.
- هناك حالة من المفارقة بين الفعل على الأرض والفعل في العالم الافتراضي، وحتى الآن لم يستطع العالم الافتراضي تأسيس فعل مغاير على الأرض.
- تصبغ الانفعالية وحالات الاستقطاب السياسي والأمني والثقافي والرياضي مجمل مفردات ورموز التواصل الاجتماعي، الأمر الذي حد من قوة تأثيرها.
- إن الحداثة الصورية لم تستطع مقاومة رموز التقليد والعقلية المحافظة الفلسطينية والتي تتمثل في الدين والعائلة والحزب بشكل أدى إلى استفادة البنى التقليدية من منتجات الحداثة وتعزيز قوتها غير الحداثية.
- إن الجهد الفلسطيني استغل الإعلام الجديد لبناء رأي عام لكنه لم يستطع تجاوز طرق العمل التقليدية في الأداء الفلسطيني في كافة حقوله.
- لم تستطع منظمات المجتمع المدني خلق قاعدة جماهيرية كافية لتحقيق التوازن مع البنى التقليدية بشكل حد من قوة فاعلية التواصل الاجتماعي.
- شكلت مواقع التواصل الاجتماعي منطقة جذب شكلت عالما بديلا لمناطق الطرد مثل القمع، الفساد، الانقسام، والترفيه.

- هناك فروق جوهرية بين الواقع التاريخي والواقع الاتصالي بين فلسطين والدول العربية الأخرى، بحيث تصبح المقارنة البريئة عملا غير منهجي.
- هنالك رقابة مباشرة مرتبطة بالبنى التقليدية للمجتمع الفلسطيني على النشاط الاتصالي تصل إلى حد منعه بالقوة .
- مجموعة الخامس عشر من آذار الداعية لإنهاء الانقسام كانت العلامة الصارخة على تصارع السياسي والاتصالي والتاريخي، حيث التعامل المتناقض معها من خلال منعها بقوة في غزة ومحاولة احتوائها في الضفة، الأمر الذي شكل خيبة أمل في قوة الشبكات الاجتماعية في التغيير وفي حرية التعبير.
- الجهد الفلسطيني في الإعلام الجديد لم يستغل الشبكات العالمية الافتراضية لإعلاء صوت القضية الفلسطينية وخلق حالة من التضامن العالمي، لأن قسم كبير من الجهد استغل في الصراع الداخلي.
- ما زالت مبررات المنع موجودة في الحالة الفلسطينية، فقد تم حجب مواقع فلسطينية بمبررات إسرائيلية مثل حجب " الانتفاضة الفلسطينية الثالثة " .
- عكست اللغة مستوى من اللامركزية الثقافية والسياسية بشكل أعطى لهذه الشبكات انطباعا خدماتيا هامشياً على طريقة أن أزمة اللغة تعكس أزمة البنية الاجتماعية.
- لم يستفد الإعلام الرسمي الفلسطيني كثيراً من هامش الحرية في تلقي المعلومات الذي وفرته التقنيات الحديثة .
- هناك فوضى في تعريف الطبقة الاجتماعية الفلسطينية وكذلك الطبقة السياسية على مواقع التواصل ، وهي منسجمة مع الفوضى الواقعية .
- هنالك خطر على النسيج الاجتماعي الفلسطيني من الهوية البديلة التي تتشكل في العالم الافتراضي.
- شكل التواصل الاجتماعي حلاً مؤقتاً لحالة الاغتراب السياسي والاجتماعي في المشهد الفلسطيني ، ولكن هذا الحل ليس مضمون النتائج.
- شكل المجال الافتراضي ساحة أخرى لصراع الشخصيات السياسية والأمنية والاقتصادية على استحواذ الرأي العام الفلسطيني .

التوصيات

- على صناع القرار الفلسطيني العمل على بناء ثقافة الاختلاف وحرية التعبير، ضمانا لتحول ديمقراطي سليم.
- يمكن للمؤسسات التعليمية المختلفة توضيح الخلفيات النظرية والعلاقات السياسية والاجتماعية لشبكات التواصل الاجتماعي لخلق وعي في التعامل معها.
- على الأحزاب ومنظمات المجتمع الفلسطيني الكف عن نقل صراعاتها إلى المجال الافتراضي.
- حرية الرأي لا تعني حرية التشهير، فهي مرتبطة بثقافة الديمقراطية؛ لذلك على الفاعلين الفلسطينيين والتربويين تعزيز ثقافة الاختلاف ومفاهيم الديمقراطية.
- يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن تكون عاملا مساعدا في خلق تعاطف هائل مع القضية الفلسطينية.
- من المتوقع أن يستفيد الإعلام الرسمي في أن يكون أكثر شفافية في بث المعلومات لأنه لم يعد المصدر الوحيد.
- على المؤسسات الإدارية الاستفادة من تقنيات الإعلام الجديد لتوفير الوقت والجهد.
- على المنظمات والمؤسسات والأحزاب الفلسطينية واجب إعطاء الحرية لأفرادها في الوصول إلى المعلومة وحق الحوار لان ذلك الضمان الوحيد لعدم حصول ثورة مضادة قد تكون غير منظمة ومدمرة في الواقع الفلسطيني.
- يجب الوصول إلى ميثاق شرف يعزز المسؤولية الاجتماعية ويفرق بين الحملة الصحفية والخبر الصحفي والمعلومة الصحفية.
- إن سرعة تدفق المعلومات تعني ضيق مساحة التحقق بشكل يجعل من الصحافي والناشر المسؤول أخلاقيا أمام ما يبث من معلومات.

المراجع

قائمة الكتب

- آسا بريغز، وبيتر بورك، التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتنبرغ إلى الانترنت، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2005
- أسماء غنايم، الفجوة الرقمية : استخدام الانترنت في المجتمع العربي في إسرائيل ، مجلة أكاديمية ألقاسمي، عدد 11، باقة الغربية، 2007
- إسماعيل الناشف، العتبة في فتح الابتسيم، مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، 2010
- ألبير بابيه، تاريخ الفكر الحر، ترجمة عاطف علبي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1996
- الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، شبكة اجتماعية واحدة ذات رسالة متمردة:الانترنت في العالم العربي، الشبكة العربية، 2009
- اولجا بيلي، وآخرون، فهم العلام البديل، ترجمة علا إصلاح، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2009
- الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد 3، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1997
- الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب" بيالارا ، "السياحة العشوائية عبر الانترنت : دراسة في تفاعل الشباب الفلسطيني على الحيز العام الافتراضي،رام الله،ط1، 2010
- انتصار عبد الرزاق وصفد الساموك، الإعلام الجديد : تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، 2011
- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، سلسلة كتب عالم المعرفة، 244، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999
- بيل جتيس وآخرون، المعلوماتية بعد الانترنت " طريق المستقبل"، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، سلسلة كتب عدد 231، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1998
- بيير بورديو وج.د. فاكونت، أسئلة علم الاجتماع: في علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1992
- بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان، دمشق، 2006
- بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سليمان قعراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009
- جان بودريار، الفكر الجذري: أطروحة موت الواقع، ترجمة منير الحجوجي واحمد القصوار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006

- جان بودريار، المصطنع والاصطناع ، ترجمة جوزيف عبد الله، مراجعة سعود المولى، منظمة الترجمة العربية، بيروت، ط1، 2008
- جان فيري، فلسفة التواصل، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006
- حسين عبد الجبار، اتجاهات الإعلام الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2008
- حلمي خضر ساري، ثقافة الانترنت: دراسة في التواصل الاجتماعي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، بيروت، 2005
- ديفيد غلوفر، وكورا كابلان، الجنوسة، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية،2008
- رجاء دويدري،المنهج العلمي،أساسياته النظرية وممارساته العملية، ط1،دار الفكر ،دمشق،2000
- ريجيس دوبريه، حياة الصورة وموتها، ترجمة فريد الزاهي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002
- سعود صالح، الإعلام القديم والإعلام الجديد، مكتبة الشروق، جدة، 2003
- شاك مارتن، مستقبل الانترنت، ترجمة موسى يونس، بيت الأفكار الدولية، عمان، 1999
- صالح أبو أصبع ،الاتصال الجماهيري، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، 2009
- صالح أبو أصبع ، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، جامعة فيلادلفيا، عمان، 2010
- صباح ياسين، الإعلام: حرية في انهيار، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2010
- عاطف عدلي العبد، تصميم وتنفيذ استطلاعات وبحوث الإعلام والرأي العام: الأسس النظرية والنماذج التطبيقية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2003
- عباس مصطفى صادق، الإعلام الجديد: المفاهيم والوسائل والتطبيقات، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008
- عبد الباسط محمد، استخدامات تكنولوجيا الاتصال في الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني، المكتب الجامعي الحديث، اليمن، 2005
- عبد الملك الدناني، الوظيفة الإعلامية لشبكة الانترنت، دار الراتب الجامعية، بيروت، ط1،2001
- فارس جميل أبو خليل، وسائط الإعلام بين الكبت وحرية التعبير، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2010
- فرانك كليش، ثورة الانفوميديا " الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك "، ترجمة حسام الدين زكريا، عالم المعرفة، سلسلة عدد 253، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000
- فرنسيس بال،الميديا، ترجمة فؤاد شاهين، دار الكتاب الجديدة المتحدة،بيروت،2005
- فضيل دليو ، التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال،دار الثقافة للنشر والتوزيع،عمان، 2010
- فيصل أبو عيشة، الإعلام الالكتروني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009
- لنى التكروري، دليل الوسائط الإعلامية المتعددة واستخداماتها في إعداد القصة الصحافية، مركز تطوير الإعلام - جامعة بيرزيت، 2010
- مؤيد عبد الجبار الحديثي، العولمة الإعلامية،الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،2002،ط1
- محمد أبو الرب، الجزيرة وقطر: خطابات السياسة وسياسات الخطاب، تقديم وليد الشرفا، أبو غوش للنشر والتوزيع، رام الله،2010

- محمد أبو عامود، الإعلام والسياسة في عالم جديد، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2008
- محمد الأشهب، الفلسفة والسياسة عند هابرماس: جدل الحداثة والمشروعية والتواصل في فضاء الديمقراطية، منشورات مؤسسة دفاتر سياسية، الرباط،2006
- محمد بن عبد العزيز الحيزان، البحوث الإعلامية، أسسها، أساليبها، مجالاتها، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1998
- محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008
- محمد عبد الحميد، المدونات: الإعلام البديل، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2009
- محمد علي رحومة، علم الاجتماع الآلي، سلسلة كتب عالم المعرفة عدد 347، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008
- محمد نور الدين إفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، الرباط، 1998
- محمود الفطافطة، تأثير الانتهاكات على الرقابة الذاتية لدى الإعلاميين الفلسطينيين، المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية " مدى"، رام الله، 2010
- ملفين ديفلير،نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت
- نادر وهبة، الانترنت في التعليم والتعلم، مؤسسة عبد المحسن القطان، رام الله، 2003
- ناصيف نصار، باب الحرية : انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة، بيروت، 2003
- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001
- نعيمان عثمان، بؤس الصحافة ومجد الصحافيين، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009
- يحيى اليحياوي، العرب وشبكات المعرفة دراسة في الموقع والواقع، دار الطليعة بيروت ط1، 2007
- يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـ " إيديولوجيا" ، ترجمة حسن صقر،ط1، منشورات الجمل، ألمانيا، 2003

المراجع الانجليزية

1. Arther Asa Berger. "Media Research Techniques", (London sage Publication 1994 P.85 – 119.
2. Berelson, Bernard(1952). Content Analysis in Connunication Research.Glencoe, Illinois: The Free Press Publishers.p,18
3. Pacey,A: The culture of technology, Cambridge Mass, The MIT Press PewInternet& American Life Project, 1994,p25.
4. Dimaggio. p.(2001) "Social Implications of the Internet". Annual Review of Sociology, Annual , p 307.

5. Thomas R. Lindlof, (1995) Qualitative Communication R esearch Methods, Current Communication :v3(Thousand. Oaks, CA: Sage Publications, p.54.
6. Richard Fulkerson," Deliberate Conflict: Argument, Political Theory, and Composition Classes," Rhetorit Society Quarterly, Winter 2005,p,2,
7. Heather Savingy (2002) Puplic Opinion, Political Communication and the Internet , Politics.p. 6 .
8. Mark Poster,"postmodern Virtualities," in: Berger,ed,The Postmodern Presence: Readings on Postmodernism in American Culture and Society,pp.254-273.
9. Michael pusey,jurgen Habermas(key Sociologists),Taylor&francis e-Library,2003,p98.

رسائل ماجستير

- أمين أبو وردة، أثر المواقع الإلكترونية الإخبارية الفلسطينية على التوجه والانتماء السياسي -طلبة جامعة النجاح الوطنية نموذجًا- (2000-2007)" (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، 2008
- خالد معالي، اثر الصحافة الالكترونية على التنمية السياسية في فلسطين " الضفة الغربية وقطاع غزة"، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، نابلس، 2008
- سعيد أبو معلا، معالجة المواقع الإلكترونية الفلسطينية للأزمات الداخلية - دراسة تحليلية مقارنة بالتطبيق على الأزمة الداخلية بعد الانتخابات التشريعية 2006م"(رسالة ماجستير غير منشورة)،معهد البحوث التابع للجامعة العربية، القاهرة
- محمود خلوف، استخدامات الصفوة الفلسطينية للصحافة الالكترونية لمتابعة الأحداث الجارية والاشباعات المتحققة (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة القاهرة، 2006

الدراسات

- إبراهيم فرغلي ،المدونات الفلسطينية : "باب الشمس" ،مجلة العربي، الكويت، عدد 606، 2009
- إبراهيم فرغلي، الفيسبوك العربي .. من الثورة إلى الرقابة الشعبية، مجلة العربي، عدد 630، مايو 2011
- احمد أبو زيد، ثورة المعلومات ومجتمع المستقبل، مجلة العربي، العدد 539، تشرين أول 2003
- احمد أبو زيد، عصر المشاركة، مجلة العربي، عدد 613، ديسمبر 2009
- أحمد أبو زيد، التكنولوجيا الرقمية والإعلام الجديد، مجلة العربي، عدد 577، كانون أول 2006
- أحمد أبو زيد، الشبكات الاجتماعية: رقابة ناعمة، مجلة العربي، الكويت، عدد 627، 2011
- اشرف منصور، صنمية الصورة : نظرية بودريار في الواقع الفائق، مجلة فصول، عدد 62،القاهرة، 2003

- السيد يسين، النقد الثقافي العربي في الفضاء ألمعلوماتي المدونات المصرية نموذجا، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1،2010
- بن سالم حميش، تعليقات الجلسة الثامنة : حضور الثقافة في الوسائط الحديثة: رؤية مستقبلية، كتاب: كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010
- حسين أمين، الإعلام الجديد والحيز العام في العالم العربي، دراسة في كتاب: إيندكس " مرصد حرية التعبير" ، لندن، 2004
- خليل شاهين، لحراك الشعبي الفلسطيني: عين على التغيير واخرى على مقاومة الاحتلال، مجلة الدراسشات الفلسطينية، بيروت، العدد 86، ربيع 2011
- رشا عبد الله، مواقع الشبكات الاجتماعية الالكترونية بين الخصوصية والحرية، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، وزارة الإعلام، مجلة العربي، الكويت، ج1، 2010
- ريجيس دوبريه، الميديولوجيا الوسائطية وحقها بالاستقلال ، مجلة الفكر العربي المعاصر.
- سليمان العسكري، الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة: سياق نحو المستقبل، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010
- سميح محسن، مفاهيم فلسطينية ملتبسة لحرية الرأي والتعبير، فصلية الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان،عدد 41 ، تشرين الثاني، 2011
- شيرين أبو النجا ، من الهمس إلى العلن : الانترنت مجال ثقافي مواز، منشورة في كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010
- صلاح الدين الجورشي ، الشباب العربي والانترنت: هروب من " السياسة " أم محاولة لإعادة إنتاجها، مجلة شؤون عربية، القاهرة، عدد 132، 2007
- عبد الغني سلامه، النظام العربي الجديد بعد ثورتي تونس ومصر، مجلة تسامح، عدد 32، السنة التاسعة، نيسان 2011
- عبد الله بن خميس الكندي ، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة ، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1: 2010
- محمد أسليم، الرقمية ومستقبل الثقافة العربية، منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، ج2: 2010
- محمد فوزي الجبر، الثقافة العربية وثورة المعلومات: قراءة نقدية، شؤون عربية، عدد 121
- محمود الفطافطة، الرقابة الذاتية في الصحافة الفلسطينية : عوامل التكوين وأدوات التفكيك، تسامح، عدد 32، السنة التاسعة، 2011. محمود علم الدين، ثورة المعلومات ووسائل الاتصال: التأثيرات السياسية لتكنولوجيا الاتصال: دراسة وصفية ، السياسة الدولية، عدد 123، 1996
- محمود عفيفي، الإنترنت الشبكة البينية العالمية للمعلومات"، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، (لندن: إبريل، العدد2 السنة 17، 1997

- منى أباظة، حركات احتجاج غير مسيسة: انعطاف جديد في الثقافة العامة في مصر، دراسة في كتاب : حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2010
- نبيل علي، محورية الثقافة في مجتمع المعرفة، في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، كتاب العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ج1، 2010
- عبد الله الفيفي، مستقبل الثقافة العربية في ظل الوسائط الاتصالية الحديثة، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010
- صالح مشارقة، المرأة في الفيسبوك : علاقات سلعية ورقابات غامضة وتفاعل بلا فاعلية، دراسة غير منشورة قدمت إلى معهد دراسات المرأة - جامعة بيرزيت كمتطلب أكاديمي، 2011
- عزيز كايد، الإعلام الالكتروني لحركة فتح والانقسام الفلسطيني، دراسة في كتاب: الإعلام الفلسطيني والانقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين، مواطن، رام الله، 2011
- عماد الأصفر، الإعلام الالكتروني لحركة حماس والانقسام الفلسطيني، دراسة في كتاب: الإعلام الفلسطيني والانقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين، مواطن، رام الله، 2011
- سليمان العسكري، صورة عصر، مجلة العربي، العدد 629، ابريل 2011
- عبد الله الفيفي، مستقبل الثقافة العربية في ظل الوسائط الاتصالية الحديثة: كتاب الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج2: 2010
- عبد الله بن خميس الكندي، وسائل الإعلام الجديدة وانحسار فعل الرقابة، دراسة منشورة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة،ج1، 2010
- فاضل محمد البدراني، الأخلاقيات والإعلام، المستقبل العربي،بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد 385، السنة الثالثة والثلاثون، مارس 2011
- محمد أسليم، الرقمية ومستقبل الثقافة العربية، دراسة في كتاب: الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، 2010
- محمود الحشاش، حرية الإعلام بين التعزيز والقمع، فصلية الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان، عدد 41 ، تشرين الثاني، 2011

الصحف

- أنس أبو رحمة ،الفيسبوكيون الصغار، جريدة نوافذ، عدد صفر، رام الله، تشرين الثاني 2010.
- حسام عز الدين، "فيروس الانقسام" يتسلل نحو مجموعات الفيسبوك الشبابية، جريدة الأيام،2011/2/28.
- حسام عز الدين، الحراك الشبابي يبحث سبل الضغط لإنجاح مسار المصالحة، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011

- جريدة الحياة، لندن، 2009/4/12
- خالد ربايعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، جريدة القدس ، القدس، عدد 14942، 2011/3/21
- خالد وليد محمود في مقاله (شباب الفيسبوك.. طوفان لن يتوقف، جريدة فلسطين، غزة، الخميس، 24 /2، 2011.
- ساغي بن نون،غزة "تتنفس" عبر "الانترنت" ، جريدة الأيام ،نقلا عن "معاريف" ،عدد 5442، 2011/3/9
- سامي بن غربية، الحراك الالكتروني العربي: مواجهة القمع ومخاطر الاختراق، جريدة " وصلة، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، القاهرة، العدد11، يناير 2011
- عبد الهادي بو طالب، سلطة الإعلام وعلاقتها بالسلطة السياسية، الشرق الأوسط،2002/3/27.
- فايز أبو عون، اتفاق المصالحة يضع مسار الحراك الشبابي أمام تحديات جديدة، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011
- محمد حربية ، الـ" فيسبوك ".. دولة الانترنت الديمقراطية، جريدة الأيام الفلسطينية، مقلاً عن " المصري اليوم"، عدد 5418، 2011/2/13.
- محمود الفطافطة، إسرائيل حذفت صفحة "الانتفاضة الثالثة" فانبثقت عنها "صفحات".. فلسطين وثوّار " الفيسبوك".. هل دنا حلم التحرير ، جريدة فلسطين، غزة، 2011/5/5
- نائلة خليل، حراك شبابي يخضع لأسر العالم الافتراضي، آفاق برلمانية، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 15، 18 أيار 2011، ص14.
- نجاة البكري،الفيسبوك ومطامحنا، ملحق صوت النساء، الصادر عن طاقم شؤون المرأة، عدد327، 27/1/ 2011
- يوسف الشايب، شباب الـ " فيسبوك " يقودون الآلاف في مسيرة رام الله ، جريدة الأيام الفلسطينية، عدد 16،2011/3/5449.

مواقع الكترونية

http://ar.wikipedia.org/wiki/
http://www.aitnews.com/news/12281.html
http://freedomofexpressionunderfire.org/226
http://arabia.reporters-sans-frontieres.org/article.php3?id_article=31876.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=145797
http://www.al-ayyam.ps/znews/site/default.aspx?Date=31/2008
http://www.aljazeeratalk.net/forum/archive/index.php/t-48203.html

http://www.alwatanvoice.com/arabic/content/print/151357.html
http://www.dw-world.de/dw/article/0,,1681786,00.html
http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=356703
http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=111762&pg=10
http://www.pcbs.gov.ps/DesktopDefault.aspx?tabID=1&lang=ar-jo
http://www.pcbs.gov.ps/DesktopDefault.aspx?tabID=1&lang=ar-jo
http://www.pcpo.ps/
http://digital.argaam.com/?p=18091
http://www.pcpo.ps/
http://www.alwatanvoice.com/arabic/content/print/151357.html
http://www.pcbs.gov.ps/DesktopDefault.aspx?tabID=1&lang=ar-jo
http://www.discover-syria.com/news/2088
http://www.aitnews.com/
http://www.ekateb.net/bookcont/ch4_16.html
http://www.alquds.com/node/80012
uqu.edu.sa/page/ar/145297
http://www.samc.org.sa/en/readnews.aspx?id=13
http://shmoos.yoo7.com/t2607-topic
http://www.amin.org/articles.php?t=opinion&id=13836
ccisdb.ksu.edu.sa/files/rep1810000.doc
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EB218269-F269-4B15-A1D2
http://www.albayan.ae/opinions/articles/2011-02-01-1.1096701
:arab mediastudies,net,26/12/2007
http://www.daralhayat.com/science_tech/08-2008/Article-20080828-0a4fcb2a-c0a8-10ed-01bf-ee334c260cc3/story.html
http://shebaka.blogspot.com/2008/12/blog-post.html
http://www.alriyadh.com/2009/07/02/article441825.html
http://qawaneen.blogspot.com/2010/06/blog-post_5199.html
: http://www.tech-wd.com/wd/2010/11/13/the-state-of-the-internet/
http://www.ifex.org/international/2011/03/15/cyber_censure/ar/15
07/04/2011 http://www.hekmah.org/portal/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-
. http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=126438&pg=2
http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-50-12737.htm
http://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=696680&page=2
http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2009/04/15/137014.html

المقابلات شخصية

- بثينة حمدان(إعلامية وباحثة)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/3/23.
- توفيق العيسى، (ناشط اجتماعي وصحافي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/20
- حسن دنديس(صحافي مستقل)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/5/4
- خالد حجة (خبير في تكنولوجيا الاتصال)، مقابلة شخصية، أريحا، 2011/5/1
- خالد رباعة (خبير في أبحاث المعلوماتية)، خالد رباعة، هل أصبح الانترنت بطلاً من أبطال حركات التحرر؟، مصدر سابق.
- سميح محسن(شاعر وباحث حقوقي) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/14
- سمير حجازي (الناطق باسم ائتلاف شباب فلسطين) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/8
- صالح مشارقة(صحافي وباحث)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/2.
- عبد الرحيم عبد الله (أستاذ صحافة الانترنت في جامعة بيرزيت) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/26.
- عبد الرحيم عبد الله، مصدر سابق.
- عبد الناصر النجار (نقيب الصحافيين الفلسطينيين وأستاذ في الإعلام بجامعة بيرزيت)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/2/10.
- عدنان الشعراوي (ناشط شبابي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/4.
- عوض عوض (رئيس المجلس الإداري لنقابة الصحافيين الفلسطينيين)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/4/23
- فارس سباعنة (شاعر وناشط الكتروني) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/7
- فارس محمود (دكتوراه في الهندسة الالكترونية والشبكات المعلوماتية) مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ 2011/5/15
- فريد أبو ضهير، (أستاذ الإعلام في جامعة النجاح الوطنية ـ نابلس)، مقابلة شخصية، 2011/4/20.
- محمد أبو علان (مدون وناشط اجتماعي) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/8
- منتصر حمدان(صحافي في جريدة الحياة الجديدة)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/2/11.
- نائلة خليل(جريدة الأيام)، مقابلة شخصية، رام الله، بتاريخ، 2011/4/28
- نبهان خريشة (خبير في صحافة الانترنت) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/13
- وليد الشرفا (أستاذ الإعلام في جامعة بيرزيت) ، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/4/2.
- وليد بطراوي(صحافي والباحث في قضايا الإعلام) مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/19
- يوسف الشايب(صحافي في جريدة الأيام)، مقابلة شخصية، رام الله، 2011/5/7.

ملخص

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة علاقة الإعلام الجديد بحرية الرأي والتعبير في فلسطين مع التركيز على موقع التواصل الاجتماعي " الفيسبوك " لما له من أهمية من حيث الإقبال عليه وأثره في تجسيد مثل هذه الحرية سواء أكان ذلك في العالم الافتراضي أو في العالم الواقعي.

وقدمت الدراسة قراءة نقدية في مفهوم الإعلام الجديد، بصفته انعكاسا لحراك اجتماعي يختزل مناطق الطرد في المجتمعات العربية: القمع، الكبت، الجنس، وبالتالي تعويض ذلك على الفضاء الافتراضي والمجال العام، حيث الحرية والمتعة وحرية التعبير دون ثمن من خلال عمليات التقنع والتلصص.

وسعت الدراسة إلى تفكيك العلاقة بين الإعلام الجديد ومفرداته المرتبطة بالمجال العام والمجال الافتراضي وحتى الرأي العام وعلاقة ذلك بالبنية الاجتماعية وبالتحول الاجتماعي وكيف يمكن أن يؤثر ويشكل أحدهما الآخر؟ . كما وحاولت الدراسة رصد العلاقة بين التطور الكوني الهائل في ثورة المعلومات والاتصالات ومدى تأثير كل ذلك على الواقع الفلسطيني بما له من خصوصيات وما يعيشه من تحولات أحيانا هادئة وأخرى سريعة ومفاجئة؟.

إلى جانب ذلك؛ فإن الدراسة سعت إلى تفكيك المناطق غير الواضحة بين التحول الاجتماعي والتواصل الاجتماعي وحرية الرأي وثقافة الديمقراطية وما هي ممكنات مساهمة التكنولوجيا الحديثة في تعزيز الشفافية والتكافؤ في الوصول إلى المعلومة.

وعمدت الدراسة إلى رصد واقع حرية الرأي والتعبير في فلسطين ومدى التبادل والاستفادة التي من الممكن أن يوفرها المجال الاتصالي الجديد للحركات الاجتماعية الفلسطينية في تنظيم ذاتها والتعبير عن أحلامها في قضايا كبرى أهمها الاحتلال وليس آخرها الانقسام. وقامت الدراسة بقراءة متأنية لعينة من المجموعات الفلسطينية على صفحة الفيسبوك لمعرفة مدى انعكاس مفرداتها ومضامينها وحتى أشكالها على الحالة الفلسطينية في مواضيع مهمة وساخنة مثل الانقسام والمطالبة بحرية التعبير والشفافية؟ .

إضافة إلى ذلك تضمنت الدراسة استطلاع عشوائي هدفه الكشف عن الهاجس العام الفلسطيني تجاه علاقة حرية التعبير بشبكات التواصل الاجتماعي. ولتحسس تلك العلاقة عن قُرب اجريت مقابلات مع نشطاء ومجموعات موجودة في شبكات التواصل وموجودة أيضا على الأرض فيما عُرف بمجموعة " الخامس عشر من آذار" التي كانت التجسد والتمثل الواقعي الأبرز لحركة اجتماعية فلسطينية تعبر عن المجال العام وحاولت نقله إلى المجال الافتراضي وكيف كان التعامل الرسمي مع هذه المجموعات على الأرض؟ .

فالمساهمة الأهم التي توخت الدراسة تحقيقها هي تقديم شهادة علمية على مرحلة تاريخية معقدة وحافلة بالمفاجآت، وذلك بمعايشة عناصر الحدث والتحول في الميدان وتقديم شهادتهم ضمن السياق المعرفي الذي يتحرك

فيه الإعلام الجديد ، ومستوى المفارقة بين الحدث الإعلامي والتاريخي الذي تجسد بمشاركة شباب " الفيسبوك " في التحركات الشعبية الفلسطينية المطالبة بإنهاء الانقسام ممثلة بمجموعة 15آذار .

لذلك؛ فان قيمة هذه الدراسة تتمثل في محاولة رصد عمق التحول الصوري وعلاقته بالتحول على الأرض، ومدى التغير الفعلي نحو الديمقراطية وحرية التعبير، وهل بالفعل تم خلق طبقة تاريخية متماسكة أم أن الأمر يتعلق بطبقية الكترونية وحسب؟.

وتفترض الدراسة أن التحول التقني في العالم العربي وتطور التقنية : فضائيات ، مواقع الكترونية ومن ثم مواقع اجتماعية وحتى الهواتف النقالة، تفترض القراءة أن هذا التحول هو تحول طارئ وليس حداثيا، بمعنى أن هذه التقنية تفيد واقعا خدماتيا،عندما تكون المؤسسات التاريخية قوية : دولة ، أحزاب ، بنية تحتية . نقطة الانتقاد التي تقدمها هذه الدراسة أن هذه المجالات قد تحولت إلى بديل للمؤسسات التاريخية ، وحولت الرأي العام إلى مؤسسة تاريخية وهدا تحول خطير، يحول القضايا المصيرية إلى حالة خدماتية في الصراع على الرأي العام.

لذلك؛ فان هذه الدراسة لا تدعي التزامها الصارم بمعايير البحث الأكاديمي لعلاقتها بعنصر الزمن، وتقديم الشهادة الحية المرتبطة بالتنظير المعرفي ، فانحازت الدراسة إلى عنصر الشهادة المتفاعلة أكثر من تقديم افتراضات بحاجة أن تكتمل ، وذلك لطبيعة التحولات الهائلة في الحقل الإعلامي الجديد من حيث الشكل والمضمون واللغة . والتحول الاجتماعي السياسي المتسارع فلسطينيا، لذلك فان قيمة الدراسة تكمن في تفجيره لقضايا معقدة تصلح جميعا لتكون نواة لأبحاث جديدة .

إلى ذلك؛ فقد احتوت الدراسة على عدد من المباحث والمحاور وهي: قراءة في المفاهيم، مراجعة الأدبيات، مدخل نظري، المنهجية وأدوات التحليل، الإعلام الجديد وحرية التعبير، الانترنت في فلسطين، الرقابة والإعلام الجديد، الإعلام الجديد والثورات العربية، الفيسبوك في فلسطين، تحليل عينة من مجموعات الفيسبوك الفلسطينية والاستمارة، إلى جانب مبحث الإعلام الجديد... رؤية استشرافية، إلى جانب النتائج والتوصيات ومن ثم قائمة بالمراجع.

وتطرقت الدراسة بشكلٍ مسهب إلى المفاهيم المتعددة للإعلام الجديد، حيث بينت بوجود الصعوبة البالغة " في وضع تعريف شامل للإعلام الجديد، لعدة أسباب، تبدأ بأن هذا الإعلام هو في واقع الأمر يمثل مرحلة انتقالية من ناحية الوسائل والتطبيقات والخصائص التي لم تتبلور بشكل كامل وواضح، فهي ما زالت في حالة تطور واسع. وما يبدو اليوم جديدا يصبح قديما في اليوم التالي . وإذا ما أردنا وضع تعريف للإعلام الجديد بناء على الوسائل الجديدة فهي بالتأكيد ستكون قديمة بمجرد ظهور مبتكرات جديدة، وهذا مدعاة لصعوبة وضع تعريف محدد من هذا المدخل تحديدا، بينما يختلف الحال إذا تم وضع تعريف بناءً على مجموعة الخصائص التي تميز الإعلام الجديد، فهناك شبه اتفاق على جملة خصائص يتصف بها هذا الإعلام، وأهمها: الرقمية، التفاعلية، التشعبية، التفردية، التخصيص، الجماهيرية، وتزاوج الوسائط والتكنولوجيات.

وتطرقت الدراسة إلى الانترنت في فلسطين حيث عرفت فلسطين الصحافة الإلكترونية مبكرًا، إذا ما قورنت ببعض الدول العربية، وذلك لأسباب من ضمنها: توافر الخدمة المتطورة التي تقدمها شركات إسرائيلية كبرى متخصصة في هذا المجال، ومحاولة الفلسطينيين محاكاة الدولة العبرية في استخدامها الشبكة، لاعتقادهم بالدور

الذي يمكن أن تلعبه الصحافة على الإنترنت في الصراع الإعلامي والتعريف بالقضية الفلسطينية، ومعاناة الشعب الفلسطيني.

وقد كان الحضور الفلسطيني على شبكة الانترنت معادلاً موضوعيًا للوجود، وللرغبة في تأكيده على أرض الواقع وفي ميدان المواجهة. وقد مثل هذا - علاوة على نشر المعلومات والتعريف بالقضية وفضح السياسات الإسرائيلية - تحقُق رغبة داخلية في مقاومة النفي والإلغاء، ومحاولة الطمس المتكررة من قبل دولة الاحتلال؛ فحلم الدولة الفلسطينية قد تحقق في العالم الافتراضي من خلال انتشار العديد من المواقع الفلسطينية التي تحمل اسمها، وهي مواقع تنوعت ما بين رسمية وغير رسمية، وعنيت بمختلف ميادين الحياة بالداخل والخارج، فكانت الإنترنت نافذة يخترق بها الفلسطينيون الحصار المفروض عليهم من قبل الاحتلال، ويطلون منها على العالم متصلين ومتواصلين.

وبخصوص الإعلام الجديد في مستواه العام تبين الدراسة أن وسائط الإعلام الجديد، وفي مقدمتها " الفيسبوك" تتولى الآن إعادة تشكيل العقل الإنساني وطرق تفكيره وتوسيع نطاق الاتصال والتواصل والتأثر والتأثير، كما أن " الفيسبوك" أصبحت تمثل في بعض أبعادها مشروعات هادفة ودعوة للتغيير الاجتماعي والفعل العام المشترك وتوحيد الجهود، وبالتالي فهي تعمل على حدوث ثورة جديدة في العالم عن طريق استقطابها لتلك الملايين العديدة من البشر الذين لم يكن لهم سوى دور هامشي في الحياة فأصبحوا يناقشون مشكلات المجتمع والإنسان والعالم بأسره ويتبادلون في ذلك مختلف الآراء والخبرات ويؤلفون قوة فعالة من الرأي العام العالمي، قادرة على تغيير النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنفرد بصياغتها النخبة أو الصفوة . هذا المشهد العام (وفق الدراسة) لا يختلف في فلسطين وإن كان تأثير " الفيسبوك" واقعياً ليس بمستواه المطلوب، بينما في فضاءه الافتراضي فهو واسع، وسيتسع كلما " فرخت " القضايا، وتعقدت الأمور.

وتوضح الدراسة أن للإعلام الجديد فضلٌ كبير يتجلى في قدرته على تحقيق التواصل بشكلٍ فعال وتحويل العالم إلى " قرية صغيرة" ، تتلاحق سرعة ابتكارات وسائط اتصالية جديدة من الإذاعة إلى الشاشة، فالفاكس وصولا إلى الانترنت . كذلك؛ يتوقع البعض أن أساس النظام السياسي في مجتمع الإعلام الجديد سيتمثل بالديمقراطية القائمة على المشاركة بدلاً من الديمقراطية النيابية التقليدية في مجتمع الصناعة، إلى جانب المزيد من تدخل وسائل الاتصال في الأمور السياسية بدءاً من تقديم المرشحين للانتخابات وانتهاء بعمليات الحشد والتعبئة السياسية وتسهيل مهمة الحكومة في الحكم، مع استمرار توظيف تكنولوجيا الاتصال الحديثة عبر الوسائل المختلفة المحلية والإقليمية والدولية في معالجة القضايا السياسية التي أُدخلت في العلاقات الدولية وما أطلق عليه " دبلوماسية الإعلام الالكتروني" .

وبشأن الرقابة والإعلام الجديد أشارت الدراسة إلى أن الرقابة بكافة أشكالها، خصوصاً الرسمية منها أخذت تتراجع إلى حد الاختباء والاختفاء ليس في المشهد الفلسطيني فحسب، بل والعربي والعالمي عموماً. فسوط الرقيب والرقابة لم يعد قادراً على الفعل والمطاردة إزاء أولئك الذين ارتضوا أن يكونوا جزءاً من عالم الشبكات الافتراضية؛ يقولون ما يشاءون، معبرين عن آراؤهم ومواقفهم وهمومهم وآمالهم بكل حريةٍ سواء أكان ذلك بأسمائهم الحقيقية أو بأسماءٍ وهمية.

ولكن في مقابل ذلك تؤكد الدراسة أنه رغم أن التطور التكنولوجي في ميدان الاتصال قد أسهم في تعزيز الحريات الإعلامية، إلا أن وسائل السيطرة والمراقبة قد تطورت أيضاً على مستوى الواقع، بإشكال وصيغ أخرى مختلفة. وعملياً، فان الإعلام لم يخرج من دائرة الرقابة المسبقة أو اللاحقة إلا بحدود معينة ، وفي الوقت ذاته أظهرت أدبيات الدراسات الإعلامية مفاهيم في إطار المسؤولية الأخلاقية الجماعية، وفي حدود الحرية المسؤولة لوسائل الإعلام التي تحقق التوازن بين حرية وسائل الإعلام ومصالح الأفراد والمجتمعات من جهة أخرى.

وفيما يتعلق بمستقبل الانترنت خصوصاً والإعلام الجديد عامة فإن الدراسة توضح أن استخدام الانترنت كوسيط إعلامي ينذر بظهور نوع جديد من الطبقية يمكن أن يُطلق عليها " الطبقية الاتصالية ". فكما هو معروف، تسعى الدول المتقدمة حاليا إلى إقامة شبكات الطرق السريعة للمعلومات، ذات السعة الهائلة لتدفق المعلومات، وهو ما سيسمح لمواطني هذه الدول بالتفاعل الدينامي ثنائي الاتجاه: أخذاً وعطاء، مع مواقع المعلومات المنتشرة عبر الانترنت .

هذه الشبكات(حسب الدراسة) ستقسم العالم اتصاليا، إلى طبقة القادرين الذين ينعمون بمزايا هذا " التفاعل الايجابي" ، وما يعنيه ذلك من تنمية قدراتهم الذهنية وزيادة فاعليتهم وإنتاجيتهم، وطبقة المتلقين السلبيين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا استقبال ما تلقيه عليهم الشبكات عبر الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال الأخرى أحادية الاتجاه، لترسخ بذلك النزعة السلبية وتضمر لديهم إرادة المشاركة في عملية التغيير الاجتماعي . ولا شك في أن طبقية الاتصال ستزداد مع ما نلحظه- حاليا- من انحسار مجانية الإعلام، مثلما آلت إليه الحال بالنسبة إلى مجانية التعليم، لينتهي الأمر بنا إلى إتاحة الخدمة الإعلامية ذات القيمة لمن يدفع، واقتصار دور الإعلام المجاني على خدمة الإعلان التجاري ، أو التوجيه السياسي.

أما بخصوص الإعلام الجديد والثورات العربية فإن الواقع الافتراضي يعبر بصدق عن اكبر حراك سياسي واجتماعي تمر به المنطقة العربية منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، ويقدم شهادة حية على ما يحدث اليوم في أرجاء واسعة من المنطقة العربية فيما يبدو كأنه صحوة كبرى تولد اليوم صراعا صحيا بين أتباع الماضي وأنصار المستقبل، وهو التعريف العملي لفكرة الثورة في التاريخ. وكذلك؛ هو دليل مهم على بدء العرب، ربما للمرة الأولى في استخدام التقنيات الحديثة بشكلٍ ايجابي وفعال، بدلا من الاكتفاء بالاستهلاك السلبي الذي ميز السلوك العربي في مجمله لعدة عقود، وهو تطور له دلالة مهمة في كونه يشكل تحولا في فكر وذهنية الشخصية العربية لصالح النهضة والدخول إلى عالم الحرية والتعبير الحر عن الرأي، بما يعنيه ذلك من تحيز لقيم الحداثة والدخول إلى عصر جديد أكثر رقياً وبحثاً عن العدالة والجمال الأخلاقي والمجتمعي معاً.

وبشأن الحالة الفلسطينية بشأن الحراك الشبابي والمجتمعي فالدراسة تظهر أن الأمر لم يكن متماثلاً بالتحركات الشبابية الحاصلة في الوطن العربي وبالتالي فإن إسقاط الشباب الفلسطيني حالة العرب على ساحتهم بخصوص دور وتأثير مواقع التواصل الاجتماعي ، سيما " الفيسبوك" لم تكن مجدية، فضلاً عن أنه في الحالة الفلسطينية اعتبر " الفيسبوك " هدفاً في حد ذاته وليس أداة أو وسيلة تقنية ترفدها عناصر مساندة أخرى، وهذا كان بمثابة الخطأ الذي استجلب نتيجة قريبة إلى الفشل واجتراح أسئلة تثير من الانتقاد أكثر مما تؤسس قاعدة للترميم والعبر.

وفي نتيجةٍ عامة لتحليل مجموعات الفيسبوك الفلسطينية أوضحت الدراسة أن التحليل النهائي يصعب تثبيته في شكل معين للصفحات لأنها متغيرة الأشكال والمضامين بشكلٍ سريع لكنها تبقى مخلصة لبنيتها وبنية فاعلها. صحيح أن الصفحات عززت حرية الرأي والتعبير في فلسطين لكنها لا تعكس بالضرورة احتراما لثقافة الاختلاف وحرية الرأي . بالعكس كان هناك تقابل أحيانا بين حرية الرأي المحمية برموز مقدسات كبرى مثل الحرية، الكرامة، الجهاد، الوطن، القضية، الدين، والعادات.

إضافة إلى ذلك فإن الفيسبوك الفلسطيني لم ينسلخ مطلقا عن بنيته السياسية المشكلة من أحزاب ومنظمات مدنية والتي صادرت في النهاية معظم النشاط على الشبكة الافتراضية إلى حد تدخلها المباشر في الحد من هذه التحركات مثل الهجوم على ساحة الجندي المجهول في غزة والاشتباكات بالأيدي التي حدثت في مدينة رام الله بين نشطاء الحراك من أجل إنهاء الانقسام ونشطاء آخرين محسوبين على الحراك.

أما بشأن الاستمارة العشوائية البسيطة المكونة من 100 استمارة والتي أجريت في مدينة رام الله لرصد أولي لمشاعر وتوجهات الجمهور الفلسطيني تجاه العلاقة بين الفيسبوك وحرية التعبير، تبين أن ما نسبته74% من المستطلعة آراؤهم مشاركون في خدمة الفيسبوك و26% غير مشاركين . كما ورأى 67% من المشتركين أن الفيسبوك يساهم في حرية التعبير ورفع مستوى هذه الحرية، في حين رأى 33% أن الفيسبوك لا يساهم في هذه الحرية . كذلك، أفاد نحو 62 % من غير المشاركين في خدمة الفيسبوك أنه لا يساهم في حرية الرأي، في حين رأت النسبة الباقية من غير المشتركين أنه يساهم في حرية التعبير.

هذه النتائج ميلاً نحو التفاؤل لإمكانية أن يساهم الفيسبوك في تعزيز حرية الرأي والتعبير ولم يكن لمتغير السكن تأثير مهم ولافت في التصور لدور الفيسبوك مما يؤكد أن الفيسبوك يخلق نوع من الوحدة الزمنية أو ما يمكن أن يطلق عليه " الطبقة الالكترونية" . كما يلاحظ أن المشتركين في خدمة موقع الفيسبوك هم الأكثر تفاؤلا نسبيا من غير المشتركين.

وبخصوص نتائج الدراسة فقد جاءت على شكل إشكالية جديدة تقول: أن المشهد ليس بريئاً وأن تفكيك مناطق الظلال لا يعني إضاءتها، وأن التحول في المجال الرمزي لا يعني ضمان التحول في الواقع التاريخي. وقد نجم عن الدراسة مجموعةٍ كبيرة من النتائج، نذكر عدداً منها:

- هناك تحول عالمي في مصدر سقاية الوعي الجماعي يكمن في كون الفاعل التقني منافس قوي للفاعل الإنساني.
- عكست التحولات نفسها على المجتمع الفلسطيني الذي يعيش ضمن مجالين متوازيين هما: المجال الرمزي والمجال التاريخي الواقعي.
- الإعلام الجديد في نسخته الفلسطينية متشبع بأسس وصفات البنية الفلسطينية في علاقتها الداخلية وعلاقتها مع الاحتلال.
- هناك ضعف في الأدبيات الأكاديمية المتعلقة بنظريات التحول وعلاقتها بنظريات الوسائط الاتصالية في المشهد الفلسطيني.

- ساهم المجال التقني بتعزيز حرية التعبير وإعطائها متنفس وطريقة للنشر لكنه لم يبني ثقافة الاختلاف واحترام الرأي الآخر.
- هنالك ارتباك في الشارع الفلسطيني حول العلاقة بين تقنيات التواصل الاجتماعي وحرية التعبير رغم أن هناك نسبة كبيرة ترى أنه يعززها.
- الأحزاب والتنظيمات الاجتماعية والسياسية ما زالت هي سيدة الموقف وهي التي تتحكم من ناحية غير مباشرة بالحراك الالكتروني على المجال الافتراضي.
- هناك حالة من المفارقة بين الفعل على الأرض والفعل في العالم الافتراضي، وحتى الآن لم يستطع العالم الافتراضي تأسيس فعل مغاير على الأرض.
- تصبغ الانفعالية وحالات الاستقطاب السياسي والأمني والثقافي والرياضي مجمل مفردات ورموز التواصل الاجتماعي، الأمر الذي حد من قوة تأثيرها.
- إن الجهد الفلسطيني استغل الإعلام الجديد لبناء رأي عام لكنه لم يستطع تجاوز طرق العمل التقليدية في الأداء الفلسطيني في كافة حقوله.
- لم تستطع منظمات المجتمع المدني خلق قاعدة جماهيرية كافية لتحقيق التوازن مع البنى التقليدية بشكل حد من قوة فاعلية التواصل الاجتماعي.
- شكلت مواقع التواصل الاجتماعي منطقة جذب شكلت عالما بديلا لمناطق الطرد مثل القمع، الفساد، الانقسام، والترفيه، والتلصص.
- مجموعة الخامس عشر من آذار الداعية لإنهاء الانقسام كانت العلامة الصارخة على تصارع السياسي والاتصالي والتاريخي، حيث التعامل المتناقض معها من خلال منعها بقوة في غزة ومحاولة احتوائها في الضفة، الأمر الذي شكل خيبة أمل في قوة الشبكات الاجتماعية في التغيير وفي حرية التعبير.
- الجهد الفلسطيني في الإعلام الجديد لم يستغل الشبكات العالمية الافتراضية لإعلاء صوت القضية الفلسطينية وخلق حالة من التضامن العالمي، لأن قسم كبير من الجهد استغل في الصراع الداخلي.
- شكل التواصل الاجتماعي حلاً مؤقتاً لحالة الاغتراب السياسي والاجتماعي في المشهد الفلسطيني ، ولكن هذا الحل ليس مضمون النتائج.
- شكل المجال الافتراضي ساحة أخرى لصراع الشخصيات السياسية والأمنية والاقتصادية على استحواذ الرأي العام الفلسطيني .

أما توصيات الدراسة، فأهمها:

- على صناع القرار الفلسطيني العمل على بناء ثقافة الاختلاف وحرية التعبير، ضمانا لتحول ديمقراطي سليم.
- يمكن للمؤسسات التعليمية المختلفة توضيح الخلفيات النظرية والعلاقات السياسية والاجتماعية لشبكات التواصل الاجتماعي لخلق وعي في التعامل معها.

- على الأحزاب ومنظمات المجتمع الفلسطيني الكف عن نقل صراعاتها إلى المجال الافتراضي.
- حرية الرأي لا تعني حرية التشهير، فهي مرتبطة بثقافة الديمقراطية؛ لذلك على الفاعلين الفلسطينيين والتربويين تعزيز ثقافة الاختلاف ومفاهيم الديمقراطية.
- يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن تكون عاملا مساعدا في خلق تعاطف هائل مع القضية الفلسطينية.
- من المتوقع أن يستفيد الإعلام الرسمي في أن يكون أكثر شفافية في بث المعلومات لأنه لم يعد المصدر الوحيد.
- يجب الوصول إلى ميثاق شرف يعزز المسؤولية الاجتماعية ويفرق بين الحملة الصحفية والخبر الصحفي والمعلومة الصحفية.
- إن سرعة تدفق المعلومات تعني ضيق مساحة التحقق بشكل يجعل من الصحافي والناشر المسؤول أخلاقيا أمام ما يبث من معلومات.